الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES

المجلة التاريخية المصرية

يشرف على تحريرها

محمد شفيق غربال
رئيس الجمعية

محمد مصطفى زيادة
الأمين العام

سكرتير التحرير
أحمد محمد عيسى

المجلد السابع سنة ١٩٥٨

تطلب من الجمعية — ٢ شارع ناصر الدين المتفرع من شارع البستان
ومن المكتبات الكبيرة بالقاهرة

محتويات العدد

البحوث :

النصوص :

نقد الكتب :

البحـــوث

الحياة العلمية فى مصر والشام

٥٢١ — ٦٤٨ هـ (١١٢٧ — ١٢٥٠ م)

فى سنة ٥٢١ هـ، تولى عماد الدين زنكى بن آق سنقر إمارة الموصل من قبل السلطان السلجوقى الذى كانت له الكلمة العليا فى البلاد التى تعترف بخلافة العباسيين . وبدأت بولاية زنكى على الموصل حركة إحياء سياسىّ واجتماعىّ وثقافىّ فى مناطق الجزيرة العراقية والشام التى كانت حتى ذلك التاريخ مفككة الأوصال مشتتة الكلمة . ثم لم تلبث هذه الحركة الإحيائية أن انتقلت إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية ، سنة ٥٦٤ هـ ، أمام جيوش السلطان نور الدّين محمود بن زنكى . واستمرت هذه الحركة على نشاطها فى البلدين المتحدين منذ ذلك التاريخ حتى سقوط الدولة الأيوبية فى مصر ، سنة ٦٤٨ هـ، لتخلفها دولة المماليك البحرية التى بدأت عهداً جديداً من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية يختلف فى بعض مظاهره عن العصر الأيوبى ويتفق معه فى بعض آخر .

ومن ثَمّ كان تحديد بحثنا عن الحياة العلمية فى مصر والشام مرتبطا بهذين التاريخين : ٥٢١ — ٦٤٨ هـ ، أى شاملا للعصر الذى يبدأ بولاية عماد الدين زنكى إمارة الموصل وينتهى بسقوط الدولة الأيوبية فى مصر .

* * *

وقد شهدت هذه الحقبة التى نتحدث عنها تغيرات رئيسية هامة ، كان من

بينها سلسلة الحروب التى دارت رحاها — فى معظم مراحلها — بمصر والشام، وهى الحروب التى عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية . كما كان منها تلك الانقلابات السياسية والثقافية التى شهدتها هاتان المنطقتان نتيجة لتدهور سلطان الفاطميين الاسماعيليين وانتعاش النفوذ السنّى فى ظل حكم السلاجقة وأتباعهم بالشام ، ثم فى ظل الأيوبيين فى مصر والشام جميعاً .

وقد جاهد زنكى منذ تولى شئون الموصل لوضع حد للخلافات السياسة الإقطاعية التى مزقت شمل الشام والجزيرة العراقية ، فنجح بحروبه المتتابعة فى إيجاد نوع من الاتحاد شمل جزءاً كبيراً من هذه البلاد وأخضعها لسلطانه . ثم جاء بعده ابنه نور الدين محمود ، ٥٤١ ، فبدأ من حيث انتهى أبوه ، ونجح فى توحيد الشام والجزيرة جميعاً باستثناء المناطق التى كانت فى أيدى الصليبيين[1] ؛ ثم مدّ نفوذه إلى مصر حيث نجح قائده أسد الدين شيركوه ، عم صلاح الدين الأيوبى ، بعد محاولات ثلاث ، فى إخضاعها لسلطانه . وفى مصر ، بعد وفاة شيركوه ، ظهر صلاح الدين وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمى الشيعى ، وقائداً لجيوش صاحب الشام نور الدين محمود السلطان السنّى . ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية أن انهارت ، فزال بانهيارها آخر ظل للنشاط الاسماعيلى عن مصر ، واصطبغت البلاد منذئذ بالصبغة السّنّيّة فى مذهبها الدينى وفى نظامها السياسى .

لكن الوحدة التى نجح هؤلاء الرجال الثلاثة فى تحقيقها بين مصر والشام لم تسلم من الأخطار التى تهددتها فى شكل الحملات الصليبية المتتابعة لتأكيد سلطان أوربا على الأراضى المقدسة ، وللقضاء على قوة مصر التى حملت العبء الأكبر فى مقاومة هذه الحملات الصليبية . وكان لاتحاد القوى فى مصر

---

(١) كانت إمارة الموصل وما تبعها خاضعة لسيف الدين غازى بن زنكى ولكن سياسته العامة ، وسياسة من جاء بعده ، كانت متفقة تمام الاتفاق مع سياسة نور الدين ومتعاونة معها .

والشام ، برغم بعض المنازعات الداخلية ، فضل كبير فى فشل هذه الحملات التى لم تحقق من أهدافها ، عندئذ ، إلا القليل .

* * *

وفى حديثنا عن الحياة العلمية فى هذه الحقبة يحسن أن نبدأ بما ذكره ابن جبير فى « الرحلة » من أنه رأى فى دمشق وحدها ، أثناء زيارته لها ، نحو عشرين مدرسة ، كما رأى فى حلب خمس مدارس[1] . ويذكر ابن الشحنة فى كتابه « الدر المنتخب » من مدارس حلب عدداً يجاوز الخمسين ، انشئت جميعاً بين سنتى ٥١٦ ، ٦٦٥ ؛ ودمشق وحلب العاصمتان الرئيسيتان للشام فى هذه الحقبة من التاريخ . وهذان المثلان يكفيان فى الدلالة على مدى الاهتمام بالإحياء العلمى فى هذا العصر الذى نتحدث عنه ، غير أنه يحسن أن نضيف إلى هذا أن عدداً كبيراً من الزوايا والمساجد كان يؤدى وظيفة المدرسة فى هذا العصر على نطاق واسع أيضاً[2] .

وقد أنشئت أول مدرسة فى دمشق فى عهد الأتابك « طغتكين » الذى تولى إمارتها سنة ٤٩٧ هـ . لكن دمشق لم تفز بالشهرة الفائقة التى اكتسبتها فى ميدان النشاط العلمى إلا منذ عهد السلطان نور الدين محمود الذى اتخذها عاصمة الملك سنة ٥٤٩ . ولعل السر فى هذا أن المدة التى انقضت بين تأسيس أول مدرسة بدمشق واستيلاء نور الدين عليها ، حفلت بالنزاع المتصل بين أمراء المسلمين بالشام ، أو بينهم وبين الفرنج والصليبيين ؛ وهو النزاع المرير

---

(١) قام ابن جبير برحلات ثلاث من الأندلس إلى المشرق : الأولى سنة ٥٧٨ ، وهى التى كتب بعدها « الرحلة » ، والثانية بين سنتى ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، وفى الثالثة استقر بالإسكندرية حيث توفى سنة ٦١٤ هـ .

(٢) يقول ابن جبير فى « الرحلة » : « وبالجامع المكرم (يعنى بدمشق) عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس » . (الرحلة : ٢٦٦) ويقول : « ودهليز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب هى محاضر لمعلمى الصبيان » . (الرحلة : ٢٧١) . ويقول : « وفيه حلقات التدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع » . (الرحلة : ٢٧٢) .

الذى لم يدع فرصة لأى إصلاح علمى أو اجتماعى ، رغم توفر النية لدى بعض الأمراء .

والمدرسة كمركز للنشاط العلمى السنى تدين بوجودها لأسرة السلاجقة. ومن المسلم به أن المدرسة ظهرت فى صور مختلفة قبل ظهور السلاجقة بزمن فى منطقة خراسان ، وفى غيرها من الأقاليم الشرقية بصفة عامة[1] ، إلا أن أول من أنشأ المدرسة بنظامها الكامل الذى عرفت به فى بلاد العراق والشام ومصر كان نظام الملك وزير السلاجقة المتوفى سنة ٤٨٥ ، وهو مؤسس المدارس النظامية المعروفة[2] . وقد ذكرنا من قبل أن أول مدرسة أنشئت فى دمشق سنة ٤٩٧[3] .

* * *

ولم يكن ظهور المدارس فى مصر والشام بهذه الكثرة الملحوظة فى العصر الذى نتحدث عنه إلا مظهراً من مظاهر رد الفعل لتدهور الدعاية الشيعية الاسماعيلية التى فقدت سيطرتها أولا فى بلاد الشام، لانحسار سلطة الفاطميين عنها ، ثم انهارت أخيراً فى مصر بعد سقوط خلافتها الفاطمية أمام جيوش الفتح النورى ، ثم ، من بعده ، بجهود صلاح الدين .

والاستعراض التفصيلى للمواد التى كانت تدرس فى هذه المدارس خير دليل على صحة هذه الدعوى التى ذهبنا إليها .

---

(١) يقول المقريزى : « لم تكن المدارس معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة ؛ فأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة أهل نيسابور ، فبنيت بها البيهقية » . الخطط : ٢ : ٣٦٣ .

(٢) يقول المقريزى : « وأول مدرسة قرر بهـا للعلماء معاليم هى النظامية ، وقد تم بناؤها سنة ٤٥٩ » . الخطط : ٢ : ٣٦٣ .

(٣) وبنيت أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ هـ ، وعلى حائطها تاريخ سنة ٥١٧ ،وتسمى بالزجاجية . بناها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عندئذ ، ولما أراد بناءها لم يمكنه أهلها أول الأمر لأن الغالب عليهم حينئذ كان التشيع . انظر الدر المنتخب لابن الشحنة .

ذلك أن مواد الدراسة فى هذه الحقبة كانت تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعاً لاختلاف أعمار الطلاب من جهة ولاختلاف المذاهب التى أنشئت من أجلها ، ولـكنها مع هذا كانت تتفق جميعاً فى أمر واحد هو تجنب الدراسة الفلسفية والمنطقية . ولعل ذلك يرجع إلى أن المذهب الشّيعىّ الاسماعيلىّ بصفة خاصة كان يعتمد فى دعايته ، السرية والعلنية ، إلى جانب العاطفة الروحية ، على الجدل المنطقى وعلى الأسس الفلسـفية والرّياضية إلى حد كبير . وبهذا كانت المواد التى تدرس فى معظم مدارس الشـام ومصر فى العصر الذى نتعرض له تتركز حول القرآن والحديث والمذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة . وكان اختلاف هذه المذاهب فى بعض المسائل الفرعية سببا فى تجميع هذه المسائل الخلافية فى دراسات خاصة ، عرفت باسم « علم الخلاف » ، وقد برع فيها كثير من علماء هذا العصر وبخاصة من علماء الشافعية .

وفى « رحلة » ابن جبير ، وفى غيرها ، نجد حديثاً عن المدارس التى أنشئت للصبيان خاصة ، ويسميها ابن جبير أحيانا بالمـكاتب . وهدف هذه المدارس أن يحفظ بها الصبيان القرآن الـكريم ، تلقينا ؛ أما القراءة والـكتابة فـكانت تعلم للصبيان فى دراسة الشعر والأدب التى كانت تعتبر فى هذه المرحلة مواد مساعدة ؛ وإنما كان القرآن يعلم تلقينا صيانة له عن التحريف ، والتصحيف . وكانت المساجد ، كما يقول ابن جبير ، مكاناً آخر لتعليم القرآن لهؤلاء الصبيان الذين كانوا يفدون إلى المساجد لهذا الغرض . وكان لهؤلاء التلاميذ ، ولمقرئيهم مرتبات خاصة يستحقونها فى مقابل تدريس القرآن ودراسته[1] .

---

(١) يقول ابن جبير : « وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم الى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن . وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة . وأهل القدرة من الآباء ينزهون أبناءهم عن أخذها » . ويقول « وتعليم القرآن للصبيان تلقين ويعلمون الخط فى الاشعار ونحوها » . الرحلة : ٢٧٣ .

وكانت دراسة القراءات المختلفة للقرآن تأتى فى المرحلة التالية من الأهمية بالنسبة لحفظه حتى إن كثيراً من العلماء اشتهروا بين رجال هذا العصر بإتقانهم لها . ومن هؤلاء علم الدين السّخاوى (المتوفى سنة ٦٤٣) الذى اشتهر بها حتى كان الناس يتجمعون حوله ليقرءوا القرآن عليه بقراءته فى المسجد وفى الطريق بينه وبين منزله بسفح جبل قاسيون « فلا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد أمد طويل[1] » . وفى كتب التراجم التى تتحدث عن الشخصيات العلمية لهذا العصر كثير من أمثال الشيخ السخاوى .

ويجىء بعد القرآن وقراءاته علم الحديث ورجاله . وقد ظفر هذا العلم بمؤسسات خاصة أخذ كل منها اسم « دار الحديث » تمييزا لها من بقية المدارس . وأول دار للحديث بدمشق أسست أيام السلطان نور الدين محمود ثم تبع من جاء بعده مثاله ، ومن هؤلاء صلاح الدين الأيوبى ، والملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى والملك الصالح نجم الدّين أيوب .

ويلى هاتين المادتين الرئيسيتين فى الأهمية الدراسات الفقهية بمذاهبها الأربعة الرئيسية . أما قواعد اللغة العربية والدراسات الأدبية والتاريخية فلم تكن إلا من المواد المساعدة التى تمهد للدراسات الدينية العميقة التى تتمثل فى دراسة القرآن وقراءاته والحديث ورجاله ثم فى دراسة الفقه ومسائل الخلاف .

ومن بين المذاهب الفقهية الأربعة يحتل مذهب الشافعى مكان الصّدارة ، وبخاصة فى عصر الأيوبيين وذلك رغم أن نور الدّين محمودا ، الذى بدأ الاهتمام الجدىّ بالنشاط العلمى السّنّى ، كان يعتنق مذهب الحنفية . وفى تتبعّنا للنشاط العلمى الذى اتخذ طريقه من الشام إلى مصر فى أواخر عهد نور الدّين نجده يصطبغ بالصبغة الشافعية ، فقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة وعين الشيخ صدر الدين عبد الله بن درباس

---

(١) وفيات الأعيان : ١ : ٤٣٤ — ٤٣٥ .

الشافعي فى منصب قاضى القضاة ، وعين هذا الشيخ بدوره نوابه فى الأقسام الإدارية بمصر من رجال الفقة الشافعي[1] . ثم لم يلبث صلاح الدين أن اتخذ خطوة أخرى فى هذا الصدد عندما أسس مدرسة للشافعية بجوار قبة الإمام الشافعي وأتبعها بأخوات لها فى جهات أخرى . ومن ثَمّ لم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل[2] .

ومنذ بدأ الاهتمام فى الشام بإنشاء المدارس فى عهد نور الدين محمود أقبل أصحابه وأمراء جيشه على التنافس فى إنشائها ، وتابعهم على ذلك أصحاب الشام ومصر ، ومن اتصل بهم ، فى عصر الدولة الأيوبية . وكانت هذه المدارس موزّعة بين المذاهب الأربعة الرئيسية وإن اختلف الإقبال عليها من مذهب إلى آخر ، فكان مذهب الشافعى فى مرتبة الصدارة ، يليه مذهب أبى حنيفة ، ثم المذهب المالكى ، بينما كان لمذهب ابن حنبل المكانة الأخيرة إذ لم يقبل كثير من السّلاطين أو الأمراء أو العلماء على تشجيعه بدرجة كافية ، بل كان بعضهم يقاوم انتشاره ونشاط علمائه ويؤيد أتباع المدرسة الشّافعية فى معاداتهم له . ولعل السّر فى هذا أن رجال المذهب الحنبلي كانوا يحاولون فى هذه الفترة النظرة إلى المسائل الشرعية نظرة تحليليّة تعليليّة ويردون شبهات المناظرين من المناطقة بحجج جدليّة مشابهة تمشّيا معهم فى أسلوب مناظرتهم ، بينما كان الشافعية ، بزعامة إمامهم الأكبر ابن عساكر المحدث ، يلجئون إلى الحديث دائما ويشككون فى عقيدة الحنابلة وفى مقاصدهم .

ولعل السر فى تقدم الشافعية على الحنفية كذلك أن نور الدّين الحنفيّ المذهب وقف من المذاهب الأربعة موقفا محايدا وشجع العلماء جميعا على مواصلة جهودهم العلمية ، ووجه كثيرا من جهده وماله لدراسة الحديث

(١) يقول المقريزى : « فلم يستثن عنه فى أقاليم مصر إلا من كان شافعى المذهب ، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب الشافعى ومالك » . الخطط : ٢ : ٣٤٣ .

(٢) الخطط : ٢ : ٣٤٣ .

خاصة فأنشأ له مدرسة خاصة عرفت باسم دار الحديث النُّورية ، كما قدم ابن عساكر المحدث الشافعى الكبير فى مجلسه على سائر الأمراء والعلماء حتى كان ابن عساكر يضرب المثل بجلال مجلس نور الدّين ووقاره وتعظيمه للعلم والعلماء . ثم جاء بعد نور الدّين خلفاؤه الذين حكموا مصر والشام باسم الأمراء الأيوبيين ومعظمهم من الشافعية المتعصبين لمذهبهم ؛ وفى مقدمة هؤلاء صلاح الدين الأيوبى ، وأخوه الملك العادل سيف الدّين ، ثم الملك الكامل موسى بن الملك العادل . ومما يدل على موقف الأيوبيين من الشافعية تأييدا ومناصرة أن أحد علماء الحنفية كتب كتابا فى الفقه سماه . « النّورى فى شرح القُدورى » ، وتعرّض فيه لبعض رجال الحديث من الشافعية ، وبلغ خبر الكتاب صلاح الدّين فاستدعى مؤلفه يوم جمعة فى مسجد دمشق وطلب منه كتابه وأمر « بغسله » فى ميضاة المسجد[1] . ودليل آخر أن المعظم عيسى صاحب دمشق ، ابن الملك العادل ، اعتنق المذهب الحنفى واهتم بدراسته والتخصص فيه ، فبلغ أمره والده الذى حاول أن يسترده إلى مذهب الشافعى ، فغضب المعظم وكلم أباه ومن حضر مجلسه من العلماء بلهجة يتحدث أبو المحاسن ، صاحب النجوم الزاهرة ، عنها ، بأن السكوت عن ذكرها أليق[2] ، وذكر مؤلف « شفاء القلوب » أن مما قاله المعظم لأبيه حينئذ . « أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم » .

ومما يدل على أن مذهب ابن حنبل كان لا يجد تعضيدا كافيــا من الحكوميين أو من العلماء أن أبا شامة مدح أستاذه زين الأمناء ابن عساكر بأنه « كان لا يمرّ قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا بسبّهم له » . ويعلل أبو شامة هذا صراحة بالبغض العنيف الذى يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذى كان متبادلا بين الفريقين ، حتى إن زكى الدين بن رواحة أنشأ

---

(١) مؤلف هذا الكتاب الشيخ ابن أبى اليمش . انظر البستان الجامع لتواريخ الزمان فى حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢١١ .

مدرستين فى حلب ودمشق وأباح الدراسة فيهما لكل من رغب الاستزادة فى العلم على « ألا يدخلهما مسيحى أو يهودى أو حنبلى[٣] » .

ولكن سيطرة الشافعية والحنفية على الحياة العلمية لم يمنعا تطور مذهبي المالكية والحنبلية ، بل شجعتهما هذه السيطرة على المناضلة لمحاولة التقدم والرقى ، فنجحا إلى حد كبير ، وأمكنهما بذلك تقنين بعض قواعد الفقه الإسلامى المتعلقة بنظم الحكم السياسية فيما بعد ، وبخاصة جهود الفقيه والمصلح الاجتماعى الإمام ابن تيمية[٤] .

وكان لدراسة الطب فى هذه المرحلة نصيب ملحوظ فكان الطلاب ينقلون دروسه النظرية ويقومون بتمريناتهم العملية فى البيمارستانات حيث كان المرضى يعالجون من غير أجر وكان البيمارستان النورى بدمشق فى مقدمة هذه المؤسسات الصحية العلمية نشاطا فى هذه الحقبة ، ومن بعده بيمارستان صرخد ، ثم بيمارستان القاهرة . ومن أظهر أطباء هذا العصر ابن أبى أصيبعة الذى تلقى دراسته العلمية فى صرخد والقاهرة وترك كتابا خاصا فى طبقات الأطباء سماه « عيون الأنباء » .

* * *

ويمكن أن نقول إن هذا النشاط العلمى يدين بوجوده لعوامل ثلاثة متعاونة ، أولها كثرة المدارس وتنوعها ، وثانيها الهيئة الحاكمة من سلاطين وأمراء ، وأتباع للأمراء أو السلاطين ، وسيدات الأسر الحاكمة ، وثالثها جماعة العلماء .

وقد تحدثنا من قبل عن العامل الأول .

* * *

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات .

(٤) انظر :

Laoust (H.); Essai sur les Doctrines Socials et Politique de Taki-ad-din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

أما عن العامل الثانى فإننا نجد أن رجال الحكم والسلطة ومن اتصل بهم، كانوا يتنافسون فى إنشاء المدارس ، وبعضهم كان يبادر إلى هذا فور توليه منصبه الجديد ، بجعله عربونا لدى قومه على حسن السّياسة التى سيتبعها فى إدارة شئونهم ورعاية صوالحهم . ولسيّدات هذا العصر فضل كبير فى تأسيس الكثير من المدارس ، ونذكر منهم ، على سبيل المثال ، الخاتون عصمة الدّين زوجة السلطان نور الدّين محمود ثم ، من بعده ، زوجة السّلطان صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ، فقد أنشأت مدرسة فخمة فى دمشق عرفت باسم المدرسة العصميّة . ومن أتباع السلاطين نذكر قايماز صارم الدّين ، أحد مماليك السلطان صلاح الدين ، الذى أنشأ مدرسة باسمه بجوار منزله ، كما أنشأ عدة ربط للصوفية فى دمشق وفى غيرها من مدن الشام . ومن العلماء نذكر القاضى شرف الدين بن أبى عصرون الذى أنشأ مدرسة باسمه تواجه منزله بدمشق أيضا ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الذى أنشأ مدرسة فى القاهرة للشافعية والمالكية وألحق بها مكتبة بلغت عدة كتبها مائة ألف كتاب .

وفى كتاب الدّارس فى تاريخ المدارس للنّعيمى ، وفى كتب التراجم كذلك ، أمثلة لا تحصى للتدليل على هذه القضية .

ولم يقتصر اهتمام الهيئة الحاكمة ، ومن اتصل بها ، بحركة الإحياء العلمى على مجرد إنشاء المدارس وإنما كانوا يتخيرون لهذه المدارس أفضل الأساتذة وأتقاهم وأكثرهم قبولا لدى المتعلمين عامة ، بل كانت بعض المدارس تنشأ خاصة لعالم بعينه اشتهر بعلمه أو بمكانته بين الناس . فقد أنشأ ناصر الدين القيمرى مدرسة خاصة للأستاذ على بن محمود الكردى ، وقرر عند إنشائها أن يتولى شئونها بعد وفاة الشيخ الكردى أولاده وذريته . ومن قبل أنشأ السلطان نور الدّين محمود دار الحديث النّورية للحافظ أبى القاسم هبة الله بن عساكر الكبير محدث دمشق (الذى توفى سنة ٥٧١ هـ) .

وإنشاء مدرسة ما كان يعنى فى نفس الوقت تخصيص أوقاف بعينها يصرف إيرادها فى إدارة هذه المدرسة وفى دفع مرتبات المدرسين والمعيدين وفى حاجات الطلاب الذين كانوا فى أغلب الاحيان يقيمون بالمدرسة ويتغذون فيها ويحصلون منها على أدوات الكتابة والدرس ، بل كان من بين العلماء والطلبة من يتزوج ويقيم مع زوجه وأسرته فى المدرسة التى التحق بها مدرسا أو طالبا . ومما يدل على وفرة الأوقاف المخصصة للمدارس ، ما ذكره ابن جبير فى « الرحلة » عن مدينة دمشق التى استغرقت الأوقاف معظم أسواقها ومنشآتها ، وتوزعتها المساجد والمدارس والرّبط . وفى وصفه لإحدى المدارس الحنفيّة بحلب يقول : « ويتصل به (بجامع قلعة حلب) من الجانب الغربى مدرسة للحنفيّة تناسب الجامع حسنا وإتقانَ صنعة ، فيها فى الحسن روضة تجاور أخرى ؛ وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة . ومن أطرف ما يلحظ فيها أنّ جدارها القبلى مُفتّح كلّه بيوتا وغرفا لها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً ، فحصل لكلّ من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ، ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة[1] » .

ولم يقتصر مورد هذه المدارس على الأوقاف الكثيرة التى كانت تخصص لها ، بل كان للعلماء إقطاعات خاصة يمنحها لهم الأمراء ومرتبات تصرف لهم من خزانة الدولة . ويذكر القاضى الفاضل فى إحدى رسائله إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى . « أنّ أرزاق أرباب العمائم فى دولته ، إقطاعا وراتبا ، يتجاوز مائتى ألف دينار ، وربما وصل ثلثمائة ألف شهادة لله[2] » .

ومن مظاهر اهتمام الهيئة الحاكمة بالنشاط العلمى ما نقرؤه من أن السلاطين أنفسهم كانوا يهتمون بالأخذ بنصيب من الثقافة بالقدر الذى

---

(١) الرحلة : ٢٥٣ .

(٢) عيون الروضتين لأبى شامة . مخطوط بالمتحف البريطانى .

يمكنهم منه ظروفهم ، فكان صلاح الدّين يتلقى دروس الحديث من القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، حتى وهو في ميدان القتال ، كما حاول أن يحفظ القرآن الكريم عندما وجد فسحة من الوقت ، وبدأ هذا فعلا ، ولكننا لا نعلم مقدار نجاح هذه المحاولة ؛ وفي الإسكندرية اعتاد أن يحضر دروس الحافظ السّلفي مع من يصحبه من أولاده ورجال دولته . واهتم العادل سيف الدّين بثقافة أولاده حتى قيل إن ابنه الكامل استطاع أن يحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء عصره عن جدارة واستحقاق[1] . كما قيل إنه استطاع أن يعلق على صحيح مسلم علميا « بكلام مليح[2] » . والكامل هذا هو الذي اعتاد أن يعقد ندوة علمية دورية مساء كل خميس يتناظر فيها العلماء ويتجادلون ويشاركهم الكامل في جدلهم ومناظراتهم[3] . أما المعظّم عيسى صاحب دمشق ، وشقيق الملك الكامل ، فقد درس الفقه على مذهب أبي حنيفة في عناية وعمق ، وقد سبق أن ذكرنا رده على والده الملك العادل حينما حاول أن يصرفه إلى دراسة الفقه الشافعي . ويذكر سبط ابن الجوزي أن المعظم هذا اختار مجموعة من العلماء وكلّفهم بدراسة مسائل الفقه الحنفي لإفراد القضايا التي اختص بها الإمام أبو حنيفة وتلك التي تنسب إلى كل من صاحبيه محمد وأبي يوسف ، وكانت نتيجة هذه المحاولة كتابا جديدا في الفقه الحنفي ، سمي التذكرة ، في عشر مجلدات . فدرس المعظم هذا الكتاب بعناية ، وكتب بخط يده على كل مجلد منه عبارة تدل على أنه حفظ ما فيه جميعه . فلفت هذا نظر سبط ابن الجوزي فقال للمعظم : « إن أعظم العلماء حفظا لا يستطيع أن يدّعي أنه حفظ أكثر من كتاب القدوري ، وأنت تذكر أنك حفظت كتاب التذكرة جميعه !! إنني أخشى أن يؤخذ هذا عليك » . فتحداه المعظم عيسى أن يجمع له من أراد من العلماء ليختبروا حفظه لهذا الكتاب وقال : إن الألفاظ لا تهم ، وإنما الذي يهم هو ما تعنيه هذه

(١) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٨ .
(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٧ .
(٣) نفس المصدر : ٦ : ٢٣٢ .

الألفاظ[1] . واهتم المعظم كذلك بقواعد اللغة العربية لحفظ كتاب « المفصل » للزمخشرى ، وكان يشجع على الحفظ والدراسة بما يقدمه من مكافآت مالية فمن ذلك قوله : « من حفظ الجامع الكبير للكرمانى أعطيته مائة دينار ، ومن حفظ الإفصاح لأبى على فى النحو أعطيته مائتين» . فحفظهما جماعة ووفى لهم[2] . وعندما كتب سبط ابن الجوزى ترجمة المعظم عيسى فى حوادث سنة ٦٢٤ قال : « وفى هذه السنة ظهرت وفاة المعظم عيسى الملك الفقيه النحوى اللغوى . . . . . » الخ .

وللأمراء الأيوبيين نشاط آخر فى ميدان المعرفة ذلكم هو التأليف والتصنيف . فقد كتب المعظم عيسى كتابا فى الفقه الحنفى ، كما نظم مجموعة قيمة من الأشعار جمعها فى ديوان خاص . وألف الناصر داود كتابه « الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية » ، وخصص فيه فصلا تحدث فيه عن أصل الأسرة الأيوبية . وينقسم هذا الكتاب قسمين : أولها يشمل الرسائل والمكاتبات التى وجهها الناصر داود إلى بعض الشخصيات الرسمية وغيرها ، وثانيهما يحتوى الأشعار التى أنشأها مؤلفة فى عشرة أبواب[3] . وكتب المنصور محمد صاحب حماة كتابا عن تاريخ حماة والشخصيات التى زارتها أو استقرت فيها ، ويقع هذا الكتاب فى جزءين ، وقد سماه صاحبه : « المضمار فى التواريخ[4] » .

وهكذا نجد أمراء الأيوبيين يسهمون فى حركة الإحياء العلمى بطريق مباشرة بالتأليف والدراسة إلى جانب ما ذكرناه من قبل من مظاهر اهتمامهم بهذه النهضة .

* * *

---

(١) مختصر مرآة الزمان : ٤٢٦ — ٤٢٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وهو مخطوط بالمتحف البريطانى برقم Brit. Mus., or 3027 .

(٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين : ١٢٤ ، سبط ابن الجوزى : مختصر المرآة : ٤٠١ — ٤٠٢ .

ويتمثل العامل الثالث الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الحركة الإحيائية للعلوم ، فى جماعة العلماء . وطبعى أن تؤدى هذه الجهود العظيمة التى قامت بها الهيئة الحاكمة ومن اتصل بها فى إنشاء المدارس ، وتخصيص الأقاوف الغنية للإنفاق عليها ، والاهتمام بتشجيع الدراسات بوسائل مختلفة ، وتثقيف أمراء الأسرة الحاكمة ، والمساهمة فى حركة التأليف — طبعى أن يؤدى هذا كله إلى تكوين هيئة ضخمة من العلماء والأساتذة لسدّ حاجة المدارس المتزايدة إلى المدرسين والمثقفين . وطبعى كذلك أن تؤدى هذه الحركة التثقيفية الواسعة إلى تخريج عدد كبير من هؤلاء العلماء . ويتبين ضخامة عدد هذه الهيئة التعليمية من عبارة ذكرها العماد الكاتب فى مناسبة معينة عن مدينة دمشق عندما قال « إنّ الصّنْوّ فرق فى أساتذة المدينة ستمائة دينار ، فخص كل عالم دينار واحد[1] » .

والواقع أن كتب التراجم التى تتعرض للحقبة التاريخية التى نتحدث عنها تدلنا على أن هذا العصر كان حافلا بالشخصيات العلمية العظيمة .

وتبين الدراسة الدقيقة لهذا العصر أن الظروف التى سيطرت على جوّه العام جعلت أساس الحكم فيه مستنداً إلى دعامتين قويتين متعاونتين ، وإن اختلفت طبيعة كل منهما عن الأخرى ، إحداهما : طبقة أمراء الإقطاع ، وفيهم تركز النشاط الحربى وإدارة معظم شئون الإقطاعات والولايات المحلية فى ضوء السياسة العامة للدولة ، وكانوا يمدّون الخزانة العامة بما يفرض عليهم من أموال ؛ وثانيتهما طبقة العلماء ، وهؤلاء لم يكونوا أقل أهمية للدّولة من أمراء الإقطاع ، ذلك أنهم بنفوذهم المباشر على العامة وبثقة الرأى العام فيهم وتقديره لهم كانوا يستطيعون تعبئة القوى وتجميع الصفوف لتأييد الدولة أو لمناهضة الأمراء الذين ينحرفون عن الطريق السّوى فى إدارة شئون إمارتهم . ولم يقتصر أثرهم فى استقرار الأمور أو فى اضطرابها على تأثيرهم فى الرأى العام ، وإنما كان لبعض الشخصيات القوية

(١) الفتح القدسى ، ٤٨١ — ٤٨٢ .

منهم أثر مباشر في قوة الدولة أو في الحد من جبروت السلاطين وطغيان الأمراء . فهذا هو القاضي عيسى الهكاري يصحب جيوش أسد الدين شيركوه ، قائد نور الدين إلى مصر ، ويبقى فيها بعد تمام الفتح . وعند وفاة شيركوه ، الذي شغل منصب الوزارة للفاطميين نحو شهرين ، وقع الاختيار على ابن أخيه صلاح الدين ليتولى الوزارة بعده ، كما تقرر أن يقود جيوش نور الدين بمصر ؛ فغضب كثير من قواد الجيش وأمرائه الذين كانوا أسن من صلاح الدين وأقدم منه صلة بنور الدين ، وفي هؤلاء الثائرين شهاب الدين الحارمي خال الوزير الجديد ؛ فتقدم القاضي الهكاري لعلاج الموقف بحكمة وسياسة ، ونجح في جمع الكلمة حول صلاح الدين فتولى المنصبين جميعاً ، واكتفى من بقي على معارضته لصلاح الدين بالعودة إلى الشام . وواصل الهكاري بعد ذلك جهوده لخدمة صلاح الدين وصحبه في إدارة شئون مصر وصحبه في المعارك حتى مات في مخيمه قريباً من قلعة الخروبة ، المطلة على سواحل عكا ، سنة ٥٨٥ هـ . ومن علماء الشام كان الإمام الفندلاوي يتقدم صفوف القتال ضد الصليبيين ومات في ميدان المعركة . وكان الشيخ عبد الله اليونيني الحنبلي يخرج للحرب مع المجاهدين بقوسه الذي يزن ثمانين رطلا ، ويقول المترجمون لحياته إنه لم يتخلف عن معركة واحدة .

وفي الميدان الإداري قام العلماء بنصيب كبير لخدمة الدولة . فها نحن أولاء نجد القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين يوسف بن شداد يسوسون البلاد لصلاح الدين الأيوبي ويتولون أهم المناصب الحكومية في عهده ، حتى كان القاضي الفاضل يده اليمنى في ميادين السياسة والحرب والاقتصاد والإدارة ، بل كان مستشاره الأول في شئونه العائلية الخاصة . وابن الأثير الجزري كذلك يتولى الوزارة للملك الأفضل ، ابن صلاح الدين ، صاحب دمشق ؛ وصفي الدين بن شكر يتولاها للملك العادل ولابنه الملك الكامل كذلك . وفي مناسبة معينة يقرر نور الدين محمود إنشاء مسجد كبير في حلب

فيعهد بالإشراف على عمارته وبالإنفاق عليه من خزانة السلطان إلى الشيخ عمر الملا . ويعترض فريق من رجال نور الدين ، من المدنيين والعسكريين ، على هذا الاختيار ، فللشيخ ميدانه الذى لا ينازعه فيه أحد وهو ميدان العلم والقيادة الدينية ، أما الاشراف على العمارة والصرف فليس من اختصاصه ولا هو فى طاقته ؛ فيرد نور الدين اعتراضهم بأن الشيخ يخاف الله ولهذا فإن نقود المسجد لديه فى أمان وحسن رعاية ، لن يلحقها اختلاس أو انتقاص .

وهكذا نجد العلماء لا يقصرون جهودهم على ميادين العلم وإنما يؤكدون نفوذهم فى الإدارة وفى السياسة وفى الحرب بقوة شخصيتهم وبقيادتهم الموجهة للرأى العام . وقد توصل « لاوست » بدراسته لموقفهم هذا إلى أن نفوذهم كان يتزايد بالتدريج فى عصر الأيوبيين فمهد هذا لسيطرتهم المتحكمة أيام المماليك ، ومن مظاهر سيطرتهم عندئذ أن كل رسالة سياسية إلى الفرنج أو إلى بركة خان كانت تشمل واحـــدا من العلماء على الأقل . ويذكر « لاوست » كذلك أن ابن تيمية أحس بخطورة هذا الموقف فحاول بدراسته الإصلاحية الاجتماعية أن يخلص الإدارة الحكومية من الأمراء المتجبرين ومن العلماء الذين شاركوهم فى هذه الأرستقراطية الحكومية وأن يخضع الجميع للقانون الإسلامى الاجتماعى الذى يصبح العلمـاء فى ظله فى مكانة المرشدين فقط[1] .

على أن انصراف كثير من العلماء ، فى هذا العصر ، إلى شئون الإدارة لم يصرفهم ، وغيرهم من بقية العلماء عن ميدان المعرفة الذى تخصصوا فيه بل إنهم كانوا يستغلونه أحياناً لإصلاح شئون الدولة والحكم بطريق مباشرة تارة وبغير ذلك تارات أخرى . فقد ألف ابن شداد كتابه « فضائل الجهاد » للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وجمع فيه الأحاديث التى تحث على الحرب وجهاد الكفار ، يشجعه بذلك على موصلة حربه ضد الصليبيين حتى ينجح

---

(١) Laoust (H.), Essai sur les Doctrines Sociale et Politique de Taki - d - din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

فى طردهم نهائيا من بلاد الشام . وألف ابن الأثير ، صاحب الكامل ، كتابه « تاريخ أتابكة الموصل » وأهداه إلى السلطان الصغير القاهر مسعود صاحب الموصل تذكيراً له بالأمجاد التى كانت لآبائه أمراء الموصل ، وحثا له على أن يعمل على سلوك سبيلهم . وألف أبو شامة « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » تمجيداً لنور الدين وصلاح الدين ، وتوجيها لأمراء عصره الذين فشا بينهم الخلف والشقاق ، حتى يقتدوا بسيرتهما ويعرضوا عما هم فيه من حروب ومنازعات فرقت كلمتهم وأطمعت أعداءهم وإنما خص أبو شامة نور الدين وصلاح الدين بالتأليف لأنهما « فى المتأخرين كالعمرين رضى الله عنهما فى المتقدّمين » فأفردهما فى كتاب « لعله يقف عليه من الملوك من يسلك فى ولايته ذلك السلوك . . . . . . فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون : نحن فى الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير . فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو فى عصرهم ، من بعض ملوك دهرهم[1] » .

وكان لبعض العلماء نفوذ شخصى لدى السلاطين والأمراء . ويكفينا هنا أن نذكر من الأمثلة الشيخ سبط ابن الجوزى فقد نجح فى حث الملك الأشرف موسى على حمل السلاح والتقدم بجيوشه إلى مصر لمساعدة صاحبها أخيه الملك الكامل ضد الصليبيين الذين هاجموا دمياط واستقروا بها سنة ٦١٨ هـ ؛ وكان المعظم عيسى صاحب دمشق وشقيق الملكين قد فشل فى جمع قوى هذين الملكين من قبل . أما الملك الأمجد الأيوبى صاحب بعلبك فكان يزور الشيخ عبد الله اليونينى الذى لم يكن يحفل باستقباله ولم يقم أبداً لتحيته ، بل كثيراً ما لامه على مظالمه وكان الأمجد يعتذر إليه ويعده بالإصلاح . وقد نجح الشيخ اليونينى هذا فى دعايته ضد القراطيس السود العادلية التى طرحت للتداول بدلا من الدراهم والدنانير فبطل العمل

(١) كتاب الروضتين : ١ : ٥ . نشر وتحقيق دكتور محمد حلمى محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة — ١٩٥٦ .

بها[1] . وكان المعظم عيسى صاحب دمشق يمشى من القلعة راجلا إلى دروس الإمام تاج الدين أبو اليمن الكندى تكريماً له ولعلمه ، وحدث أن دخل مرة على التاج ، فسكت الحاضرون ، فقال التاج : إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم . فقال المعظم : لا والله ، إنّما القراءة بالنّوبة فليتموا » . أما الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقد نقم على الصالح اسماعيل ، صاحب دمشق ، لاستعانته بالفرنج ضد منافسيه من أمراء الأيوبيين حتى إنه قدم لهم مدينة صيدا عربوناً لصداقته . فأسقط العز اسم الصالح اسماعيل من الخطبة يوم الجمعة ، وأيّده فى هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية . ثم لم يلبث عز الدين أن خرج عن دمشق إلى مصر فأقام بها حتى توفى سنة ٦٦٠ . وعند وفاته قال الظاهر بيبرس ، صاحبها : « اليوم استقر ملكى لى ، فلو أمر عز الدين فى شأنى الناس بما أراد لأطاعوه مبادرين » .

وكان للنساء نصيب فى النشاط العلمى فى هذا العصر أشرنا إلى بعضه فيما تقدم عندما ذكرنا أنهن كن ينشئن المدارس الخاصة للصبيان ولدراسة الحديث وللمذاهب الفقهية المختلفة . ونود هنا أن نذكر أنه ظهر من بين السيدات من اشتهرت بالتفوق فى فن معين من فنون المعرفة فها هى ذى شُهْدة الكاتبة تكتسب شهرة فائقة لتخصصها فى دراسة الحديث وعلومه حتى أصبحت تعد من كبار رواته وحفاظه ، وتلك أخرى اسمها ست الكتبة نعمة بنت على اهتمت بدراسة الحديث كذلك وتخصصت منه فى كتاب الشمائل للترمذى .

* * *

وفى الحديث عن مواد الدراسة ذكرنا أنها تركزت حول العلوم الدينية طبقا للمذهب السنى أما الدراسات اللغوية والعربية فكانت تعتبر مساعدة

---

(١) المذيل على الروضتين : ١٢٥ .

على تفهم العلوم الدينية ، ودراسة الأخبار أو التاريخ لم تكن أكثر من مادة ثقافية تكميلية ، ومع هذا فقد التمس دارسوها لها صلة قريبة أو بعيدة بالدراسات الدينية ، فهذا أبو شامة صاحب الروضتين قد أقبل على دراسة التاريخ فى مرحلة متأخرة من حياته الدراسية بعد أن قضى جل عمره فى اقتباس الفرائد الدينية . وهو إنما قرر أن يصرف إلى التاريخ بعض وقته « ليحوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى » .

أما المنهج التفصيلى للدراسة فكان يختلف بالنسبة لأعمار الدارسين . فصغار الطلاب أو المبتدئون كانو يحفظون القرآن ويدرسون قراءاته المختلفة. ويتعلمون الشعر وأيام العرب وأخبارهم مستعينين بها على تعلم الكتابة ، ذلك لأنهم كانوا يحفظون القرآن تلقينا صيانة لكلام الله عن التصحيف والتحريف على يد هؤلاء الصبيان الصغار . وطريقة الإملاء والاستماع فى بقية المواد كانت مفضلة على طريقة النقل فى هذه الحقبة ، وبخاصة فى دراسة الحديث ، ذلك أن طريقة النقل والنسخ كانت تؤدى أيضاً إلى التصحيف والتحريف . وفى ذلك يقول ابن عساكر ، محدث دمشق الأكبر ، مفضلا طريقة الاملاء :

ألا إن الحديث أجلّ علم	وأشرفُه الأحاديث العوالى
وأنفع كلّ يوم منه عندى	وأحسنه الفوائد والأمالى
وإنّك لن ترى للعلم شيئاً	يحققه كأفواه الرجال
فكن ياصاح ذا حرص عليه	وخذه من الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترمى	من التصحيف بالداء العضال

ولهذا نجد معظم الإجازات العلمية التى كانت تمنح للطلبة من أساتذتهم مصدرة بعبارة : سمع منى ، أو قرأ علىّ ، أو نحو ذلك .

أما كبار الطلاب فقد رأينا أن العلم يُسّر لهم فى دور الحديث وفى

المدارس المختلفة بعد الفراغ من حفظ القرآن ودراسة قراءاته ، لكنهم لم يكونوا يقيدون بمنهج معيّن يتبعونه فى دراساتهم بعد اجتياز هذه المرحلة الأولى ، بل كانوا يختارون من المواد ما يناسبهم ومن الكتب ما يرغبون فيه وهم فى هذا الاختيار تأثروا إلى حد كبير بواحد من اثنين : أولهما شخصية من الشخصيات البارزة فى الميدان العلمى ، تميزت بتقواها وصلاحها وبعلمها الغزير وبتمكنها من المادة التى تخصصت فيها أو فى الكتاب الذى تعرضت لدرسه وشرحه ؛ وثانيها وفرة الأوقاف المخصصة لطلاب العلم فى مدرسة بعينها . ومعنى هذا أن الطالب كان لا يهتم ، إلا فى حالات قليلة ، باختيار علم بذاته ليتخصص فى دراسته لشغفه به أو لرغبته الخاصة فى الوقوف على أسراره . ولهذا أيضاً وجدنا العلماء فى هذه الحقبة يجمعون أنواعا مختلفة من الثقافة والمعرفة لا يتخصصون فى فن بعينه كما يتبين من كتب التراجم المختلفة .

لكنّ هذا لا يعنى أن التخصص العلمى قد انقطع تماما ، إذ أننا لا زلنا نجد من بين العلماء حينئذ بعض المتخصصين المبرزين ، ومنهم ابن عساكر الكبير الحافظ هبة الله محدث دمشق ، وتخصُّصُه دراسات الحديث ، وإن كان قد برع فى فقه الشافعى وكتب التاريخ . وعلم الدين السخاوى فى القراءات ؛ وزين الأمناء ابن عساكر فى فقه الشافعية ؛ وعبد الله اليونينى فى فقه الحنابلة ، وأبو اليمن تاج الدين الكندى فى علوم العربية .

ومن هؤلاء المتخصصين من اشتهر بإتقانه تدريس كتاب بعينه ، وهو نوع من المبالغة فى التخصص . ومن أمثلة هؤلاء علم الدين السخاوى المقرئ الذى تخصص فى قصيدة الشاطبى فشرحها ، ثم جاء أبو شامة الذى تتلمذ على السخاوى فزاد هذه القصيدة شرحا بعد أن لزم صحبة السخاوى زمنا طويلا . ومنهم كذلك ست الكتبة نعمة بنت على التى تخصصت فى كتاب الشمائل للترمذى ، وأبو اليمن تاج الدين الكندى الذى تخصص فى كتاب المفصل للزمخشرى .

ولعل السر فى قلة الانصراف إلى التخصص العلمى بصورة ملحوظة فى هذا العصر الذى نتحدث عنه أن الحركة العلمية بدأت ، واستمرت مدة طويلة ، قوية مندفعة متحمسة لمقاومة الدراسات الفلسفية والمنطقية التى كانت وسائل الدعاية الشيعية ، والاسماعيلية خاصة ، واستندت هذه الحركة القوية إلى الدراسات النقلية التى تعتمد على القرآن والحديث وعلى آراء أئمة الفقه القدامى الذين وضعوا أسس الدراسة السنية . ومن وراء هذه الحركة الأمراء والحكام ومن اتصل بهم يتنافسون فى إنشاء المدارس وفى تخصيص الأوقاف العظيمة الدخل للإنفاق على هذه المدارس وفى تقريب العلماء واستشارتهم فى شئون الدولة إدارة وسياسة وحربا واقتصادا .

محمد حلمى محمد أحمد

القوط والأمبراطورية الرومانية

حتى نهاية القرن الرابع للميلادى

أصل القوط — موطنهم — هجرتهم إلى البحر الأسود فى القرن الثانى الميلادى — احتكاكهم بالأمبراطورية الرومانية — إنقسامهم إلى شرقيين وغربيين — القوط الغربيون فى داكيا ووصول المسيحة إليهم على يد أوليفلاس القوطى — القوط الغربيون والأمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى .

* * *

يعتبر عنصر القوط (Goths) أعظم قبائل الجرمان الشرقيين إطلاقا ، فهم أكثرهم عددا وأشدهم خطرا على أوربا ، عبروا كأغلب أقرانهم من اسكندناوة ، منذ الزمن السحيق ، وذلك قبل القرن الرابع قبل الميلاد[١] ، واستقروا عند مصبات الأودر والفستولا حالين محل الروجيين والوندال ، ويحتمل أن وصول القوط قد أدى إل تحرك القبائل الجرمانية الأخرى نحو الغرب[٢] .

وقد ذكر بثياس (Pythias) الرحالة الأغريق المرسيلى القديم ، وهو من معاصرى الاسكندر المقدونى ، أن هناك شعبـــا يعرف باسم القوط (Guttones[٣]) يقيم فيما هو بروسيا الشرقية الحالية أى فى الركن الجنوبى

---

(١) Painter, p. 21; Moss, p. 44.

(٢) Lot, p. 75

(٣) ذكر اسم القوط بأشكال مختلفة منها : Gotenes , Gothones ; وكلمة Guttones ترادف الكلمة القوطية (Gut - Thinda) بمعنى الشعب القوطى . Hodgkin, I, p. 34

الشرقى من ساحل البحر البلطى وحول خلجان دانتزج الحالية ، ويعمل هذا الشعب فى تجارة العنبر الذى يجمعه من سواحل البحر[1] . وكان بثياس قد قام برحلة عام ٣٤٥ ق.م ولم يسمع عن هذا الشعب بأكثر من هذه العبارة لمدة أربعة قرون بعد ذلك . ويؤكد المؤرخ الرومانى القديم بلينى Pliny المتوفى عام ٧٩ م ، بأن هؤلاء لم يزالوا يقيمون حيث هم فى أيامه ، كما أن تاكيتوس (Tacitus) أعظم مؤرخى الرومان والمتوفى حوالى عام ١١٧م ، أورد أسم القوط (Gothones) فى معرض حديثه عن الجرمان وقال فى الكتيب الذى وضعه عن جرمانيا (Germania) بأن نظام الملكية قام ونما بين القوط أكثر من غيرهم من العناصر الجرمانية[2] .

وموطن هؤلاء القوط الأصلى هو شبه جزيرة اسكندناوة فى السويد بصفة خاصه ، وكانت تعرف باسم جزيرة سكاتزيا او جزيرة سكين (Scanzia,[3] Skane) وظلوا فترة من الزمن فى المنطقة المعروفة باسم (Gothiscandza أو Gothland) جنوب السويد ، ثم عبروا إلى الساحل الأوربى[4] ، ورغم أن هذه المنطقة قد عرفت باسم العنصر المعروف باسم جوتر (Gauter) إلا أن هذا العنصر الأخير قريب الشبه من القوط مما يحمل على الظن بأن الاسمين لمسمى واحد ، كذلك يدل اسم جزيرة جوتلاند (Gothland[5]) فى البحر البلطى ، على أن القوط أقاموا فيها فترة أو كانوا يسكنونها ، وكانت قديما تعرف باسم جوتلاند (Gutland) ومما ورد فى الأغانى (Sagas) الشمالية ، وأشعار الأنجلوسكسون ، أن شبه جزيرة جوتلاند (Jutland)

---

(١) Courcelle, p. 5, Mommsen, III, p. 480 : Tacitus, p. 339.

(٢) Hodgkin, I, p. 34 : Bradley, p. 1 — 2 : Tacitus, p. 336 : Encycl. Brit., Art. "Goths"

(٣) Taylor, pp. 102—10; Hodgkin, I, p. 33

(٤) Deanesly, p. 26

(٥) تقع هذه الجزيرة بين خطى عرضه ٥٧° ، ٥٨° شمالا وتخضع حاليا للسويد .

كانت قديما (موطنا لفرع من القوط يعرف باسم Hréth- Gotan أو Reidhgotar[1]) .

* * *

وعندما وصلت جموع القوط إلى الساحل الأوربى ، استقروا قرب بومرانيا الشرقية حيث هزموا العناصر المقيمة بها والمعروفة باسم (Ulmerugi) كما هزموا جيرانهم الوندال والروجيين ، وبعد فترة من الزمن هاجروا إلى سكيثيا (Scythia) واستقروا فى المنطقة التى أطلقوا عليها اسم أيوم (Oium) شمالى البحر الأسود فى حوض نهر الدنيبر . وكان ذلك خلال الصف الثانى من القرن الثانى الميلادى تقريبا[2] .

ومن القبائل التى صحبت القوط فى هجرتهم ، وربما كانت خاضعة لهم أو مرتبطة بهم بحلف أو معاهدة ، قبائل الهيروليين Heruli ، والسكرين (Scirians) ، والتونكيلين (Tuncilings) والجبداى (Gepidae)[3] . ويبدو أن هذه القبائل كانت أقرب إلى القوط من غيرها من فروع التيوتون[4] .

والملاحظ أن الرومان قد خلطوا بين القوط وشعب آخر يعرف باسم الجتيين (Getae) كان يسكن شمالى مصبات الدانوب ، إذ حدث على عهد الامبراطور أغسطس (٣٠ق . م - ١٤م) ، أن نفى الشاعر أوفيد (Ovid) حيث عاش وسط ذلك الشعب ، وحين وصل القوط إلى هذه المنطقة فى القرن

---

(١) Bradley, pp. 7—8.

(٢) Encycl. Brit. ؛ Hodgkin, I, pp. Lo — 1

(٣) هناك رواية نقلها جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى فى القرن السادس الميلادى ، — ربما عن الأساطير والأغانى القديمة — مؤداها أن القوط حين انتقالهم إلى الساحل الأوربى ، كانوا يركبون فى ثلاث سفن بقيادة ملك بريج (Berig) ، وحدث أن وصلت إحدى السفن متأخرة لثقل حمولتها ، ولهذا التأخر عرف ركاب هذه السفينة باسم (Gepids) من الكلمة القوطية : (Gepanta) بمعنى البطىء (Hodgkin, I, Pp. 33, 40; Lav. et Ram. I, p. 49

(٤) Bradley, p. 8.

الثالث الميلادى ، اختلطوا بالعنصر القديم ، ومن هنا اختلط على الرومان أن الاسمين لمسمى واحد حتى صاروا يطلقون اسم القدماء على الغزاة الجدد ، ولهذا أشباه فى التاريخ كأطلاق اسم البريطانيين القدماء مثلا (Britones) على الغزاة الجدد من الأنجلوسكسون ، ووقع فى هذا الخلط كذلك جوردان المؤرخ القوطى ، لأنه قرأ ما كتبه الرومان عن هذا الشعب ، والصواب أن الشعبين يختلفان جنسا ولغة(١). ومنذ انتقال القوط إلى شواطىء البحر الأسود دخل الكثير منهم طوعا فى خدمة الأمبراطورية الرومانية فى الشرق ، فمثلا نجد أن منهم من عمل بوابا أو بناء أو سباقيا(٢) .

ولم يكد يأتى عام ٢١٤ م حتى كان القوط قد انتشروا حول شواطىء البحر الأسود الشمالية ، ووجدوا أنفسهم لأول مرة وجها لوجه مع الأمبراطورية الرومانية ، وذلك على عهد الأمبراطور كراكالا Caracalla - (٢١٢ - ٢١٧(٣)). ولما كان شأن هذه القبائل البدوية النقلة والاعتداء على المناطق الغنية ، نزولا على ما طبعوا عليه من الجفوة والغلظة وحب المغامرات ، ثم لحاجتهم للعيش بأية وسيلة ، فقد بدأت اغاراتهم(٤) ، إلا أن الرومان ، وقد استشعروا خطرهم الداهم(٥) ، حالفوهم حوالى عام ٢٢٥ م ، وقرروا لهم جعلا (Stipendia) سنويا نظير قيام القوط على حماية حدود الأمبراطورية ضد السارمات(٦) (Sarmatas) وهم البرابرة الذين يقيمون فيما وراء القوط . غير أنه حدث على عهد الامبراطور فيليب (٢٤٤ - ٢٤٩) ، أن قطع هذا الجعل فعبر أوستروجوتا (Austraguta أو Ostrogotha)

---

(١) Gibbon, II, p. 342 Bradley, p. 19 ؛ Hodgkin, I, N. A., pp.98—100

(٢) Lav. etRamb., I, p. 56.

(٣) Encycl. Britt. ؛ Hodgkin, I, p. 43.

(٤) Deanesly, P. 26.

(٥) Cam. Med. Hist I, p. 39.

(٦) Hodgkin, I, p. 49.

ملك القوط[1] . ويدل اسم هذا الملك على أن فرع القوط الشرقيين كان قد تولى قيادة هذه الحملة . عبر استراجوتا نهر الدانوب ونهب ولايتى مؤيسيا (Moesia) على الشاطىء الجنوبى للدانوب وتراقيا . وقام القائد الرومانى السناتور دكيوس ، الذى صار امبراطورا فيما بعد ، على رأس جيش لدفعهم ، فرأى القوط ألا قبل لهم بمدافعة الرومان فانسحبوا فى هدوء وعادوا من حيث أتوا وعبروا الدانوب . ويقال إن عددا كبيرا من الجنود الرومان قد انضم إلى القوط وحرضوهم على هجوم آخر بسبب تحقير دكيوس لهم ورميهم بالاهمال والتقاعد حتى طرد عددا كبيرا من جنوده لأنهم فى نظره غير جديرين باسم الجنود[2] . وحينئذ تشجع ملك القوط وأرسل قوة بقيادة قائدين قوطيين هما : أرجيت Argith وجونثاريك (Guntharic) ؛ استطاع هذا الجيش أن ينهب بعض أجزاء من ولاية مؤيسيا ، بل حاصر عاصمتها مدينة مارقيان (Marcianopolis[3]) ولم يجد سكانها بدا من مفاوضة القوط لرفع الحصار نظير دفع مبلغ كبير من المال فعاد القوط إلى أراضيهم[4]

ويبتدىء تاريخ القوط المحقق حوالى هـــذا العهد ؛ فقد تأسست الامبراطورية القوطية المترامية الأطراف جنوب روسيا وشمال البحر الأسود ، وفيها يجرى نهر دنيستر ، ويجاورهم من ناحية الشمال الغربى عنصر الفن (Finns) ومن الشرق الآلان (Alans) الفرس ، ولـكن يلاحظ

---

(١) الملك ارستراجوتا أو أوستروجوتا أول ملوك أسرة الأماليين (Amalings) وهى الأسرة الشهيرة التى انحدر منها ملوك القوط الشرقيين ، ولهذه الأسرة شهرة واسعة فى الحروب وهى سليلة بطل ظفر بلقب (Amala) أى العظيم ؛ ولقد برهن الملك أوستراجوتا على أنه جدير بحمل لقب أسرته ، فاشتهر بدوره بشدة مراسه فى الحرب وصبره فيها حتى لقب « بالصبور » ؛ توفى عام ٢٥٠ م . وأبرز سلالة أسرة الأماليين الملك اورمانريك الذى انتحر عام ٣٧٥ م . (Lav. et Ramb., I, b. 49 ؛ انظر ما على ص ١١ ، ١٨ و Bradley, pp. 13, 43; Hodgkin, I, pp. 43, 76—77.

(٢) Hodgkin, I, p. 49.

(٣) شيد الامبراطور تراجان هذه المدينة تذكارا لأخته مارقيا Marcia .

(٤) Hodgkin, I, p. 50 ، Breadley, pp 54 - 26.

على هذه الإمبراطورية أنها كانت مفككة غير متماسكة الأجزاء[١] ، وبهذا الوضع أخذ القوط يلحون فى قرع بلاد الأمبراطورية الرومانية فتحركوا عام ٢٥٠ م بعد أن مرنوا على الحرب بالفرسان الثقيلة ، وتابعوا تخريبهم فى بلاد البلقان بقيادة ملكهم كنيوا أو كنيفا (Coiva و Kniva[٢]) وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة فيليب (Philippopolis[٣]) حيث استمات الإمبراطور دكيوس فى الدفاع عنها ، وظل يحارب حتى قتل هو وابنه فى الحرب عام ٢٥١ م فى وقعة دبروجه (Abrittus) ، وفشل خليفته على العرش الأمبراطورى تربونيانوس جالوس (Trebonianus Gallus) فى دفعهم فسلّم لهم بالاستيلاء على البلاد التى فتحوها كما تعهد لهم بدفع جزية سنوية نظير عدم اعتدائهم[٤] . غير أن الفوضى الحزبية التى تلت هذه الحرب ، فى بلاد الإمبراطورية ، قد تركت الميدان خاليا تحت رحمة البرابرة ، وعجز الإمبراطور فالريان (٢٥٣ — ٢٦٠) عن القيام بأى عمل فعال ، نظرا لانشغاله فى الحرب ضد الفرس فى أطراف آسيا الصغرى ، إذ حدث أن استولى الفرس على أرمينية وانطاكيا ، ولكنهم هزموا هزيمة شنعاء قرب الرها عام ٢٥٩ / ٢٦٠ م . وخلال هذه الفترة كان القوط قد استأنفوا غزواتهم ، فاستولوا على القرم ، وعبروا البحر الأسود وضربوا مدينة طرابزوند على ساحله الجنوبى ، بل أمعنوا فى ايغالهم فى بلاد الإمبراطورية وضربوا خلقدونية ونيقوميديا وغيرها ثم عبروا إلى أثينا ونهبوها ٢٦٧ م وجمعوا ما فى مكتباتها من كتب ، وأوشكوا أن يحرقوها ، لولا أن أحد عقلائهم نصح قومه بترك هذه الكتب ليتلهى بها الأغريق عن الانشغال فى الحرب[٥] . كان ذلك على عهد الأمبراطور جاليانوس

---

(١) Deacsly, pp 27 - 76 Boiss, pp 8 - 9.

(٢) ليس هذا الملك من سلالة الملك السابق .

(٣) Hodgkin, I, pp. 52—35.

(٤) Deanesly, p.26 ; Lot p. 35 ; Bradley, pp. 26—9.

(٥) Bradley, pp. 31—33.

(٢٦٠ — ٢٦٨) Gallianus . وبعد مقتل جاليانوس على يد الحشاشين استطاع خليفته وهو الأمبراطور كاوديوس الثانى Claudius — (٢٦٨ — ٢٧٠) اليانونى ، أن يهاجم القوط وأخلافهم من الباستارن والجبداى والهيروليين عند ما كانوا يخرجون فى مدن موءيسيا . وفى وقعة حربية عنيفة قرب نيسس Naissus وهى نيش فى صربيا العليا — عام ٢٦٩م ، لقى القوط صدمة عنيفة ، خسروا فيها نحو خمسين ألف من رجالهم ، ومن أجل هذا الظفر لقب الإمبراطور كاوديوس بقاهر القوط - Gothicus - ومع هذا ، فلم يستطع خلف كلوديوس وهو أورليان Aurelian (٢٧٠ — ٢٧٥) أن يتابع الزحف ، حقيقة انتصر على القوط ولكن انتصاره لم يكن حاسما ، وخسر كثيرا كما أن القوط أنفسهم قاسوا الكثير بسبب الحرب ، فتهيأت الأحوال من الجانبين للموافقة على عقد هدنة ومعاهدة ، منح القوط بمقتضاها مقاطعة داكيا (Dacia)[١] وتشمل ماهو ترانسلفانيا الحالية والجزء الغربى من المجر وغربى ولاشيا[٢] ؛ وفى نظير ذلك يتعهد القوط بامداد الجيش الرومانى بفرقة من الفرسان القوط قوامها ألفا فارس . ثم إن الإمبراطور أخذ عددا من أبناء وبنات الأسر النبيلة القوطية كضمان لولاء القوط أو رهينة لينشأوا تنشئة رومانية فى رعاية الإمبراطور ، وبعد ذلك عين بعض شباب القوط فى مناصب عليا بالقصر الإمبراطورى وزوج عددا من بنات القوط من كبار ضباطه . بهذا الارتباط أضحى القوط محالفين ومحافظين على المعاهدة لمدة نصف قرن تقريبا ، حيث استفادوا من حياة السلم فى داكيا وتأثروا بالحضارة الرومانية أكثر من أشقائهم الشرقيين المنتشرين فى وديان ليتوانيا الواسعة وجنوب روسيا[٣] .

وفى فترة الخمسين عاما منذ عهد أورليان ، كان تاريخ القوط فيها غير

---

(١) أضيفت هذه الولاية على عهد الأمبراطور تراجان .

(٢) Gibbon, I pp. 372—74, Courcelle, p. 10 ; Hodgkin, I, pp. 5—6

(٣) Hodgkin, I, pp. 69—70, 73—4; Bradley, pp. 34—7.

واضح . وأول خروج لهم بعد انقضاء هذه الفترة كان عام ٣٢٢ م ضد الإمبراطور قسطنطين الأكبر فهزمهم وأخضعهم حتى أنهم ساعدوه فى السنة التالية ضد منافسه ليكنيوس ، وقاد القوط فى هذه الحرب ملوكهم ، مثل أرياريك وأيوريك Ariaric, Aoric[1] . وبعد ثمانى سنوات حاربهم قسطنطين مرة أخرى وانتصر عليهم فطلب القوط مهادنتهم وعقدت محالفة ظل القوط بعدها نحو ٣٠ سنة لا يقلقون أمن الإمبراطورية[2] . على أنه حتى ذلك الوقت لم يكن العنصر القوطى قد هاجر بأعداد ضخمة إلى البلقان ، فلم تزل هناك إمبراطوريتهم الواسعة جنوب روسيا ...[3]

* * *

وعن انقسام القوط إلى شرقيين وغربيين ، فالمعروف أنهم منذ مطلع القرن الثالث الميلادى ، وهم على شواطىء البحر الأسود الشمالية كانوا قد انقسموا إلى فرعين كبيرين هما . القوط الشرقيون (Grentungs أو Grentungi والقوط الغربيون (Thervings أو Tervingi) . أقام الأولون شرق نهر دنيستر بينما استقر الآخرون فى غربه ، ولا تعنى هذه التسمية سوى دلالتها على الوضع الجغرافى لهذين الفرعين[4] ، ولو أن من المؤرخين من أضاف إلى هذا التمييز المكانى تميزا معنويا آخرا ، فيفسر كلمة (Greut hungi أو Greutungs) التى صارت فيما بعد (Ostrogoths) بمعنى القوط اللامعين من الكلمة (Autr) بمعنى اللامع ، وكلمة (Thervingi أو Tervingi) وهى التى عرفت فيما بعد باسم (Visigoths) بمعنى القوط العقلاء أو الراشدين[5] . ومهما كان التمييز بين الفرعين فالثابت أن الحد

(١) Hodgkin, I, pp. 71 — 74

(٢) C. Med. H., I, p. 39 ' Bradley, pp. 40—41 ' Lot, p.p.35-6.

(٣) Hodgkin, I, p. 71 ; Deanesly, pp. 26—7

(٤) C. Med. H., I, p. 39 ' Moss, p. 44 ; Lav. et Ramb. I, p. 49 Bradley, p. 5.

(٥) Hodgkin, I, pp. 100—102; Lot, p. 50

الفاصل بين عنصرى القوط هو نهر دنيستر (Thyras) . والثابت كذلك أن القوط بشطريهم ظلوا يعملون معا ، كما وضح من الأحداث السابقة وأن العنصر الغالب فى الفريق الذى احتك بالإمبراطورية الرومانية كان من القوط الغربيين ، ولو أن الجميع يخضعون لسيادة عليا واحدة هى سيادة ملك القوط الشرقيين . ثم إن الغربيين هم الذين عقدوا المعاهدة مع الإمبراطور أورليان ، واستقروا بمقتضاها فى منطقة داكيا ، وهم الذين خرجوا على عهد قنسطنطين الباكر وحاربوه وانهزموا أمامه ففقدوا معه معاهدة. وكان من نتيجة الإقامة الطويلة فى ولاية داكيا — وتقدر بنحو مائة سنة من ٢٥٠ إلى ٣٥٠ م — أن الشقة قد اتسعت بين فرعى القوط[١] . ومن عجيب الصدف أن هذا التمييز الجغرافى بين فرعى القوط ، ظل واضحا حتى بعد تكوين دول القوط فيما بعد ، فكان القوط الغربيون فى تولوز فى الغرب بينما كان القوط الشرقيون ، إما فى المجر أو فى إيطاليا أى شرقى أشقائهم[٢] .

ظل القوط الغربيون يخضعون لسيادة أشقائهم الشرقيين فترة طويلة ، وكان الشرقيون قد كونوا لهم إمبراطورية متسعة بلغت ذروة مجدها واتساعها خلال القرن الرابع الميلادى وذلك على عهد ملكها إرمانريك (Ermanaric أو هرمانريك Hermanric) الذى ولى العرش عام ٣٥٠ م وهو سليل أسرة الأماليين[٣] . شملت هذه الإمبراطورية ماهو أوكرانيا الحالية تقريبا ، ولبعد صيت هذا الملك شبهه جوردين مؤرخ القوط ، بالإسكندر المقدونى ، وقالوا عنه أنه إسكندر القوط الشرقيين[٤] . ورغم

---

(١) Bradley, p. 38 ; Deânesly, p. 26 ; Hodgkin, I, p. 74.

(٢) Hodgkin, I p. 73

(٣) انظر ما سبق ص ٥ حاشية ٧ .

(٤) قامت امبراطورية القوط الشرقيين على حساب عنصر السارمات الأيرانى الذى كان قد حل قبل ذلك محل السكيثيين (Scythians) الأيرانيين ، شمالى الدانوب حتى نهر دنيستر ؛ وذلك منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، فانحاز السكيثيون إلى الأطراف عند نهر الدن (Tanais) =

خضوع القوط الغربيين لسيادة إرمانريك ، فإنهم كانوا مستقلين من الناحية العملية ، يرأس كل قبيلة من قبائلهم حاكم أو قاض ، من أنفسهم ، نظراً لأنه لم تكن لهم رئاسة موحدة ، وإن اعترفوا جميعاً — ولو نظرياً بالسيادة العليا لملك القوط الشرقيين[1] .

* * *

وفى داكيا وصلت المسيحية إلى القوط الغربيين وكذلك إلى بعض الشرقيين فى أوكرانيا[2] على يد المبشر القوطى أولفيلاس Ulfilas (٣١١ — ٣٨٠ م)[3] . يرجع هذا المبشر إلى أسرة يونانية الأصل كانت تقيم فى إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، حيث وقع جده القبادوقى أسيراً فى يد القوط حين غزوا آسيا الصغرى ونهبوها عام ٢٦٧م[4] . ولد أوليفلاس فى المنطقة التى كان يقيم بها القوط حوالى عام ٣١٠ أو ٣١١ م ، وأسماه أبواه إسماً قوطياً ونشأه على النظام القوطى ، وعلى أثر هزيمة القوط أمام الإمبراطور قنسطنطين الأكبر ، عقدت محالفة بينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية عام ٣٢٢ م ، وقدم أوليفلاس ضمن السفارة القوطية إلى القسطنطينية لمفاوضة الإمبراطور قنسطنطين فى شروط الصلح ، وكانت مهمته فى هذه السفارة القيام بالترجمة ، إذ كان يجيد الإغريقية بجانب القوطية ، وربما كان سبب مجيئه إلى بيزنطة أمراً آخر غير هذه السفارة ، فقد قيل

= وإلى شبه جزيرة القرم أمام السارمات ، توالت غزوات السارمات حتى القرن الأول الميلادى ، وعند ما جاء القوط ، لجأ السارمات إلى بلاد الإمبراطورية ، الرومانية (Bradley, pp.30 39, 44—44 ; Lot, pp. 50—52 (Hodgkin, I, p. 76 ; C. Med. H. IV, pp. 183—4.

(١) Hodgkin, I, pp. 100—102 ; Bradley, pp. 39, 43—6.

(٢) Lecl. p. 170.

(٣) كتب اسم أوليفلاس بأوضاع مختلفة لكنها متقاربة : Ulphilas ، Wulfila ، Vulfila ، Wœlfen ، ومعنى هذه التسمية ، كما تدل عليه اللفظة الأخيرة ، « الذئب الصغير » (Lav. et Ramb., L, p. 59)

(٤) انظر ما سبق ص ٧ .

إنه كان من ضمن الرهائن الذين بقوا فى بيزنطة لضمان تنفيذ المعاهدة . وأيا كان سبب وجوده بالقسطنطينية ، فإن أوليفلاس أقام بهذه المدينة فترة من الزمن حيث تعلم وتثقف بالثقافة الإغريقية كادرس اللاتينية[1] .

ولكن أوليفلاس قام بدور يشبه إلى حد ما ما قام به النبي موسى عليه السلام ، فرغم أن موسى تعلم حكمة المصريين وتربى فى بلاط فرعون ، فإنه عمل على إنقاذ قومه وهدايتهم إذ لم يقبل أن يعيش رافها مهديا وقومه فى ضلال وبؤس ، ولسنا نعلم بالضبط ، هل كان أوليفلاس يعتنق المسيحية قبل وصوله إلى القسطنطينية أم لا ، والمؤكد أن المسيحية كانت قد وصلت إلى نفر قليل من القوط قبل عهد أوليفلاس ، وأن أوليفلاس تحمس للمسيحية ورغب أن يكون رسولها بين قومه . ثم صار قسيسا فى بيزنطة (Reader or Rector) عام ٣٤١ وحين بلغ سن الثلاثين قرر مجمع إنطاكية الدينى بارشاد ايزوب Eusebius (٢٦٠ — ٣٤٠ م[2]) ، رئيس الحزب المعارض للبطريق الإسكندرى أثناسيوس ، تعيين أوليفلاس أسقفا ومبشرا بين القوط المقيمين شمالى الدانوب[3] .

ظل أوليفلاس نحو سبع سنوات (٣٤١ — ٣٤٨ م) ينشر المسيحية بين القوط فى إقليم داكيا حيث كثر أتباعه رغم اضطهاد ملكهم أثاناريك للمسيحية ، ولما اشتد اضطهاده كتب أوليفلاس إلى الإمبراطور قنسطنطين (٣٣٧ — ٣٦١ م) يطلب منه أن يمنح القوط وطنا داخل الإمبراطورية للخلاص من هذا الاضطهاد ، فاستجاب له الإمبراطور ، وجاء أوليفلاس مع بضعة آلاف من القوط المسيحين وعبروا الدانوب واستقروا قرب نيقوبوليس فى موءيسيا عند سفح جبال البلقان . وكان قنسطنطين معجبا

---

(١) Hodgkin, I, pp. 80—81 ؛ Bradley, p. 57

(٢) Barker (E) Alex. to Constantine, pp. 472—80

(٣) Bradley, pp. 47—8 ؛ Lot, p. 38 ؛ Deanesly, pp. 26—27
Hodgkin, I, p. 81 ؛ Lav. et Ramb., I, p. 60

بأوليفلاس ويتحدث عنه دائما باسم (نبينا موسى الثانى Our Second Mose) ظل هذا الفريق المودع من القوط المسيحيين يقيمون فى تلك المنطقة عدة قرون فى هدوء، يزرعون أرضهم ولا يشتركون فى الحروب العنيفة التى تدور حولهم ، ونظراً لبعد صيت أوليفلاس فى مهمة التبشير صار يعرف باسم رسول القوط أو حوارى القوط — (Apostle of the Goths) كما أطلق عليه جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى فى القرن السادس الميلادى : القسيس والمطران[1] .

ويلاحظ أن جميع القوط المسيحيين لم يغادروا داكيا مع أوليفلاس ، بل بقى عدد كبير منهم ، وازداد عدد المسيحيين بالتدريج ، حتى أنه حوالى عام ٣٦٩ م قرر أثاناريك اتخاذ اجراءات اضطهادية ضدهم ، ولا سيما وأن منافسة فريتجرن[2] ، كان مسيحيا أو يميل إلى المسيحيين ، ولما غادر أثاناريك البلاد وذهب إلى مرتفعات ترانسلفانيا ، لم تكن هناك ثمة مقاومة فى سبيل انتشار المسيحية ، وفى سنوات قليلة تحول جميع القوط الغربيين والشرقيين على السواء إلى المسيحية[3] .

كانت المسيحية التى اعتنقها أوليفلاس ونشرها بين القوط ، على المذهب الأريوسى نسبة إلى أريوس (Aruis) الاسكندرى (ت ٣٣٦ م) الذى كان أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح[4] ، وقرر بأن المسيح وأن اتصف بالألوهية إلا أنه مخلوق بأمر الآله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه ، ورغم ما ظفرت به هذه العقيدة من تأييد وخطوات رسمية بسبب تعضيد

---

(١) Hadrill, P.23; Pirenne (H.) P. 25; Deanesly, pp.26—7; Hodgkin, I, p. 83.

(٢) عن أثاناريك وفريتجرن انظر ما يلى ص ١٩ .

(٣) Hodgkin, I, p. 81; Bradley, p. 58.

(٤) عين أريوس قسيسا فى الاسكندرية عام ٣٠٢ م ، ولما أظهر دعوته نفاه البطريرق أثناسيوس. Encycl. of Ethics & Religion. Vol. I. Art. Arianism.

الأسقف إيزوب — مستشار الإمبراطور قنسطنطين الأكبر — فإن مجمع نيقيا قد استنكرها فى المجمع الميسكونى الذى عقد عام ٣٢٣ م[١] .

أما نتائج اعتناق القوط للنسيحية الأريوسية من الوجهة السياسية ، فلم تظهر إلا فيما بعد ، وحسبنا أن نقول إن الأريوسية كانت كريهة للامبراطورية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية ، وأعمق أثراً فى تفكك الدول الجرمانية التى دانت بها ، من الاختـــلاف الجنسى أو الثقافى أو الحضارى بين الرومان والبرابرة .

على أن أهم ما قام به أوليفلاس خلال تبشيره بالمسيحية هو ترجمة الإنجيل إلى اللغة القوطية التى يجيدها ، وتدريب عدد من القوط ليخلفوه فى مهمته الدينية . قضى جزءاً كبيراً من حياته فى ترجمة الإنجيل ، وكان للقوط حروف أبجدية وكتابة بلغتهم ، لـكنه كتب هذه الترجمة القوطية بحروف اغريقية كبيرة كما كان المألوف فى كتابة الـكتب حينئذ ؛ وفى حالة الأصوات القوطية التى يصعب التعبير عنها بالحروف الاغريقية ، عبّر عنها أوليفلاس فى ترجمته بالحروف القوطية ، مع تغيير اشكالها حتى تبدو متفقة إلى حد كبير مع الحروف الإغريقية[٢] .

وأقدم مخطوط للإنجيل المترجم إلى القوطية ، كتب بعد أوليفلاس بنحو ١٥٠ سنة ؛ ويحتمل أن أشكال الحروف قد تغيرت قليلا قبل هذا الوقت ، ولـكن من السهل أن نرى الحروف الأبجدية القوطية هى نفس الحروف الأبجدية الإغريقية تقريبا مع إضافة ستة حروف جدد[٣] .

---

(١) راجع فيشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ج ١ ص ١٧ — ١٨ ؛ Lav. et Ramb., I, p. 60 ; Hodgkin, I, pp. 90—2 ; Thomson, p. 54 ; Davis, p. 22.

(٢) Hodgkin, I, pp. 84—86 ; Bradly, p. 61.

(٣) Hodgkin, I, pp. 84—5.

وتعتبر ترجمة أوليفلاس للإنجيل ترجمة جيدة بالنسبة للعصر الذى عملت فيه حين لم يكن من السهل فى القرن الرابع ، على قوطى أن يجيد الإغريقية لدرجة تمكنه من فهم نصوص الإنجيل . والترجمة الدقيقة من لغة إلى أخرى تقتضى عقلية رشيدة دربت على التفكير الدقيق ، غير أنه توجد فقرات قليلة لم يستطع أوليفلاس أن يوضح فيها المعنى المقصود من أصل النص ، فكثير من الكلمات التى وردت بالإنجيل ليس لها مقابل فى اللغة القوطية نظراً لأنها تشير إلى أشياء أو حوادث تتعلق بالحياة الحضرية ، أو تشير إلى أفكار وآراء تمت إلى طرق التفكير المسيحية ، وهذه جد غريبة على عقول الوثنيين . ولكى يتغلب أوليفلاس على هذه الصعوبة ، كان يترجم مثلاً كلمة كتابة (Writing) فى الإنجيل الأصلى إلى كلمة تدل على معنى الرسم أو التصوير أو الإشارة (Painting or marking) فى اللغة القوطية ، وكلمة القراءة (Reading) إلى ما يدل على معنى الغناء (Singing[1]) .

وليس من المعروف على وجه الدقة مقدار ما ترجمه أوليفلاس من الإنجيل . ذكر بعض المؤرخين القدماء أن أوليفلاس ترجم الإنجيل كله ما عدا سفر الملوك (Book of Kings) الذى تركه عمداً لأنه يعتقد أن قصص حروب بنى اسرائيل من الخطورة قراءتها عند قوم تغلب عليهم النزعة الحربية[2] ، ولذا خشى من تأثير هذه الحروب على عقول القوط . ويناقض هذا أن سفرى يوشع (Joshua) والقضاء (Judges) اللذين ترجمهما ، ربما كان لهما من الأثر فى إشعال الروح الحربية والرغبة فى الحرب أكثر مما يؤدى إليه سفر الملوك . ويحتمل أن هذا التفسير الذى ذهب إليه المؤرخ القديم غير صحيح ، والراجح أن أوليفلاس مات قبل ان يتم ترجمة الإنجيل[3] .

---

(١) Bradley, p. 62.

(٢) Lav. et Ramb., I, p. 60.

(٣) اكتشفت أهم نسخة من ترجمة أوليفلاس فى القرن السادس عشر الميلادى فى دير =

أما نهاية أوليفلاس ، فكانت بالقسطنطينية ، حين زارها عام ٣٨١ م بدعوة من الإمبراطور تيودسيوس الكبير ، وعند وصوله إلى العاصمة الإمبراطورية ، مرض ومات ، وكان تلميذه الذى خلفه فى مهمته هو أكسنتيوس (Auxentius[١]) .

هكذا كان انتشار المسيحية الأريوسية بين القوط . أما كيف اتخذ الغربيون لهم طريقا مستقلا عن أشقائهم الشرقيين ، فلم يحدث هذا إلا بعد انحلال امبراطورية القوط الشرقيين ، ومع ذلك فقد ظل التعاون والارتباط بينهما بشكل ما ، حتى بعد تأسيس دولة القوط .

تحطمت إمبراطورية القوط الشرقيين على يد الهون من المغول إذ أتاحت جموعهم الكاسحة حوالى عام ٣٧٠ م بقيادة ملكهم الخان بالامبر (Balamber) وحطموا فى طريقهم إمبراطورية الآلان الايرانية التى كانت تمتد من جبال الأورال حتى جبال القوقاز ، وفى قلب آسيا حتى بحر آرال[٢] ولما عجز أرمانريك — اسكندر القوط الشرقيين — عن رد هذه الموجة المدمرة ، انتحر عام ٣٧٥ م بعد أن عمّر قرنا من الزمان .

ومن ثم انهارت امبراطوريته الواسعة ، فتفرق القوط الشرقيون إلى وحدات أربع :

= بمدينة فردن(Werden)،وتناولت هذه النسخة أيدى كثيرة ، حتى اشتراها الكونت حولا جاردى (De La Gardie) السويدى ودفع ثمنا غاليا عبارة عن كمية كبيرة من الفضة ، ولذا عرفت هذه النسخة باسم الكتاب الفضى أو المجموعة الفضية (Codex Argenteus) وهذه النسخة محفوظة الآن فى مكتبة جامعة ابسالا (Upsala) ، وتعد من أعز ما تحويه مكتبات أوروبا ، فهى مكتوبة بحروف من ذهب وفضة على رق من الجلد القرمزى . أكتشفت نسخة أخرى من هذه المخطوطة فى القرن السابع عشر بألمانيا ، أما بقية النسخ الست ، فقد اكتشفت فى إيطاليا منذ نحو قرن . (Bradly, p. 64) .

(١) Hodgkin, I, pp. 86—89 ؛ Bradley, pp. 63—4

(٢) تقيم بقايا عنصر الآلان اليوم — ويسميهم العرب الآن — وسط جبال القوقاز ويعرفون باسم الأوستيين (Ossètes) وهم عنصر أشقر ذو قامة متوسطة Lot, P.52 . Lav .et Ram. I, pm.59

١ — فريق لم يقبل الخضوع لسيادة الهون وهاجر بقيادة سافراكس والاثيوس (Safrax و Alatheus) ومعهما صبي يسمى (Wideric) وهو من الأسرة الآمالية الشهيرة . انتخبوه ملكا عليهم وتوجهوا غربا إلى الدانوب ، حيث انضموا إلى القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم (١) .

٢ — فريق توجه إلى شبه جزيرة القوم وهو الذى أطلق عليه كتاب بيزنطة القوط الأغريق : Gotho - Grecs (٢) .

٣ — فريق ثالث ظل ببلاده وانتخب له ملكا هو (Winithari أو Winthabaryis) حفيد أخي أرمانريك ، وهذا الفريق ثائر حاول طرد الهون وقاموا بتخريب بعض البلاد الخاضعة للهون وارتكبوا كثيرا من الفظائع (٣) .

٤ — فريق رابع لم يتبرم بسيادة الهون وملك هذا الفريق هنيمند (Hunimund) ابن أرمانريك ، ظل هذا الفريق يعترف بسلطة الهون بل حارب فى جانبهم ضد الفريق الثائر (٤) .

أما مصير القوط الغربيين الذين كانوا خلال النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى جزءا من الأمبراطورية القوطية الشرقية ، ومن رعايا ارمانريك فإنه

---

(١) Pirenne (H.), p. 26 : Lot, pp. 58—59 Eyre, p. 58

(٢) Lot, p. 58

(٣) كان حفيد الملك ونيثارى هو الذى تولى الملك على الفريق الرابع المسالم للهون ، حوالى عام ٤٤٠م ، وذلك بإذن من ملك الهون . واسم هذا الحفيد ولامر Walamer غير انه لم يلبث أن خرج على الهون حين ضعف أمرهم بعد موت ملكهم أتيلا عام ٤٥٣ م واستطاع أن يهزم الهون . وكان له اخوان أشركهما فى الحكم هما : ودومر وتيودمر Widumer و Theudemer وفى يوم النصر على الهون أنجب الأخ الأخير ثيودمر ولدا هو ثيودريك الذى اشتهر أمره فيما بعد وصار ملكا على إيطاليا وأعظم ملوك القوط قاطبة Bradley, pp. 48—9

(٤) Bradley. p. 47

منذ وضح خطر الهون وبدأ هجومهم ثارت الشعوب الخاضعة للقوط الشرقيين، منح إرمانريك رعاياه من القوط الغربيين مزيدا من الاستقلال وحرية العمل، فسمح لهم بتدبير جميع شؤونهم بأنفسهم حتى في المسائل الخارجية كابرام المعاهدات او شن الحروب، من غير ضرورة لأخذ موافقة الملك، وكانوا حينئذ ينقسمون إلى ثلاث قبائل على رأس كل قبيلة رئيس أو قاض (Judex) وهؤلاء القضاة هم الأخوة الثلاثة [1]. أثانريك وفريتجرن والوى (Alawiw Fritigern, Athanaric) وكان أثاناريك أقوى الثلاثة، ويبدو أن الاثنين الآخرين قد سلما له بنوع من الرئاسة العليا[2]. بذل أثانريك جهدا كبيرا محاولا طرد الهون ولكنه فشل[3].

ورغم ما عرف عن أثانريك من الشجاعة وقوة المراس فى الحرب، إلا أن شهرته ارتبطت بالخداع والمكر أكثر من ارتباطها بالشجاعة. ورغب مخلصا فى المحافظة على سياسة أبيه فى محالفة الرومان[4]، غير أنه ارتكب غلطة كلفته وقومه ثمنا غاليا، ذلك أن بروكبيوس[5] أحـــد أقرباء الأمبراطور فالنس (٣٦٤-٣٧٨) قد خرج عليه وتمكن من طرده من العاصمة والاستيلاء على عرش الامبراطورية فترة من الزمن، طلب هذا المغتصب مساعدة حربية من القوط الغربيين، بمقتضى المعاهدة المعقودة معهم، فأسرع أثانريك وأرسل إلى تراقيا قوة قوامها نحو ٣٠ ألف مقاتل، اعترافا منه بالأمر الواقع، والملاحظ أنه لم يقد الجيش بنفسه، ايفاء للقسم

---

(١) Lav. et Ramb. I, p. 61

(٢) Bradley, p. 50.

(٣) Deanésly, p. 26

(٤) الاشارة هنا إلى رولستير أبى أثانريك الذى عرف باخلاصه وولائه للرومان حتى أنهم أقاموا له تمثالا بالقسطنطينية.

(٥) بروكبيوس سليل أسرة نبيلة من قليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى، اشتهر فى الخدمات المدنية والعسكرية على السواء، وقام أخيرا بثورة انتهت بانتزاع العرش لفترة معينة (Hodgkin, I, Pp. 139—144).

الذى قيل أن أبله لستصدره منه قبيل وفاته ، ويقضى هذا القسم بألا يقود أبنه جيشا ضد الرومان . وفى عودة هذه القوة القوطية خربت فى طريقها ولايات تراقيا ونهبتها بموافقه الامبراطور القائم ، وحينئذ وقع مالم يكن فى الحسبان ، إذا جاءت الأنباء بمقتل بروكبيوس عام ٣٦٩م وعودة فالنس إلى عرشه[١] . وبدلا من أن يكنف القوط عن نهبهم ويطلبوا الصفح من فالنس ، تمادوا فى تخريبهم ، فلم يكن هناك بد من العمل على إيقاف هذا النهب ، وتمكنت الجيوش الامبراطورية من قطع الطريق على القوط ومنع وصول التموين إليهم كما حالت دون عودتهم إلى الدانوب ، وضيقت عليهم الحصار حتى أجبرتهم على التسليم من غير قيد أو شرط لم يقتلهم الرومان وإنما استرقوهم وباعوهم كما سجنوا قوادهم فى أماكن نائية . وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى أثانريك بعث بسفرائه إلى القسطنطينية لا لطلب الصفح والمغفرة بتواضع وصراحة ، بل ادعى سلامة النية وأن كل ما فعله القوط الغربيون إنما هو ايفاء بشروط المعاهدة المعقودة بينهم وبين الرومان ، واستدلوا على سلامة النية والسذاجة بمساعدتهم للأمبراطور الذى اتضح أنه كان دعيا ومن ثم طالبوا بإطلاق سراح أسراهم . اقتنع فالنس وكاد يصفح ، غير أنه حين استشار أخاه فالنتنيان (٣٦٤ — ٣٧٥) امبراطور القسم الغربى من الامبراطورية ، نصحه بسرعة الهجوم على أثانريك فى بلاده داكيا[٢] .

لبى فالنس نصح أخيه وحارب القوط الغربيين لمدة ثلاث سنوات وانتصر فى أكثر المواقع ، ولكنه لم يكن انتصارا حاسما وانتهت الحرب بالصلح ، ووافق أثانريك المخادع على أن يقطع الجعل الذى كان يتقاضاه زعماء القوط من الرومان بشرط اعتراف الرومان به ملكا على جميع القوط ، ورأى فالنس أن تعدل الشروط عن طريق المقابلة الشخصية مع سيد القوط الذى

---

(١) Ibid, p. 156.

(٢) Bradley, Pp. 52—3.

ندا محترما فى نظره ، فاعتذر أثاناريك عن استحالة انتقاله عبر الدانوب بمقتضى القسم الذى أخذه أبوه عليه بألا يعبر الدانوب ويطأ أرض الرومان[1] وفى نفس الوقت هدد باعتبار المعاهدة منقوضة إذا أدخل فالنس أرض القوط فى داكيا ، واقترح أن تتم المقابلة فى زورق وسط نهر الدانوب ؛ وهنا نجد بعض الطرافة فى أن أثاناريك تحاشى التعرض أو الإشارة إلى كل ما يدل على اعترافه بهزيمته أمام الرومان ، ولا بد أن فالنس قد شعر بأن البربرى يسخر منه ولكنه لم يجرؤ على رفض الترتيب المقترح ، ووقعت المعاهدة وأخذ الطرفان رهائن لضمان تنفيذها ، ومن ثم عاد فالنس ودخل عاصمته دخول الظافر فى احتفال مهيب ، حيث نعته الخطباء بأنه « قاهر القوط الثانى[2] » .

شغل أثاناريك بعد ذلك فى اضطهاد المسيحيين الذين كثروا بين رعاياه[3] كما انشغل فى حرب ضد منافسه فريتجرن[4] ، ولم يكد يأتى عام ٣٧٦ م حتى أنهى قضاة القوط أو زعماؤهم ما بينهم من منافسة ونزاع ، ولما كان أثاناريك هو المتولى للقيادة العامة لجيش القوط جميعهم ، فقد فوجىء وهو على غربى نهر الدنيستر بعبور الهون على ظهور خيولهم ومهاجمتهم له ، فلم يستطع الثبات أمامهم وفر ، وحينئذ أرسل زعيما القوط الآخران : فريتجرن وألوى ، فى طلب الإذن من الإمبراطور فالنس ، لعبور نهر الدانوب ، إذ لم يعد باستطاعة القوط المقام فى داكيا التى هددتها جموع الهون العنيفة ، وعبثا حاول أثاناريك فى حمل قومه المدبرين على مقاومة الهون ، ولذا رحل مع فرقة من جيشه نحو مرتفعات ترانسلفانيا فى الشمالى الغربى ، واختفى عن مسرح الحوادث نحو أربع سنوات

---

(١) انظر ما يلى ص ٣٣.

(٢) Bradley, P. 54.

(٣) Hodgkin, I, pp,, 177.

(٤) Ibid, p. 183.

أو خمس[1] . وفى خلال هذه الفترة أضحى منافسه فريتجرن الملك الفعلى للقوط[2] .

انتظر القوط الغربيون الاذن من فالنس لعبور الدانوب ، فرارا من خطر الهون المحدق ، والذى يقترب منهم يوما بعد يوم ، وكان فالنس فى أنطاكيا مشغولا بحرب الفرس[3] ، حين استقبل قضاة القوط من قبل فريتجرن ، وشرح له هؤلاء القضاة مدى خطورة الهون ووعدوه بأن يكونوا من رعاياه المخلصين إذا منحهم وطنا فى تراقيا عبر الدانوب ، وكان لا بد من الإجابة بنعم أولا فى ذلك الظرف الدقيق ، ليس هناك فرصة للتردد أو المشاورة ، تردد بعض مستشارى فالنس فى السماح لهم لما قد يكون هناك من آثار سيئة قد لا تكون واضحة فى ذلك الوقت ، على حين أن البعض الآخر رأى أن هناك فائدة كبرى فى الإذن لهؤلاء ، وذلك لحاجة الإمبراطورية إلى الرجال ، وهذه فرصة سانحة لإضافة نحو مليون من الرعايا فى لمحة عين ، انتهى الأمر بالموافقة ، وصدرت الأوامر إلى حكام الرومان عند الدانوب بعمل ما يلزم لنقل القوط عبر النهر ، وسرعان ما جمعت القوارب وبدأ النهر يموج بأعدادهم الزاخرة ، المتحرقة للعبور أمام خطر الهون ، حتى أن بعضا منهم قد غرق فى النهر لشدة الازدحام ولعل فى هذا ما يشبه تزاحم أهل بغداد على عبور الدجلة أمام خطر المغول فى القرن الثالث عشر فيما بعد ، استمروا يعبرون النهر عدة أيام أمام حلقة الجماهير وحراس الحدود ، وعبر القوط بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم ، ولما كانت القوارب غير كافية أمام هذه الجموع الكثيفة ، فقد استخدمت الألواح الخشبية السميكة والقوارب المنفوخة وكذلك البراميل ، وقد حاول الرومان تعدادهم أثناء العبور فلم يتمكنوا ، فهذا شعب بأكمله يهاجر ، كان

---

(١) انظر ما يلى ص ٣٣ .

(٢) Bradley, p. 55.

(٣) Pirenne (H.), p. 26 ; Lot, pp. 59 ؛

ذلك فى ربيع عام ٣٧٦م واستقروا بموافقة فالنس فى منطقة دورستورم Durostorum — وهى سيلستريا فى موءيسيا السفلى أو بلغاريا الحديثة كما أن فريتجرن عين قائدا فى الجيش الرومانى حتى يشعر زعيم القوط بأن له صفة رسمية فى الإمبراطورية[١] .

لم يكد القوط الغربيون يستقر بهم المقام كمعاهدين فى هذه المنطقة حتى بدأوا يتبرمون من سوء المعاملة التى لقوها على أيدى الرومان ، ولا سيما وقد جاءتهم الأنباء بأن أطفالهم سوف ينتزعون منهم كرهائن ، ويوضعون فى أماكن نائية بالإمبراطورية ، لأن الرومان رأوا اتخاذ مثل هذا التدبير لكى يحملوا القوط على الهدوء وعدم الاخلال بأمن الإمبراطورية . وحينئذ بدأ القوط يفكرون فى الانتقام حين نفذ هذا التدبير والواقع إن هذا التنفيذ لم يكن سوى إيفاء بالشروط التى فرضت على القوط نظير السماح لهم بعبور الدانواب[٢] . على أن فالنس سرعان ما اكتشف غلطته الكبرى فى السماح لهؤلاء بالإقامة فى قلب الإمبراطورية ، فرأى اتخاذ إجراء آخر ليأمن شرهم ، وهو أنه أمر بتجريد الرعايا الجدد من سلاحهم ، إلا أن ثروة القوط التى جمعوها من منهوباتهم السابقة مكنتهم من رشوة الموظفين الرومان حتى تركوا لهم أسلحتهم ، كذلك أمر الإمبراطور بتوزيع القوط فى فرق مختلفة وفى جهات متباعدة .

وفى هذا الوقت وصل فريق القوط الشرقيين الذى لم يقبل الخضوع لسيادة الهون ، وصل بقيادة سافراكس والاثيوس ، وعند الدانواب التمسوا الإذن من فالنس للسماح لهم بعبور النهر ومنحهم ملجأ ، فرفض الإمبراطور حتى لا تتضاعف مشاكله ، غير أن القوط الشرقيين لم يستجيبوا

---

(١) Bury, I, p. 104 ; Lot, p. 59 ; Hodgkin, I, P. 245 ; Pirenne (H.), pp. 26 — 27

(٢) Hodgkin, I, p. 253.

لهذا الرفض ، وعبروا الدانوب من أماكن خالية من الحراسة ، وتابعوا أسيرهم لينضموا إلى أشقائهم الغربيين[1] .

ورغم التوصيات الصادرة من الإمبراطور فالنس بحسن معاملة القوط وعدم التغالى فى بيع المواد الغذائية اللازمة لهؤلاء المعاهدين ، حتى يتمكنوا من الزراعة والإنتاج ، فإن تصرفات الحكام الرومان كانت لسوء الحظ الوقود المباشر لإثارة القوط ودفعهم للخروج على شروط المعاهدين ، فضلا عن عدم رضائهم عن الشروط التى فرضت عليهم ، فمثلا تطرف حاكما تراقيا وهما : ليبكنيوس وما كسيموس (Lupicinius & Maximus) واستغلا حاجة القوط للمواد الغذائية إذ وجدا فى محنتهم فرصة للإثراء ، فاحتكرا شراء هذه المواد من المنتجين بأرخص الأسعار وباعاها للقوط بأثمان خيالية ، لدرجة أن كان القوطى يدفع ، كثمن لرغيف الخبز الواحد ، عبدا من عبيده أو عشرة أرطال من الفضة نظير الحصول على ماشية للذبح ، وغالبا ما أجبر القوط على أكل لحوم الكلاب[2] .

لم يحتمل القوط الصبر على هذا الوضع . فقرروا الخروج على الرومان والثورة على فالنس[3] . وربما كان ذلك بتشجيع من الهون الذين حرضوهم[4] ، ولم يكن القوط بحاجة كبيرة إلى من يثيرهم ، فسرعان ما عبروا جبال البلقان عام ٣٧٧ م ودخلوا تراقيا ومقدونيا فهرب قائد الحامية ليبيكنيوس — سالف الذكر — ولجأ إلى مدينة مارقيان قرب ثارنا ، وحينئذ قرر فالنس مغادرة آسيا الصغرى ، وعاد فى صيف عام ٣٧٨ إلى عاصمته حيث قوبل اسوأ استقبال بسبب تلك الغلطة الشائنة . ولذلك

---

(١) Pirenne (H.), p. 26 ; Lot, pp. 58—59 ; Eyre, p. 24. Bradley, pp. 65, 67 ; Deanesly, p. 26.

(٢) Hodgkin, I, pp. 254 - 56 ; Bradley, pp. 67 - 68.

(٣) Moss, pp. 44 - 5.

(٤) Deanesly p. 26.

عول على إصلاح ما أفسد ، وأن يقوم بنفسه على رأس جيش لمهاجمة القوط ، وزاد فى حماسته أن الناس أخذوا يعيرونه بفعلته ويقارنون موقفه المتخاذل من موقف زميله فى الغرب وهو جراتيان بن أخيه فالنتنيان الذى أدرك خطورة الحال وعمل على متابعة نشاط أبيه ومشاريعه الحربية فهزم الجرمان عند الراين ثم هبط إلى الدنواب لينقذ البلقان من خطر القوط ، ووصل فى تقدمه إلى سرميوم عاصمة الليريا فى صربيا[١] ، أما فالنس فقد أسرع ووصل إلى أدرنة وقاد الجيش الذى يعسكر حول أسوار هذه المدينة ، وبينما هو فى مجلسه الحربى مع قواده يناقش الخطط جاءه رتشومر (Richomer) أحد قواد جراتيان موفدا من قبل سيده ليطلب إلى فالنس التريث حتى يصل جراتيان بجيشه ، غير أن المتملقين من قصار النظر ، ألقوا فى روع فالنس ألا يتيح الفرصة لقسيمه الغربى فى أن يشاركه مجد الانتصار على القوط ، والرأى عندهم أن يبادر بالدخول فى المعركة والانتهاء منها قبل وصول جراتيان ، ولم يرق هذا الرأى فى نظر أعظم قواد الإمبراطورية سباستيان(Sebastien) قائد المشاة فى الجيش الرومانى ، كما فنده فيكتور (Victor) السارماتى[٢] قائد الفرسان . وحينئذ وصل قسيس مسيحى — يشك فى أنه أوليفلاس — فى وفد من القوط من قبل فريتجرن ، جاء وعرض على فالنس المفاوضة فى الصلح بشرط اعتراف الامبراطور بامتلاك القوط لتراقيا ، وهذه هى الرسالة الرسمية ، التى لا بد وأن تكون قد صدرت بموافقة القوط ، وهناك رسالة خاصة سرّية ، أبلغها القس إلى الإمبراطور ومؤداها أن فريتجرن يخشى ألا يحافظ القوط على ولائهم للرومان إذا ما أجيبوا إلى طلبهم فى يسر ، ولذا فهو ينصح الإمبراطور بأن يتظاهر بالقوة حتى لا تبدو سرعة موافقته دليل ضعف أو خور ولكن الرسل عادوا من غير إجابة .

---

(١) Lot, p. 61 ؛ Perroy, p. 11 ؛ Deanesly p. 26

(٢) Lot, p. 61 انظر ما سبق ص ١١ حاشية رقم ٢ .

وفى صباح ٩ أغسطس من عام ٣٧٨ م أودع فالنس أمواله داخل أدرنة وخرج لايلوى على شىء معتزما مهاجمة القوط الذين يعسكرون على مقربة منه، وكان جيشه مفككا لا تزيد عدته عن عشرة آلاف مقاتل، وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال تحت أشعة الشمس المحرقة لاحت له مطالع عربات القوط التى يتحصنون وراءها، فرتب صفوف جيشه واسعرضه استعدادا للمعركة، وفوجىء القوط بهذه المباغتة، فصاحوا صيحة تصم الآذان وهم ينشدون نشيدهم الحربى، كعادتهم لبث الشجاعة قبيل المعارك، أما فريق القوط الشرقيين فلم يكن حتى ذلك الوقت قد وصل إلى أشقائه بعد، إذ كان على بعد عدة أميال من ميدان المعركة، بحثا عن النهب والسلب، فأرسل إليهم فريتجرن يستدعيهم على عجل، ولكى يعمل فريتجرن على تأجيل بدء المعركة حتى يصل أشقاؤه، اصطنع الحيلة والدهاء، وأرسل إلى الرومان يطلب إليهم الدخول فى مفاوضات لتسليم القوط، ونجحت الخديعة ووافق الرومان على أن يبعث القوط من قبلهم وفدا من كبار النبلاء القوط، فأجاب فريتجرن بأنه يرغب فى الحضور بنفسه بشرط أن يرسل الرومان بعض كبار الضباط إلى المعسكر القوطى كرهينه، حينئذ فرح الرومان، وبدأوا يتناقشون فيمن يقع عليه الاختيار، ولما وقع الاختيار على التريبون إكويتيوس (Equitius) رئيس حرس القصر وقريب الامبراطور، أبى وأصر على عدم القيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر، وحجته فى ذلك أنه وقع مرة أسيراً فى يد البرابرة واستطاع الهروب منهم لكنه لا يدرى ما يفعل به لو عاد إليهم ثانيا؛ وحسم النزاع حين تقدم رتشومر رسول جراتيان، وتطوع لهذه المهمة. وخلال هذه المناقشات الطويلة، كان الجنود الرومان قد أخذ التعب منهم كل مأخذ، لوقوفهم تحت أشعة الشمس لمدة طويلة، حتى أصابهم الجوع والظمأ، بينما القوط فى معسكراتهم.

وبينما كان رتشومر فى طريقه إلى المعسكر القوطى استدعى ثانيا إذ لم تعد هناك حاجة لذهابه، لأن المعركة قد بدأت فعلا إذ حدث أن فرقة الرماة

الأيبيريه المنضمة للجيش الرومانى[1] . قد سئمت طول الانتظار فقامت بهجوم على العدو من غير انتظار أمر الإمبراطور فأبيدت عن آخرها . وفى ذلك الوقت وصلت فرق الفرسان من القوط الشرقيين . فأمر فريتجرن بدق الطبول إيذانا بالمعركة ، وحمل القوط حملة عنيفة ، شبهها بعض المعاصرين بالصاعقة ، فشتتوا شمل فرسان الرومان ، وأحاطوا بالرجالة وضيقوا عليهم بحيث لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم لشدة التصاقهم ببعض ، فذبحوا بالآلاف ، وقتل الإمبراطور ، وظلت المذابح قائمة فى الجيش الرومانى ولم يوقفها إلا ظلام الليل ، وبقى القوط فى ميدان المعركة لعدة أيام بعد انتهاء المعركة وهم ينهبون الموتى دون أن يجرؤ أحد من الرومان على التقدم للبحث عن جثة الامبراطور[2] .

تلك هى كارثة أدرنة وتعد فى تاريخ الكوارث المدمرة التى حلت بالأمبراطورية الرومانية ، الثانية بعد دبر وجه ، وإن كانت فظاعة أدرنة تفوقها ، فقد خسر الرومان ثلثى الجيش وصفوة القادة من مختلف الرتب أمثال سباستيان وتراجان وأكويتيوس وفالريان ، و ٣٥ آخرين من رتبة الكولونيل أو التريبون .

أردف القوط بعد هذه الوقعة بالتقدم نحو القسطنطينية وهاجموها بعنف وكادوا يقتحمونها لولا ظهور فرقة من الفرسان العرب ، كانت تعمل فى الجيش الرومانى . قامت هذه الفرقة العربية بهجوم خاطف مضاد زلزل مواقع أقدامهم

---

(١) الأيبيريون (Iberians) سكان مقاطعة أيبريا الاسيوية بين البحر الأسود وبحر قزوين ، ويحتمل أن هذه المنطقة كانت تابعة للفرس ثم أخضعها الرومان (أومان : الإمبراطورية البيزنطية ترجمة الدكتور طه بدو حاشية رقم ١ ص ١٩٠ ؛ Gibbon, III, p. 404) .

(٢) Lav. et Ramb., I, p. 61 ؛ Lot, pp. 60 - 61 ؛ Courcelle, p. 11 ؛ Encycl. Britt. ؛ Pirenne (H.) p. 27 ؛ Bradley, pp. 71 - 74 ؛ Hodkin, pp. 271 ؛

وألقى الرعب والفزع فى قلوبهم . ومما أفزع القوط ذلك المنظر الذى هالهم ، إذ رأوا أحد فرسان العرب وهو ينقض على فريسته ممن قتل من القوط ، وأخذ يشرب دمه ، فأيقن القوط أن القتال مع مثل هؤلاء ضرب من التهور والحمق . ومن ثم خارت قواهم فتراجعوا ورفعوا الحصار عن العاصمة وعادوا محملين بما نهبوا ، وأجاب الرومان على هذه الكارثة خلال السنتين اللتين تلتا الموقعة ، باقامة مذبحة شنعاء فى أبناء القوط من الشبان كان الرومان قد أخذوهم رهينة ، عند السماح للقوط بعبور الدانوب ، وكان هؤلاء الشبان يقيمون فى ولايات آسيا الصغرى ، أبدى الشبان القوط نوعا من التبرم والتمرد على سادتهم من الرومان على أثر وقعة أدرنة ، فأصدر يوليوس (Julius) وزير الحرب الرومانى ، وهو الذى تولى أمر الامبراطورية غداة مقتل فالنس وقبيل انتخاب خلفه ، أصدر أمره إلى حكام آسيا الصغرى بتفويض من السناتوا ، بأن يستدرج هؤلاء الرهائن إلى المدن حيث يحاط بهم فى الأسواق العامة ويذبحون عن آخرهم : ونفذت هذه الجريمة البشعة التى أساءت إلى سمعة الرومان مهما كان الدافع[1] عليها ، ومهما يكن من أمر الإنتقام الرومانى ، فإن كارثة أدرنه بلغت من الفظاعة ما حمل المؤرخ اللاتينى المتأخر (Ammianus Marcellinus) على أن يمسك عن ذكر تفاصيلها ، فجاءت أنباؤه عنها غامضة مبهمه ، وهى وقفة حسرة وألم تشبه تلك التى وقفها من بعده المؤرخ الإسلامى ابن الأثير حين أزال المغول دولة خوارزم شاه عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) .

أما المؤرخ الإنجليزى جيبون (Gibbon) فقد كان أحد الأوائل الذين لمحوا فى وقعة أدرنة عام ٣٧٨ م ، نقطة تحول هامة فى التاريخ ، على حين كتب المؤرخ (الفرنسى) فيكتور ديرى (V. Dury) فى تاريخه عن الرومان عند حديثه عن هذه الواقعة : « لم يبق شىء من روما ، لقد اختفت عقائدها ونظمها المدنية والحربية ، وكذا فنونها وآدابها ، وبدأ الغزو

(1) Bradley, pp. 76 - 9.

والقهر ، ووصل فريتجرن حتى أسوار القسطنطينية ، وبعد سنوات قلائل استولى الاريك على روما[1] »

كان لهذه المأساة أثرها البالغ فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفى مدنيتها بوجه خاص وفى تاريخ البرابرة ومستقبلهم بوجه عام ، ولو كان القوط يجيدون فن استغلال الفتوح والنصر ، لاستطاعوا بهذه الواقعة أن يطووا صفحة الإمبراطورية الشرقية قبل أختها الغربية . غير أنهم فشلوا فى الإفادة من هذا النصر الساحق .

هذا وتعتبر كارثة أدرنة نكبة حربية ، إذ لم يستطع الرومان بعدها أن يحشدوا جيشا قويا يمكن الاعتماد عليه فى قهر البرابرة ، وتعتبر من جانب آخر بداية جدية لفترة الصراع والحروب التى تلاحقت بعد ذلك وملأت تاريخ العصور الوسطى ، وتميزت بالعنف ، كما أضحت الفرسان الثقيلة العامل الحاسم فى تلك الحروب ، وتلك حقيقة واقعة ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادى[2] .

* * *

بمقتل فالنس فى أدرنة ، أضحى جراتيان حاكم الغرب ، الإمبراطور الوحيد على الرومان ، غير أن الأمور قد جرت منذ نحو قرن على أن الإمبراطورية لا يمكن إدارتها بواسطة إمبراطور واحد ، فاضطر لاختيار قسيم له فى السلطة وأجبر على أن يكون هذا القسيم هو القائد الرومانى والأسبانى المولد تيودسيوس ، ولعل تردد جراتيان فى اختيار تيودسيوس قسيما له ، يرجع إلى أن أبا تيودسيوس وسميه ، كان قد اشتهر أمره ونبه ذكره كحاكم فى بريطانيا وأفريقية ، فرأى جراتيان فيه منافسا خطيرا فى مطلع حكمه فتخلص منه بأن أجبره على الانتحار ، وبمجرد وقوع كارثة

---

(1) Lot, p. 61.
(2) Moss, p. 45.

أدرنة قام حزب ينادى بتولية تيودسيوس الابن ، فتم اختياره وأعلن أغسطسا فى سيرميوم فى ١٩ يناير ٣٧٩ م[١] .

ومن حسن طالع الإمبراطورية الرومانية أن كان تيودسيوس هو خليفة فالنس ، إذ يختلف فى مشاعره عن يوليوس وزير الحرب الذى دبر الأمور قبل انتخاب تيودسيوس .

رأى تيودسيوس أن يعيد شيئا من سمعة الإمبراطورية الحربية قبل أن يدخل فى مفاوضة مع القوط ، حتى يلقى عليهم درسا يجعلهم يعترفون بأن الإمبراطورية لم تمت ، وأنه لم يزل يخشى بأسها ، فأسرع بإعادة تنظيم جيشه وإعادة الروح المعنوية له ، وذلك فى الوقت الذى كانت همة القوط فيه قد ثبطت ، وتفككت وحدتهم بسبب النزاع الذى دب بين صفوفهم ، ومغادرة بعض القوط وانضمام هذا البعض إلى الرومان ، فكلما شعر أحد من كبار القوط ، بإهانة تلحقه من قبل فريتجرن ، فارقة وانضم إلى الرومان ، وتيودسيوس خلال ذلك يرحب بهم ويغدق عليهم الجوائز والمناصب . من هؤلاء القائد القوطى المظفر موداهارى (Modahari) الذى عين قائدا فى الجيش الرومانى وإليه يرجع الفضل فى إحراز أعظم انتصار[٢] ظفرت به الإمبراطورية فى تاريخ وقائعها الحربية .

مات فريتجرن خلال عام ٣٧٩ م أو ٣٨٠ م ، وبعد وفاته ظهر أثناريك مرة أخرى وعبر الدانوب ، ولسنا ندرى كيف استجاز لنفسه أن يحنث فى يمينه الذى أقسم بعدم عبور الدانوب ، لكن يرجع

---

(١) Lot, p. 62.

(٢) الاشارة هنا إلى الانتصارات التى ظفر بها الامبراطور تيودوسيوس عام ٣٧٩ على شراذم القوط الغربيين الذين تفرقوا يخربون وينهبون فى مدن تراقيا عقب واقعة أدرنة . وموداهارى هذا سليل ملوك القوط ، والغريب أنه على المذهب الأرثوذكسى على خلاف بقية القوط ، خدم الامبراطورية وأخلص لها (Bradley, pp. 79 - 80, Hodgkin, 1, pp. 301 - 303.

أن اعترف أغلب القوط بزعامته هو الذى دفعه إلى ذلك ، ولا سيما بعد وفاة فريتجرن .

وأول عمل قام به هو الاتفاق مع الرومان ، فدخل فى مفاوضة مع الإمبراطور تيودسيوس الذى دعاه إلى القسطنطينية ، فتوجه إلى العاصمة حيث استقبل بحفاوة ، وهناك أخذت مظاهر العاصمة ومباهجها بلبه ، حتى قال أنه كثيرا ما سمع بعظمة القسطنطينية لكنه لم يكن باستطاعته أن يتصور أو يصدق إلا بعد أن شهدها بنفسه ، وأن الإمبراطور آله يمشى على الأرض ، ومن يجرؤ على الخروج عليه فهو مذنب جزاؤه الإعدام . ولم تطل إقامة أثاناريك بالعاصمة فقد مات فى يناير عام ٣٨١ م[١] .

وانتهت المفاوضة بعقد معاهدة فى أكتوبر عام ٣٨٢ م بمقتضاها أقرت الإمبراطورية القوط على الإقامة فى منطقتى مؤيسيا وتراقيا بوصفهم معاهدين (**Foederati**) بالإضافة إلى منطقة بانونيا[٢] التى تنازلت عنها الإمبراطورية لهم قبل ذلك بعامين[٣] .

وبعد وفاة أثاناريك بخمس سنوات عادت فرقة القوط الشرقيين التى كانت بقيادة سافراكس وألاثيوس ، ولكنها الآن بقيادة زعيم جديد هو أوداثيوس (**Audathaeus**) .

عادت هذه الفرقة إلى منطقة داكيا بعد أن قامت بأعمال النهب شمالى ألمانيا وغربها ، وحاولت عبور الدانوب للدخول فى تراقيا ، غير أن الرومان هجموا عليهم أثناء عبورهم وشتتوهم قتلا وتغريقا ، ومن نجح فى الإفلات والعبور إلى الشاطىء الآخر سلم للرومان ، وبذلك صارت

---

(١) **Bradley, P. 80 : Hodgkin, I, pp. 308 - 309 ' Lot, P. 61.**

(٢) تقع هذه المنطقة شرق فينا وشمالى بلغراد الحالية .

(٣) **Lot, p. 62.**

سلطة الإمبراطور تيودسيوس مبسوطة على جميع العناصر القوطية المقيمة داخل الإمبراطورية[1] .

أدرك تيودسيوس أن سياسة اللين والموادعة أجدى على الإمبراطورية من سياسة العنف والقوة ، إذ وضح أمامه أن القوط الذين دخلوا الإمبراطورية بأعدادهم الكثيفة لم يتراجعوا قط . فلم ير بأسا من إعطاء القوط الشرقيين منطقة فريجيا ليقيموا فيها بآسيا الصغرى كما أقر أشقاءهم الغربيين من قبل على الإقامة فى البلاد التى استقروا فيها ؛ وسمح لهم بحكم أنفسهم وفق قوانينهم الخاصة وأن يكون لهم جيش قائم بذاته ومنفصل عن الجيش الرومانى له قيادته الوطنية تحت اسم « حلفاء » وفضلا عن ذلك فقد أغدق عليهم الرواتب الضخمة وعين بعض نبلائهم فى المناصب العليا[2] ومثل هذا الوضع الذى آل إليه أمر القوط الغربيين وبعض الشرقيين ، يختلف عن غيرهم من القبائل الجرمانية التى تغلغلت فى أراضى الإمبراطورية الرومانية مثل عنصرى الشامافيين ،والهاتوريين (Chamaves & Hauttuariens) وهذان العنصران من فروع الفرنجة . استقرت هذه القبائل وآثرت الاندماج فى المجتمع الرومانى حيث تفرغت لزراعة الأرض التى حصلت عليها ، كما خضعت للقوانين الرومانية واستعملت اللغة اللاتينية الدارجة[3] .

وظل القوط على عهدهم وولائهم للإمبراطورية خلال عهد تيودسيوس ، رغم وجود بعض التذمر بينهم ، ولكن المحقق أنه طالما كان ثيودسيوس على قيد الحياة فإن القوط ظلوا على الطاعة أو ما يقرب منها ، كما أنهم ساعدوه فى حروبه التى انتصر فيها على منافسيه فى الغرب ماكسيموس

---

(1) Hodgkin, I, pp. 320 - 323.

(2) Hodkin, I, pp. 311 - 313 ؛ Lot, P. 81.

(3) Lot P. 63.

وإيوجين . ومن أبرز قواده من القوط الغربيين جايناس (Gaïnas)
وألاريك ، وعرف عن ثيودسيوس إنه كان شديد الحرص على موادعه
القوط حتى أنه انتقم لمقتل بوثريك (Bothéric) الضابط القوطى بأن أقام
مذبحة فى أهل تسالونيكا مما حمل القديس أمبروز (Amproes) فى ميلان
على أن يحرم الإمبراطور من الكنيسة إزاء هذه الفعلة الشنعاء ولم يظفر
الإمبراطور بالعفو إلا بعد اعتذار .

وربما ظل القوط على ولائهم وموادعتهم للإمبراطورية لو كان خلفاء
ثيودسيوس بمثل سعة أفقه وشجاعته وكياسته ولو لم يكن وزراؤهم
ومستشاروهم قصيرى النظر تغلب عليه الأنانية والحماقة .

ابراهيم على طرخان

من أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى :

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)

التابعى الجليل

لئن كانت الإسكندرية تعتز بالصحابى الجليل أبى الدرداء ، وبالضريح الموجود بها والمنسوب إليه[1] ، فإنها تعتز أيضاً بتابعى من التابعين الأجلاء تجمع المصادر على أنه زارها وأقام بها وقتا ما وتوفى بها[2] .

هذا التابعى الجليل هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج .

وقد زار الاسكندرية عدد من الصحابة الأجلاء ، وعدد آخر من التابعين الكرام ، ولكنها — لأمر ما — لم تحتفظ إلا بذكرى واحد من هؤلاء وهو أبو الدرداء ، وذكرى واحد من أولئك هو عبد الرحمن ابن هرمز .

والمتفق عليه أن الصحابى هو كل مسلم رأى النبي — عليه السلام — ولو ساعة ، وإن لم يجالسه ويخالطه ، وإن كان معظم أهل الأصول يشترطون فى الصحابى مجالسة الرسول .

والمتفق عليه كذلك أن التابعى هو الذى رأى صحابيا ، وإن كان البعض يشترطون فى التابعى أن يكون جالس صحابيا .

---

(١) أثبتنا فى بحث آخر أن أبا الدرداء لم يمت ولم يدفن بالاسكندرية ، وإنما مات ودفن فى دمشق ، انظر : (جمال الدين الشيال : أبو الدرداء الصحابى الجليل ، مقال بالمجلة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٥٧ ، ص ٩٥ — ١٠١) .

(٢) تعتز الاسكندرية بضريح ينسب إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن الشكوك تحوم حول نسبة هذا الضريح إليه ، انظر الفقرات الأخيرة من هذا المقال .

وقد وفد على الاسكندرية وعاش فيها عدد من التابعين الكرام رواة الحديث ، منهم :

ـ ثمامة بن شفي الهمداني أبو على المصرى ، نزيل الاسكندرية ، روى عن عقبة بن عامر وفضالة بن عبيد ، وثقـه النسائى ، ومات قبل العشرين ومائة .

ـ ضميم بن مالك الكلاعى الحميرى ـ قاضى الاسكندرية ـ روى عن ابن عمر .

ـ ربيعة بن سيف المَعَافرى الاسكندرانى ، روى عن فضالة بن عبيد ، وروى عنه الليث بن سعد ، ووصفه الدارقطنى بأنه مصرى صالح ، وتوفى فى حدود عشرين ومائة .

ـ وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، أبو عقيل ، نزيل مصر ، روى عن جده ، وله صحبة عن ابن عمر وابن الزبير ، ومات بالاسكندرية سنة ١٣٥ هـ عن سن عالية .

ومنهم صاحبنا الذى نتحدث عنه فى هذا المقال : عبد الرحمن بن هرمز ، أبو داود المدنى .

وحياة ابن هرمز غامضة غموضاً عجيباً ، ولم تصلنا عنه إلا شذرات قليلة ، سنحاول ـ بعد جمعها ودراستها ـ أن نستوضحها وأن نستشف منها صورةً لهذا العالم الجليل ، وطرفا من سيرته .

* * *

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد ، وكنيته أبو داود ، المشهور بالأعرج ، القرشى ، المدنى .

كان يرتبط بأسرة بنى هاشم ـ أسرة الرسول عليه السلام ـ برابطة الولاء ، فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفى رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة .

لا نعرف شيئا عن سنة ولادته ، ولكننا نعرف من الطبقة الثانية أنه من التابعين ، وأنه ولد فى المدينة النبوية ، وعاش فيها فى وقت كانت المدينة فيه مجتمع الخلّص من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وكان العلم الذى يشغل الناس فى ذلك الوقت هو القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه ومشاكله ، والعربية وأصولها .

وقد تتلمذ عبد الرحمن بن هرمز على جم غفير من الصحابة الذين أدركهم فهو قد سمع الحديث ورواه عن : أبى هريرة ، وأبى سيد الخدرى ، وعبد الله ابن مالك بن بُحَينة ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، وابن عباس ، وعمير مولى ابن عباس ، ومحمد بن مسلمة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر ، وأسيد بن رافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وكثيرين غيرهم .

ويبدو من هذا الثبت الحافل أن ابن هرمز كان تلميذاً مجداً ، وأنه كان يتحرى الصواب فى دراسته للحديث ، ولهذا لم يقنع بالأخذ عن صحابى واحد ، ولم يلزم أستاذاً واحداً ، ومع هذا فإن المراجع تذكر أنه كان أكثر ملازمة لأبى هريرة ورواية عنه ، فقد قال السيوطى فى ترجمته له :

« هو صاحب أبى هريرة ، أحد الحفاظ والقراء ، أخذ القراءة عن أبى هريرة وابن عباس ، وأكثر من السنن عن أبى هريرة[1] » .

وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام :

« وكان ثقة ثبتا ، عالما بأبى هريرة[2] » .

وروى ابن سعد فى طبقاته قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبى رافع ، قال : رأيت من يقرأ على الأعرج

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثني عبد الرحمن وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثني عبد الرحمن بن هرمز[1] » .

وقال ابن قاضي شهبة في طبقاته :

« عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد الأعرج أبو داود المدني ، مولى محمد بن ربيعة ، المقرىء المحدث ، صاحب أبي هريرة[2] » .

فإذا عرفنا أن أبا هريرة — رضي الله عنه — كان من أكثر الصحابة ملازمة للرسول ورواية لأحاديثه (حتى ليقال إن الأحاديث التي تضاف إليه تقدر بخمسمائة وثلاثة آلاف حديث) أدركنا أيّ علم حصّل عبدالرحمن ابن هرمز بتلمذه على أبي هريرة وملازمته له ، حتى لقد وصفه ابن سعد بأنه كان ثقة كثير الحديث[3] ، وقال البخاري : « أصح أسانيد أبي هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة » ، ووصفه السيوطي بأنه كان وافر العلم ، مع الثقة والأمانة[4] » .

* * *

ولم يكن الحديث هو العلم الوحيد الذي تفرغ ابن هرمز لدراسته وروايته ، ولكنه كان من العلماء الثقات بأنساب العرب ، قال الذهبي في طبقات القراء : « وله خبرة بأنساب قريش » ، وقال السيرافي : كان أعلم الناس بأنساب قريش » .

وتوافر ابن هرمز أيضاً على دراسة القرآن وقراءته . وكان من الثقات المتثبتين ، يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ .

(٢) ابن قاضي شهبة : الطبقات ، مخطوطة دار الكتب القاهرة .

(٣) ابن سعد : المرجع السابق ؛ وانظر أيضا : النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥—٣٠٦) .

(٤) السيوطي : المرجع السابق .

لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ، ولهذا تكاد تجمع المراجع على وصفه بالمقرىء المحدث ، وقال ابن سعد :

« كان الأعرج يكتب المصاحف » .

وقال الذهبي فى طبقات القراء :

« كان الأعرج أحد من برز فى القرآن والسنة »[1] .

ووصفه فى تذكرة الحفاظ بأنه « كاتب المصاحف » ، وبأنه « كان ثقة ثبتا عالما مقرئا » ، وقال فى ترجمته له فى تاريخ الإسلام :

« وكان يكتب المصاحف ويقرىء القرآن »[2] .

وكان عبد الرحمن بن هرمز — مع عنايته بعلوم الحديث والقرآن — عالما مبتكرا ، فإن المراجع والروايات تكاد تجمع على أنه أول من وضع علم العربية والنحو ، فبعضها ينسب هذا إلى أبى الأسود الدؤلى ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الثالث ينسبه إليهما معا ، فقد روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال :

« كان الأعرج أول من وضع العربية » .

وقال القفطى فى إنباه الرواة :

« قال اهل العلم : إنه (أى الأعرج) أول من وضع علم العربية ، والسبب فى هذا القول أنه أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو »[3] .

وقال ابن قاضى شهبه :

« وهو أول من وضع النحو فى قول » .

---

(١) رواه عنه ابن قاضى شهبة فى المرجع السابق .

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٣) القفطى : إنباه الرواة ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وقد فصّل الزبيدى فى كتابه « طبقات النحويين » الأسباب التى دعت إلى إبتكار علم النحو فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وأرجعها إلى انتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية ، وما تبعه من تبلبل الألسنة وخروج هؤلاء المسلمين الجدد عن قواعد النطق الصحيحة عند العرب ، وأشار الزبيدى فى حديثه هذا إلى العلماء الذين ينسب إليهم الفضل فى وضع علم النحو ومن بينهم : أبو الاسود الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، قال :

« ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى هو حَلْيُها والموضح لمعانيها فتفطن لذلك مَنْ نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغَلَبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب فى تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاغت عنه .

فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصّلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف ؛ وكان لأبى الأسود فى ذلك فضل السبق وشرف التقدم ، ثم وَصَل ما أصّلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم الفضل بحسب ما بسط من القول ، ومدّ من القياس ، وفتق من المعانى . وأوضح من الدلائل ، وبيّن من العلل »[1] .

وكان عبد الرحمن إلى هذا كله الأستاذ الأول للإمام مالك — إمام

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، نشر أبو الفضل ابراهيم ، ص ٢ .

دار الهجرة ـ عنه أخذ العلم أول ما أخذ ، وظل يصاحبه ويلازمه وحده سنين طويلة ، على هذا تجمع المراجع ، وإن اختلفت فى تحديد العلم أو العلوم التى أخذها التلميذ عن الأستاذ ، فقد جاء فى كتاب « إنباه الرواة » للقفطى :

« يروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ـ رضى الله عنه ـ اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين فى علم لم يبثه فى الناس ، فمنهم من قال : تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل : كان ذلك فى علم أصول الدين وما يُرَدُّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة ... والله أعلم »[1] .

ولد الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ فى المدنية فى أواخر القرن الأول للهجرة ـ فى سنة ٩٣هـ على أرجح الأقوال ـ ، وفى المدينة نشأ ، وفيها عاش عمره كله لم يغادرها البتة إلا إلى مكة للحج .

وكانت المدينة فى ذلك الوقت حافلة بعدد كبير من التابعين ، وكانت موطن العلم وموئل العلماء ، وفى مقدمتهم عالمنا عبد الرحمن بن هرمز ، ولاتصال مالك به وتتلمذه عليه قصة طريفة ، روى ابن مالك نفسه هذه القصة قال :

« كان لى أخ فى سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوما علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لى أبى : ألهتك الحمام عن طلب العلم ؛ فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفى رواية ثمانى سنين) لم أخلطه بغيره وكنت أجعل فى كمى تمراً وأناوله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول » .

ومن هذا الحديث نستطيع أن نعرف أن مالكا بدأ يتتلمذ على ابن هرمز فى حداثته أى فى نحو العاشرة من عمره بعد أن بلغ مبلغ من يسأل فيخطىء أو يصيب ، ويؤاخذ على خطئه وصوابه ، ولا يمكن بداهة أن يبلغ الصبى هذا المبلغ ويؤاخذ هذه المؤاخذة قبل العاشرة ، ونستطيع أن نعرف كذلك أن عتاب أبيه كان ذا أثر قوى فى نفسه ، فدفعه إلى ترك اللهو واللعب والتفرغ إلى طلب

---

(١) القفطى : إنباه الرواة ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

العلم وملازمة أستاذ بعينه ـ هو ابن هرمز ـ سنين طويلة ، أقلها سبع سنين ؛ ونستطيع أن نعرف أن التلميذ الصغير مالكا ، كان حريصا الحرص كله على الإفادة من علم أستاذه كله حتى ليتحايل فيهدى صبيان ابن هرمز بعض التمر ليمنعوا أى وافد من الدخول إليه أثناء الدرس ؛ ونستطيع أن نعرف أخيراً أن ابن هرمز كان قد وصل فى ذلك الوقت سن الشيخوخة ، بدليل قول مالك : « وكنت أقول لصبيانه : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول ».

وقد أعجب ابن هرمز الأستاذ ، بمالك التلميذ ، فكان أشد حرصا على الاجتماع به وملازمته والتدريس له ومذاكرته فى العلوم المختلفة ، فقد جاء فى المدارك :

« قال ابن هرمز يوما لجاريته مَنْ بالباب ؟ فلم تَرَ إلا مالكا فرجعت فقالت ما ثَمَّ إلا ذاك الأشقر ، فقال : ادعيه فذلك عالم الناس ؛ وكان مالكٌ قد اتخذ تُبَّانا ـ أى سروالا ـ محشوا للجلوس على باب ابن هرمز ، يتقى به برد صخر المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز ».

فابن هرمز يصف تلميذه مالكا بأنه عالم الناس ؛ والدرس يطول ساعات وساعات لا يسأم من طوله الأستاذ ولا يضجر التلميذ ، بل إن التلميذ يتخذ لهذه الجلسات الطويلة عدتها . فيلبس سروالا مبطنا يقيه برد الحجر على باب ابن هرمز إن طال به الانتظار ، ويقيه برد الصخر بالمسجد إن طالت به ساعات الدرس ، فإنه يروى أن مالكا كان يلازم ابن هرمز من بكرة النهار إلى الليل . جاء فى المدارك نقلا عن مالك نفسه :

« كنت آتى ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل ».

ومن هذا يتضح أن مالكا كان يتلقى دروسه على ابن هرمز فى البيت تارة ، وفى المسجد تارة أخرى .

وقد عرفنا من قبل أن ابن هرمز كان من الثقات، أجمعت المراجع على توثيقه ووصفه بالأمانة ، وأنه كان يتحرى الصواب فى روايته للحديث ، ولهذا كان اثره فى تلميذه مالك واضحا ، فنشأ مالك دقيقا متثبتا ، يترسم خطى أستاذه ، ويلتزم أسلوبه فى البحث والتحرى . ولهذى يروى أن مالكا كان يكثر من قوله : « لا أدرى » وأنه كان يقتدى فى هذا بأستاذه ابن هرمز . جاء فى المدارك :

« قال مالك : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال لا أدرى ... قال ابن وهب : كان مالك يقول فى أكثر ما يُسأل عنه : لا أدرى » .

وهكذا تكون شيمة العالم الحق ، لا يأنف أن يقول لا أدرى إذا كان لا يدرى ، ويأنف أن يفتى بما لا يعلم ، بل لقد بلغ من دقة ابن هرمز وشدة حرصه أنه كان لا يحب أن يروى عنه ، ولهذا نهى مالكا أن يذكر اسمه فى سنده ، وآثر بهذا أن يخمل ذكره عن أن يشيع عنه النقل وقد يكون منه الخطأ ، فيجرح ويتهم بالكذب .

وكان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبى سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لأنهما ينبهانه إلى الخطأ إن أخطأ ، حتى لقد قيل له : « نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما » ، فيقول : « دخل علىّ فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل علىّ فى عقلى مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتمونى عن الشيء فأجبتكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صوابا قبلاه ، وإن كان غيره تركاه »

أما ما هو العلم الذى أخذه مالك عن ابن هرمز فهذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق ، فقد روينا من قبل عن القفطى وغيره أن مالكا اختلف إلى عبد الرحمن ابن هرمز عدة سنين فى علم لم يبثه فى الناس ، « فمنهم من قال :

تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة » ، ولسنا نميل إلى الرأى الأول لأن علم النحو واللغة ليس به من الأسرار ما يخشى معه أن يبث بين الناس ، والرأى الثانى أقرب إلى الصواب ، ويؤكد أن مالكا قال عن أستاذه ابن هرمز أنه « كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وما اختلف فيه الناس » .

فهذه العبارة تدل على أنه كان يتلقى عليه اختلاف الناس فى الفتيا والفقه ، ويتلقى عنه الرد على أهل الأهواء ، وهذه كلها أمور دقيقة شائكة لا يستساغ نشرها على كل الناس ، يقول الأستاذ محمد أبو زهرة فى كتابه القيم عن الإمام مالك :

« وكأنه بذلك يقسّم العلم قسمين : علم يلقى على الملأ والجمهور ولا يختص به أحد إذ لا ضرر فيه لأحد ، وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته وهضمه والانتفاع به ، وقسم لا يصح أن يعرفه إلا خاصة الناس فلا يلقى ، لأن ضرره على بعض النفوس أكثر من نفعه ، كالرد على أهل الأهواء ، فإنه ربما يعسر فهمه على بعض العقول ، وربما يفهمونه على غير وجهه ... فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع ، ولذلك لم يذع كل ما علمه عن ابن هرمز ، وإن كان تلقاه »

هذا موجز عن حياة ابن هرمز العلمية ، عرفنا منه أى العلوم كان يتقن ، وعرفنا منه مكانته العلمية الممتازة بين السادة الأفاضل من علماء المدينة وكبار التابعين ، وعرفنا منه صلته بتلميذه النابغة الإمام مالك — رضى الله عنه — ، ولم يكن مالك — بطبيعة الحال — تلميذه الوحيد ، بل أخذت عن عبد الرحمن أمّة من العلماء والمحدثين ، أشارت المراجع إلى نفر منهم ، ونجمل ما فيها أنه روى عنه : الزهرى ، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، وصالح بن كيسان ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وزيد بن أسلم ، وموسى

ابن عقبة ، وجعفر ابن ربيعة ، وعلقمة بن أبي علقمة ، ومحمد بن عجلان ، وعبد الله ابن لهيعة ، وغيرهم .

وقد عاش عبد الرحمن بن هرمز عمره كله في المدينة ، لم يغادرها — قبل رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية — إلا مرة واحدة زار فيها الشام ، وقد انفرد ابن عساكر في « تاريخ دمشق » بذكر رحلته هذه الشامية ، قال في ترجمته لابن هرمز : « ووفد على يزيد بن عبد الملك » ، ونستطيع أن نحدد وقت هذه الرحلة بأنها كانت بين سنتي ١٠١ و ١٠٥ هـ ، ففي السنة الأولى ولي يزيد الخلافة ، وفي السنة الثانية توفي .

وقال البلاذري في « فتوح البلدان » :

« وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي أن ابن هرمز الأعرج القارىء كان يقول : خير سواحلكم رباطا الإسكندرية ، فخرج إليها من المدينة مرابطا ، فمات بها في سنة ١١٧ هـ »[1]

ويبدو أن الرجل كان قد عمر وقارب المائة حين خرج مرابطا إلى الإسكندرية فهو كما عرفنا كان أقرب تلاميذ أبي هريرة إليه . صحبه مدة ، وأخذ عنه ، وروى عنه الحديث ؛ وابو هريرة توفي سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ ، فإذا قدرنا أن سن ابن هرمز كانت عند وفاة أستاذه أبي هريرة ما بين الثلاثين والأربعين صح استنتاجنا أنه خرج إلى الإسكندرية وقد قارب المائة من عمره ، ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكرناه سالفا من تبرير ابن هرمز لإيثاره مالك وعبد العزيز دون بقية تلاميذه ، حين قال : « دخل عليّ في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل عليّ في عقلي مثل ذلك » ، وقد ذكرنا من قبل أيضا أن مالكا ولد في سنة ٩٣ هـ ، وأنه بدأ يتتلمذ على

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ، وقال (الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥) في ختام ترجمته لابن هرمز : « انتقل في آخر أيامه إلى مصر ، وتوفي غريبا بالاسكندرية سنة سبع عشرة ومائة على الصحيح » .

ابن هرمز فى العاشرة من عمره ، أى فى سنة ١٠٣ أو نحوها ، وأنه لازمه مدة أقلها سبع سنوات ، أى إلى سنة ١١٠ ؛ ولهذا نرجح أن ابن هرمز خرج إلى الإسكندرية بعد ١١٠ هـ ، ولهـذا فهو لم يقم بالإسكندرية إلا سنوات قليلة ، نحو الخمس سنوات ، ثم توفى إلى رحمة الله فى سنة ١١٧ ، وهو تاريخ اتفق عليه جميع من ترجموا له .

ولم تشر المراجع بكلمة واحدة إلى هذه السنوات القليلة التى قضاها الشيخ ابن هرمز فى الإسكندرية قبل وفاته وكيف قضاها ، وأغلب الظن أن الرجل قضى هذه السنوات فى التدريس ورواية الحديث ، فقد كانت الإسكندرية — خير السواحل رباطا كما وصفها ابن هرمز — تجتذب إليها عـــددا كبيرا من علماء المسلمين ومن أفاضل التابعين ، وكان يقيم بها وقت مقام ابن هرمز بها عدد كبير من هؤلاء التابعين ممن ذكرنا ، من أمثال بن شفى الهمدانى ، وربيعة بن سيف المعافرى الإسكندرانى ، وزاهر ابن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، وهؤلاء وغيرهم كانوا يكونون المدرسة الأولى التى أشاعت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة ونشرتها فى مدينة الإسكندرية .

وفى الإسكندرية اليوم ، فى شارع رأس التين ، مسجد يسمى مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وبه ضريح ينسب إلى هذا التابعى الجليل ، ولم يشر إلى هذا المسجد وهذا القبر أحد من المؤرخين والرحالة إلا على مبارك فى كتابه « الخطط التوفيقية » ، ولم ينسبه إلى سيدى عبد الرحمن ، وإنما نسبه إلى بانيه « الحاج درويش أبى سن » ، فقد قال عند تعداد مساجد المدينة :

« مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن ابن هرمس ، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل فى تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد ، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذى بناه المرحوم درويش أبو سن ، وهو مسجد تام المرافق ،

حسن المنظر ، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف »[1]

فالمسجد حديث البناء ، بنى فى منتصف القرن الماضى ، وقد زرته مرارا ، ورأيت فى أعلى محرابه لوحة صخرية كتب عليها :

« ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ، بنى هذا صاحب الخيرات حاج درويش أبى سن ١٢٦٥ »

وإلى يسار المحراب غرفة بها ضريح تعلوه مقصورة خشبية ، هو المنسوب إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وإلى جانبه ضريح رخامى بسيط دُفن به بانى المسجد الحاج درويش أبو سن ، وعلى حائط هذه الغرفة لوحة حجرية أخرى تحمل نصا شبيها بالنص السابق المرقوم أعلى المحراب .

والباحثون فى تاريخ الإسكندرية لا يطمئنون إلى صحة نسبة هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن ، وقد أكد لى هذا الشك فضيلة الأستاذ الشيخ بشير الشندى — المدير السابق لمكتبة بلدية اسكندرية — ، وروى لى أن الشيخ محمد البنا — أحد علماء الإسكندرية فى القرن الماضى — كان يجتاز شارع رأس التين الحالى دائما فى طريقة إلى سراى رأس التين لزيارة الخديو إسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب هذا الضريح يعاتبه ويقول له : « كيف تمر بقبرى ولا تحيينى ؟ » ، فسأله الشيخ « ومن أنت ؟ » ، قال : « أنا عبد الرحمن بن هرمز » ، وقصَّ الشيخ البنا هذه الرؤيا على نفر من أصدقائه ، وكان من بينهم رجل فاضل من أثرياء المدينة هو الشيخ درويش أبو سن ، فتطوع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ، ومن ثمَّ نسب المسجد والضريح إلى سيدى عبد الرحمن ابن هرمز ، ثم أوصى أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته .

فنسبه هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن نسبة حديثة ، ترجع إلى منتصف القرن الماضى ، ولم يكن صاحب هذا الضريح معروفا قبل هذه

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٧٠ .

الحادثة ، ويؤكد هذا الشك مرة أخرى أن دارس طبوغرافية المدنية لا يطمئن إلى وجود هذه البقعة من الأرض المقام عليها الضريح فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، وأغلب الظن أن هذه البقعة كانت وقتذاك مغمورة بمياه البحر ، شأنها شأن معظم المنطقة التى يقوم عليها حى الأنفوشى ورأس التين .

ونحن إذا انتهينا من هذا الشك إلى شىء من الاطمئنان ، ثار أمامنا شك آخر ، فإلى القرب من شارع رأس التين الحالى ، وفى نهاية شارع الميدان بل على امتداده يوجد شارع يسمى شارع زاوية الأعرج » ، وتقوم فيه زاوية صغيرة تسمى « زاوية الأعرج » ، وليس بها ضريح ، ويجرؤ البعض فينسبونها إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فقد كان الرجل أعرجا ، وشهر بهذه الصفة فى كتب الحديث .

ولكن هذه النسبة خاطئة أيضا ، والذى نرجحه أن هذه الزاوية تنسب إلى ولى آخر من أولياء الله الصالحين عاش فى الإسكندرية فى القرن الثامن للهجرة ، وكان اسمه « الشيخ برهان الدين الأعرج » ؛ ولهذا الشيخ قصة طريفة ، فهو المشجع الأول للرحالة المشهور ابن بطوطة على إتمام رحلاته فى الشرق الأقصى حتى يصل الهند والصين ؛ ذكر ابن بطوطة أنه زار هذا الشيخ أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية ، وأنه أقام فى ضيافته ثلاثة أيام ،قال :

« ومنهم (أى من شيوخ الإسكندرية) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، من كبار الزهاد وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية ، وأقمت فى ضيافته ثلاثا .

دخلت عليه يوما فقال لى : « أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد » ، فقلت له : « نعم ، إنى أحب ذلك » ، ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : « لا بد لك إن شاء الله من

زيارة أخي فريد الدين بالهند ، وأخي ركن الدين زكريا بالسند ، وأخي برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام » ، فعجبت من قوله ، وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه ، ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها مني كفار الهنود فيما سلبوه لي في البحر »[1] .

ودارسو ابن بطوطة ورحلته يرون دائماً أن هذه الكلمات الموحية من الشيخ برهان الدين الأعرج السكندري هي التي أوحت إلى ابن بطوطة فكرة الارتحال إلى أن يصل إلى هذه الأطراف القاصية من بلاد المسلمين .

وبعد ، فلعلنا أزلنا بهذا التحقيق كثيراً من الشكوك التي تحيط بضريح سيدي عبد الرحمن بن هرمز ومسجده ، وبسميه برهان الدين الأعرج وزاويته ، ولعلنا قمنا ببعض الواجب علينا من التعريف بسيرة هذا التابعي الجليل الذي تعتز الإسكندرية به ، وحق لها أن تعتز به وأن تفخر ، فقد أصبح تاريخه جزءاً من تاريخها .

جمال الدين الشيال

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦ — ١٧ .

مراجع البحث

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على)

= الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءا ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ

= اللباب فى تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧ — ١٣٦٩

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)

= مهذب الرحلة ، نشر أحمد العوامرى وأحمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٣

البلاذرى (أحمد بن يحيى)

= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن)

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٢٩

ابن حجر . (شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى)

= تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن ١٣٢٦ هـ ، الجزء السابع

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧ — ١٣٦٩

= تذكرة الحفاظ ، أجزاء ، حيدر أباد الدكن (بدون تاريخ)

الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن)

= طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤

أبو زهرة (الشيخ محمد)
= الإمام مالك ، القاهرة
ابن سعد (كاتب الواقدى)
= الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ١٩٠٥ — ١٩٢١
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)
= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزان ، القاهرة ١٣٢٧
= بغيه الوعاة ، القاهرة ١٣٢٦
ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن)
= تاريخ مدينة دمشق ، والمجلد الأول ، نشر صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥١
ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)
= شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ — ١٣٥٣
ابن قاضى شهبة (تقى الدين أحمد بن محمد)
= طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية
القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف)
= إنباه الرواة على أنباء النحاة ، ظهر منه ٣ أجزاء ، ونشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ — ١٩٥٥
مبارك (على)
= الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٤ — ١٣٠٦
ابن النديم
= الفهرست ، طبع القاهرة (بدون تاريخ)
أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)
= حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٥١ هـ

موقف مصر

إزاء بعض مشاكل شبه الجزيرة العربية

فى الستينات من القرن التاسع عشر

أتسم القرن التاسع عشر بالثورات العديدة التى قامت فى أجزاء متفرقة من الإمبراطورية العثمانية ضد الحكم العثمانى والسيطرة العثمانية نتيجة لفساد النظم العثمانية ولضعف سلطة الباب العالى . ومن هذه الثورات ثورة العسير التى نشأت لاضطراب الأمور فى اليمن والحجاز . وقد استعان السلطان العثمانى بوالى مصر فى إخماد تلك الثورة ، ووجدت تلك الدعوة ترحيبا كبيرا من قبل والى مصر إسماعيل أملا فى إحياء السياسة العربية التى سارت عليها مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

فاشتراك مصر فى القضاء على تلك الثورة يعتبر من وجهة النظر المصرية، تتمة للسياسة العربية التى وضعت أسسها من قبل . ولذا لا يستطيع الباحث أن يتفهم سياسة مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إزاء ما يجرى فى شبه الجزيرة العربية من أحداث ما لم يرجع إلى الوراء بضع قرون ليلم إلمامة سريعة بالسياسة التى اتبعتها كل من مصر والدولة العثمانية بإزاء تلك المنطقة العربية من العالم .

بدأ اهتمام العثمانيين بالسيطرة على سواحل البحر الأحمر بعد احتلالهم لمصر مباشرة عام ١٥١٧ م . ويرجع هذا الاهتمام — إلى حد كبير — إلى محاولتهم معالجة أهم المشاكل السياسة والاقتصادية التى واجهتها مصر منذ أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر .

كان على الدولة العثمانية إذاً أن تدافع النفوذ البرتغالى المتغلغل فى المحيط الهندى والجزء الجنوبى من البحر الأحمر . ووجد العثمانيون أن من واجبهم القيام بعمل حاسم لوقف التيار البرتغالى ، لانقاذ العالم الإسلامى من هذا الخطر الصليبى المتعصب ، حماية للقوى الإسلامية فى الهند من أن تحطم ، ومحافظة على الولايات العربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر من أن تنتزع السيطرةُ على التجارة الشرقية من أيديها . هذا فضلا عن الفائدة الكبيرة التى تعود على الدولة العثمانية من القضاء على قوة البرتغاليين ومن بسط سيطرتها على الطريق التجارى القديم ، واستعادة أهميته السابقة كطريق تجارى هام بين الشرق والغرب .

ومن ثَم بدأ الأتراك العثمانيون يتطلعون إلى الاستيلاء على السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية ، ووَضْع أيديهم على المراكز العربية التجارية الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى مثل هرر وسواكن ومصوع حتى لا يمكنوا البرتغاليين من توطيد أقدامهم فى تلك المناطق .

وكان الحجاز أسبق هذه الأقطار إلى الدخول فى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن دالت دولة المماليك فى مصر . ولم يجد شريف مكة غضاضة فى أن يتقدم بفروض الطاعة والولاء للسيد الجديد (السلطان سليم) بمصر ، ليضمن بذلك بقاءه فى منصبه وليتمتع بالحماية العثمانية ضد اعتداء البرتغاليين .

وإذا ما اتجهنا إلى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة العربية نجد أمارة اليمن حيث كانت خاضعة لحكم الأئمة الزيديين ، وكان أمراء المماليك فى مصر يدعون لأنفسهم شيئا من السيادة على اليمن نظرا لسيطرتهم على إقليم الحجاز . وقد وجد هؤلاء المماليك فى الضغط البرتغالى على اليمن فرصة سانحة لتدعيم نفوذهم فى تلك البلاد ، فأرسلوا إليها قوة حربية كبيرة بحجة الدفاع عن كيانها ضد الغزو البرتغالى المتوقع . وظلت تلك القوة الحربية قائمة إلى سقوط دولة المماليك حيث أُخرجت منها عنوة . وبذلك أصبحت

اليمن مطمعا لقوتين جديدتين هما : قوة العثمانيين وقوة البرتغاليين ، إلى أن تمكن العثمانيون من أن يكون لهم الغلبةُ في النهاية وأن يسيطروا على اليمن بعد حملات متعددة وتضحيات جسيمة . وبالرغم من ذلك لم يستطع الأتراك العثمانيون البقاء فيه فاضطروا إلى الانسحاب سنة ١٦٣٥ .

أما عن الإمارات العربية الواقعة على الخليج الفارسي فقد خضعت للسيطرة العثمانية ، ولكنها كانت في واقع الأمر سيطرةً اسمية ، وظلت السلطةُ الفعلية في أيدي أمرائها ومشايخها المحليين .

من هذا العرض الموجز لحركة التوسع العثماني في شبه الجزيرة العربية لمواجهة الضغط البرتغالي نجد أن العثمانيين قد اضطروا إلى الاهتمام بالعالم العربي وبالمشاكل العربية ، وأن يكونوا لأنفسهم سياسة عربية خاصة إزاء تلك المناطق .

وباستيلاء العثمانيين على الحجاز اتخذوا من جدة قاعدة لحكم هذا القطر العربي (وأطلقوا عليه اسم ولاية الحبش) ، وأقاموا بها واليا تركيا برتبة الباشوية ويخضع لسلطته شريف مكة . وظلت الصلة التي تربط مصر بالحجاز تتمثل في بعثة الحج المصرية وفي الأموال والغلال التي ترسلها مصر سنويا إلى الأراضي المقدسة . واستمر الحجاز خاضعا لحكم الأتراك العثمانيين إلى أن استولى عليه الوهابيون في عام ١٨٠٢ م .

وعندما عجزت الدولة العثمانية عن استرداد الحجاز من أيدي الوهابيين ، لجأت إلى محمد علي والي مصر ، للاستعانة به في القضاء على الحركة الوهابية وانتزاع معظم مناطق شبه الجزيرة العربية من أيديهم . واستطاعت مصر بعد جهود كبيرة من السيطرة على الحجاز في عام ١٨١٩ ، ووضع سياسة عربية خاصة بالحكمه وإدارة شئونه . وتهدُف تلك السياسة إلى الاستقلال بحكم تلك البلاد وإخضاعها للحكم المصري المباشر بعيدا عن تدخل الدولة العثمانية صاحبة السيادة . وبذلك أصبح لمصر منزلة سامية لدى الشعوب الإسلامية نتيجة لسيطرتها على الحرمين الشريفين .

وقد حاول محمد على بعد أن استتب له الأمر فى الجزيرة العربية أن يتجه بفتوحاته شرقا نحو الخليج الفارسى وجنوبا صوب اليمن ، ولكن الحكومة الإنجليزية حذّرته من المضى فى هذا السبيل ، وبادرت باحتلال عدن سنة ١٨٣٩ . فلم يجد محمد على بدا — تحت ضغط الحكومة الإنجليزية — من الانكماش داخل شبه الجزيرة العربية ، إلى أن استطاعت إنجلترا فى عام ١٨٤٠ — القضاء على الحكم المصرى فى شبه الجزيرة العربية وأن تعيد إليها الحكم العثمانى مرة ثانية .

وكان لفشل حركة محمد على فى تكوين إمبراطورية عربية والاستقلال عن الباب العالى صداه العميق لدى الحكومة العثمانية التى لم تتردد فى استغلال تلك الفرصة فى تشديد قبضتها على البلاد العربية الخاضعة لحكمها . فأقامت بالحجاز إلى جوار الوالى العثمانى وشريف مكة ، قوةً عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثمانى فى تلك البلاد . ونجح العثمانيون — إلى حد بعيد — فى تدعيم سلطانهم على الحجاز نتيجة لانتهاجهم تلك السياسة الجديدة .

وظلت مصر منذ الفترة التى اعقبت عام ١٨٤٠ بعيدة عن مسرح السياسة فى الحجاز ، ولا يربطها بهذا القطر الشقيق سوى ما سبق أن أشرنا إليه من إرسال الصدقات والغلال إلى فقراء الحجاز كل عام . واستمر الوضع على هذا النحو إلى عام ١٨٦٣ حيث حدثت بعض الاضطرابات فى اليمن والحجاز ضد الحكم التركى ، وتجمعت قبائل العسير تحت راية أميرهم محمد بن عائض محاولة الاستيلاء على منطقة تهامة وتهديد الأراضي الحجازية . وقد شجع النجاح الذى أحرزته تلك القبائل على مقاومة السلطات التركية الحاكمة التى أزعجها هذا الانتصار . وتحرج موقف متصرف الحديدة التركى (على ياور باشا) ، وطلب النجدة من عزت حقى باشا حاكم عام الحجاز . وكان مجىء القوات التركية كافيا لانسحاب القبائل الثائرة عن الحديدة واعتصامها فى المناطق الجبلية

المجاورة لها والتى تبعد عنها مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة فراسخ .

ولم ينته خطر الثوار بهذا الانسحاب ، إذ ظلوا يسيطرون على بعض المناطق الحصينة على الساحل والتى مكنتهم من مطاردة السفن التجارية المارة بمحاذاة ساحل عسير ، والاستيلاء على ما بها من متاجر(١) . وكان على السلطات التركية الحاكمة فى الحجاز والتى تتمثل فى عزت حتى باشا الوالى العثمانى والشريف عبد الله حاكم مكة أن تقضى على تلك الثورة . ولكن نظرا لعدم تحديد اختصاص كل من الرجلين المسئولين تحديدا دقيقا ، حاول كل منهما أن يفتئت على سلطة الآخر ، فكثر الاحتكاك بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين . وساعد على ذلك الكراهية المتبادلة بين الطرفين ، فعزت باشا كان يمثل العصبية التركية الحاكمة ، والشريف عبد الله يمثل العصبية العربية المحكومة . وأدى ذلك فى النهاية إلى عدم القيام بعمل إيجابى مشترك لإخماد تلك الفتنة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تحرج موقف شريف مكة عندما كلفه الباب العالى بالقضاء على ثورة قبائل عسير ، وذلك لأن تلك القبائل كانت من أهله وعشيرته . بل إنه كان على العكس من ذلك يحرضهم سرا على الثورة ضد الحكم العثمانى .

لهذه الأسباب مجتمعة لم تستطع السلطات التركية الحاكمة فى الحجاز القيام بعمل إيجابى حاسم للقضاء على الثورة . فلجأ الباب العالى إلى والى مصر (إسماعيل) للاستعانة به فى إخضاعها . ولما كان والى مصر يسعى فى ذلك الوقت للحصول على فرمان من الباب العالى بجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أبنائه ، رحب بتلك الدعوة إرضاء للسلطان العثمانى من جهة ، وأملا فى إحياء سياسة مصر العربية من جهة ثانية . ومن ثم فقد أعدت مصر قوة حربية قوامها ٥٤٤٤ جنديا من المشاة والفرسان

---

(١) T. Douin; Hist. du Règne du Khedive Ismail. T. I. p.316

الباشبوزق (غير النظاميين) مزودة بأربعة مدافع جبلية تحت قيادة إسماعيل صادق بك ، وتمثل تلك القوة طليعة القوات المصرية المرسلة للأراضى الحجازية . وأبحرت تلك القوة فى ٣ يونية سنة ١٨٦٤ من ميناء السويس على الباخرة الحديدة متجهة إلى جدة .

على هذا النحو كان تدخل مصر فى المسائل العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهو يشبه — إلى حد كبير — تدخلها فى شئون شبه الجزيرة العربية فى عهد محمد على ، حينما استعان به السلطان العثمانى على إخضاع الثورة الوهابية . ولكن والى مصر (إسماعيل) لم يكن على استعداد لأن يقدم تضحيات كبيرة كتلك التى قدمها محمد على ، ثم يكون شأنه فى النهاية شأنَ جده من قبل . ولهذا فقد آثر سياسة اللين ، وعدم المخاطره بالدخول فى حرب ضد الثوار بأية حال من الأحوال ، مع بذل كل المساعى الممكنة للوصول إلى تسوية سلمية بين الطرفين المتنازعين .

وقد نجحت مصر فى اقناع المسئولين بحكومة الآستانة بوجهة نظرها فى حسم النزاع بالطرق الودية ، وفى الحصول على موافقة الباب العالى على تلك السياسة[1] ، وخصوصا بعد أن أظهر الثوار ميلا للتفاهم والدخول فى طاعة الدولة العثمانية حقنا للدماء وحفظا للأموال والممتلكات[2] .

كما حاول الشريف عبدالله من جهة أخرى ، أن يسير على سياسة خاصة تحظى برضاء الطرفين المتنازعين ، وتتلاءم — فى نفس الوقت — مع مركزه الدقيق كحاكم عربى . فهو من الناحية الرسمية يعتبر أحدَ موظفى الدولة العثمانية ، ويدين بالطاعة والولاء للسلطان . ومن جهة أخرى فهو يرتبط بصلة الدم بقبائل عسير ، فهم أهله وعشيرته . فازاء هذا الموقف الدقيق ،

---

(١) محفظة سايرة « تركى » من الجناب العالى إلى صاحب العزة قومندان العساكر المصرية بالحجاز وثيقة بدون رقم فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٢ (أغسطس سنة ١٨٦٥) .

(٢) دفتر ٢١ عابدين من الجانب العالى إلى كامل بك القبوكتخدا . وثيقة رقم ٣٧ فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٨١ (مايو سنة ١٨٦٥) .

حاول الشريف عبد الله أن يحتفظ بتوازنه بين الطرفين، وألا يقوم بأى عمل يعرضه لغضب الباب العالى، أو لاتهامه بالخيانة من قبل أهله وعشيرته[1] ولهذا السبب أخذ الشريف عبد الله يسوف فى اتخاذ موقف حاسم إزاء الثوار ريثما يتمكن من الوصول إلى اتفاق مرض مع أمير عسير عن طريق المفاوضات .

كان هناك إذن اتفاق فى الهدف بين سياستى كل من والى مصر وشريف مكة بإزاء الثوار ، وأن اختلفت الشخصيتان فى الغاية التى يسعى كل منهما إلى تحقيقها . فكلا الرجلين كان يعمل جاهدا من جانبه لاظهار تفوق نفوذه وسيطرته على الموقف فى الحجاز . ومن هنا نشأت المنافسه الشديده بينهما .

ومما زاد الثورةَ اشتعالا إنضمامُ ثلاثِ قبائل عربية كبيرة كانت تقيم بالقرب من الطائف إلى الثوار بعد أن خضعت تلك القبائل فترة طويلة من الزمن لحكومة الحجاز ، فأصرت السلطات التركية على عودتها . واتخذت التدابير اللازمة لارجاعها بالقوة إلى حظيرة العثمانيين ، فاجتمع مجلسٌ عسكرى ضم اسماعيل صادق بك قائد الحامية المصرية والشريف عبد الله وعزت حقى باشا حاكم عام الحجاز ، وبعضُ الضباط العظام لبحث الموقف ووضع الخطط الحربية الكفيلة بقمع الفتنة . وقد استقر رأىُ المجلس العسكرى على ابفاد القوات المصرية والعثمانية إلى بلدة قنفذه لاتخاذها مركزا أماميا للعمليات الحربية ضد الثوار[2] .

وفى ١٢ أغسطس سنة ١٨٦٤ خرج شريف مكة على رأس ٢٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق والمشاه والمدفعية متخذا الطريق البرى المؤدية إلى قنفذه من ناحية الشرق حيث تتجمع القوات المصرية والعثمانية قبل بدء الهجوم . ولحقت به أيضا قوة حربية أخرى من فرسان الباشبوزق قوامها ١٨٠٠

---

(1) Aff. Etrang. Corr. polit. S. Marie au Ministre No. 7 Djeddah 12 Oct. 1865.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الإخبار ج ٢ ص ٢٩٤ .

فارس[1] . بينما سارت قوة حربية ثالثة تحت قيادة أخى شريف مكة لدخول قنفذه من ناحية الغرب . فأصبحت جملةُ القواتِ الزاحفة على عسير حوالى ٨٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريفين ؛ منها ٢٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريف عبد الله و ١٨٠٠ مقاتل تحت قيادة أخيه و ٤٢٠٠ جندى مصرى تحت قيادة اسماعيل صادق بك[2] .

ويقابل هذا العدد من جانب الثوار عشرون ألف مقاتل مزودون بأربعين مدفعا ، وبعدد كبير من البنادق ، ويعتصمون بمناطق جبلية حصينة . فكانت فرصة الفوز أمام القوات المصرية والعثمانية ضئيلةً جدا . وهذا ما دعا شريف مكة إلى التروى وعدم القيام بأية عمليات حربية ضد الثوار ، وخصوصا وأن أهل عسير قد استطاعوا من قبل الاستيلاء على مكة وجده[3] .

وإذا كان شريفُ مكة حريصا على عدم خوض معارك حربية ضد قبائل عسير ، فان والى مصر كان أشد منه حرصا على ذلك ، ويبدو هذا من الكتاب الذى أرسله إلى اسماعيل صادق بك قائد الحمله المصرية فى أو أخر أغسطس سنة ١٨٦٥ حيث يقول :

« وإذا صدر إليكم تنبيهُ بالسفر إلى جهة ما أو بالهجوم ، ورأيتم فى ذلك خطرا ، فلاتعيروهم أذنا صاغية وتمهلوا فى تنفيذطلباتهم . واعلموا جيدا أن أمراء وضباط الجانب الآخر (يقصد العثمانيين) أناسٌ غريبو الأطوار ، لايهتمون قيد شعرة إذا ما هلكتم جميعكم ، ولايسألون عنكم . فكونوا

---

(1) Aff. Etrang. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No. 212 24 Oct. 1865.

(2) Aff. Etrang. Corr. Polit. S. Marie au Ministre. No. 212 Djeddah 24 Oct. 1865.

(3) Aff. Etrng. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No 7 Djeddah 21 Oct. 1865.

على حذر وبصيرة واجتنبوا اتلاف الجنود واتعابهم[1] ..

ويحذره فى نهاية الكتاب أيضا من الدخول فى حرب جدية مع قبائل عسير، وأن يتجنب القتال قدر المستطاع.

كما أرسل بكتاب آخر إلى شريف مكة يلفت نظره إلى ضرورة ابعاد القوات المصرية عن ميناء قنفذه، لأن جوه لايتلاءم مع الحالة الصحية للجنود المصريين، وطالب بسحبهم فى الحال إلى منطقة أخرى أكثر ملاءمة لطبيعتهم[2].

ويبدو من كل ماتقدم أن والى مصر أراد أن يوفق بين مصلحته وبين تنفيذ بنود فرمان سنة ١٨٤١ الذى نص على اعتبار الجيش المصرى جزءا من الجيش العثمانى، وعلى وجوب مساعدة مصر للدولة العثمانية، إذا ما طلب منها ذلك فى أى وقت من الأوقات. أى أنه أراد أن يحافظ على نصوص هذا الفرمان من ناحية الشكل، لا من ناحية الجوهر. ولذا حرصت مصر على مساعدة الدولة العثمانية فى مختلف المناسبات دون أن تكبد نفسها خسائر كبيرة، طالما كان فى مقدورها أمير تجنبها وتلافاها.

ولما كان شريف مكة — كما سبق أن ذكرت — قد اتخذ من سياسة التسويف والمماطلة هدفا يسعى لتحقيقه، حتى لايدخل فى قتال مع الثوار فقد احتج بقلة عددمالديه من الجنود. وطلب من والى مصر تزويده بأورطتين سودانيتين علاوة على مالديه من جنود. فرفض والى مصر اجابة هذا الطلب لأنه لم يشأ أن يذهب فى مساعدته للباب العالى فى مسألة عسير إلى أبعد من هذا الحد. كما أنه كان يخشى على الحالة فى السودان جزاء سحب هاتين الاورطتين، نظراً لقلة مالديه من القوات المصرية. ولذا يشير على قائد

---

(٤) محفظة سايرة. من الجناب العالى الى اسماعيل صادق، وثيقةبدون رقم ٦ ربيع آخر سنة ١٢٨٢ (أواخر أغسطس سنة ١٨٦٥).

(٥) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى الى سيادة الشريف أمير مكة المكرمة. وثيقة رقم ٨٦ فى ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٨٢ (سبتمبر سنة ١٨٦٥).

قواته بالحجاز بتجاهل طلب شريف مكة ، وبأن ينفذ التعليمات السرية حرفيا وبكمال الدقة والعناية ، وألا يهتم بتعليمات الباب العالى إذا ماتعارضت مع تلك التعليمات[1] » .

وفى ١٤ ربيع ثانى سنة ١٢٨٢ (سبتمبر ١٨٦٥) أرسل والى مصر إلى محمد بن عائض أمير عسير كتابا[2] يوضح له فيه ما تأمر به تعاليم الدين الإسلامى الحنيف من إطاعة ولى الأمر ، ويعده — فى حالة استجابته لنصحه — بأن يسعى لدى الباب العالى للحصول على عفوه وموافقته على تعيينه أميراً على عسير ، بعد أن يتنازل عن الأراضى والقبائل التى ضمها إليه . وفى ختام كتابه هذا يحذره من عاقبة تماديه فى العصيان بقوله :

« وإذا لم تقبلوا النصيحة الخيرية فى الدين ... فتكونون السبب فى سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة إلى تلك البقاع ، وخراب تلك الديار وسفك الدماء ... فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة[3] » .

وقد أظهر أمير عسير بعد أن تلقى هذا الخطاب ميلا إلى السلم والرجوع إلى حظيرة الباب العالى .

وعندما وجد والى مصر أن دعوتـه إلى السلم وجدت قبولا لدى أمير عسير ، بعث إليه بكتاب يبشره بقرب صدور فرمان سلطانى بمنحه رتبة أمير الأمراء والباشوية كما وعده من قبل[4] .

ويقابل هذا السعى من جانب والى مصر مسعىً آخر من قبل شريف مكة الذى كان يحاول التقليل من شأن الدور الذى قامت به مصر ، مظهراً للدولة

---

(١) محفظة سايرة من الجناب العالى إلى إسماعيل صادق بك . وثيقة رقم ٩٣ فى ١٣ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ (أوائل سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٢) و (٣) دفتر ٢٢ صادر عابدين من لدن الجناب الأعظم إلى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة رقم ٩٠ س ٢٥ فى ١٤ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ (سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٤) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى إلى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ .

العثمانية مدى ما يتمتع به من نفوذ روحي كبير وما له من سلطة قوية مكّنته من حل مسألة عسير دون حاجة إلى تدخل عسكرى ، ليرتفع بذلك شأنه لدى الباب العالى . ولذا حفلت تقاريرُه التى كان يرسلها تباعا إلى الاستانه بالأمل القوى فى أن تنتهى تلك المشكلة بما يتفق ورغبات الباب العالى بفضل ما يبذله من جهود[1] .

وقد رأت الحكومة العثمانية — بناء على تلك التقارير — إيفاد الأمير لواء جرى باشا (أحد أعضاء لجنة الشورى العسكرية) إلى مكة لتبادل الرأى مع الشريف عبد الله بشأن ما يجب عليه اتخاذه من تدابير[2] . وقد أساء هذا التصرف من قبل الحكومة العثمانية إلى والى مصر ، وخشى أن يخرج الأمر من يده ، وأن يتمكن شريف مكة بدبلوماسيته من حل النزاع وبذلك يتفوق نفوذُه على نفوذ والى مصر فى الحجاز . ولذا يضج والى مصر بالشكوى لدى السلطان العثمانى ، موضحا له بأن أفضل حل لتلك المشكلة من غير سفك دماء أو اضاعة الكثير من الأموال ، أن يُترك له وحدُه أمر التفاوض مع أمير عسير . ويعبر والى مصر اسماعيل عن المرارة التى يشعر بها نتيجة لتصرفات شريف مكة بقوله :

« ولكن ما الحيلة وشريف مكة — مع الأسف — لايرى هذا الرأى، ولا يحبذ هذه الفكرة ، وإنما يبعث على التوالى بتلك التقارير المشحونة بالمعسول من الكلام والأمانى ، أملا فى نوال المزيد من الاحترام والاكرام وكلما وجد هناك (أى فى الاستانة) من يُصغى لقوله ، أمعن فى خطته وأساليبه ، الأمرُ الذى لا يستطيع معه أن يكتم امتعاضه منه ولا يستطيع كذلك أن ينسب خطة سيادته إلى غير الاغراض الشخصية[3] » .

(١) دفتر ٢٢ صادر عابدين من الجناب العالى إلى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ .

(٢) دفتر ٢٢ صادر من الجناب العالى إلى كامل باشا . وثيقة رقم ١٢٨ فى ٥ جماد أول سنة ١٢٨٢ (أواخر سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) المصدر السابق .

ويلفت والى مصر نظر الحكومة العثمانية إلى الاختلاف الواضح بين أعمال شريف مكة وبين آرائه وتذبذبه بين الإقدام والإحجام ، ويقرر بأن مثل هذا الرجل لا يصح لمعالجة أمثال تلك الأمور الخطيرة[1] .

وفى نفس الوقت أرسل والى مصر مندوبا من قبله ويدعى يمنى أحمد أفندى إلى شبه جزيرة العرب لمقابلة أمير عسير والتفاوض معه سراً بشأن الوصول إلى اتفاق فيما بينهما ، على ألا يُعلن عن نتيجة تلك المفاوضات إلا إذا أسفرت عن نجاحها[2] ، حتى لا يضعُفَ مركزُه أمام شريف مكة وأمام الباب العالى .

ورغم جنوح أمير عسير للسلم ، فإن الباب العالى لم يسمح للقوات المصرية بالانسحاب من الأراضى الحجازية ، بل أصدر أمره بأن تظل تلك القوات مرابطة فى قنفذة ريثما يحسم الأمر بصفة نهائية ، فربما تتطور الأمور فجأة . ولا مناص إذن من بقاء القوات المصرية فترة أخرى من الزمن ، حيث لم يجد والى مصر بدا من الرضوخ لهذا الأمر[3] .

وقد خشى والى مصر من قيام اضطرابات أخرى فى قلب شبه الجزيرة العربية — وخصوصا وأن الأحوال فى اليمن كانت غيرُ مستقرة ، وكانت العلاقةُ بينها وبين الدولة العثمانية سيئة — مما قد يتعذر معه سحب القوات المصرية من الأراضى الحجازية . فانتهز الوالى فرصة تجمع تلك القوات فى ميناء جُدة ، وأخذ يُلحّ على الباب العالى فى سحب قواته بعد أن استقرت الأمور محتجا بأن بقاءَها خارج مصر فى مهمة حربية يُحمل الميزانية المصرية أموالاً إضافية وخصوصاً وأن جملة تكاليف الحملة قد بلغت حتى ذلك

---

(١) المصدر السابق .

(٢) محفظة سايرة بدون رقم . من الجناب العالى إلى اسماعيل صادق بك . وثيقة بدون رقم فى ١٩ جماد أول سنة ١٢٨٢ (أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى إلى الباب العالى . وثيقة رقم ١٤٦ فى ١٩ جماد أول سنة ١٢٨٢ (اكتوبر سنة ١٨٦٥) .

الوقت (أكتوبر سنة ١٨٦٥) أربعين ألف كيسه (٢٠٠,٠٠٠ جنيه[1]) .

وفى ٧ شعبان سنة ١٢٨٢ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٥) تلقى قائد القوات المصرية بالحجاز الأوامر من القاهرة بأن يشرع فوراً فى ترحيل الجنود النظامية إلى مصر أولا ، ثم تتلوها القواتُ غير النظامية[2] . وقد تم انسحاب القوات المصرية من الحجاز فى يناير عام ١٨٦٦ بعد أن أمضت حوالى السنتين دون حرب أو قتال .

وتقديرا لما قام به والى مصر من خدمات لفض هذا النزاع ، أرسل الباب العالى جميل باشا (أحد المعاونين العسكريين فى الديوان السلطانى) إلى مصر يحمل خطا شريفا يعبر فيه السلطان العثمانى عن شكره لاسماعيل على ما بذله من مساع موفقة لحسم مشكلة عسير دون إراقة دماء[3] . كما تبودلت التهانى أيضاً بين الباب العالى وشريف مكة[4] .

وفى ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٢ (يناير سنة ١٨٦٦) أرسل والى مصر اسماعيل يهنىء محمد بن عائض أمير عسير فأوفد من قبله إلى أمير عسير من يدعى أحمد أفندى اليمنى ليبلغه تهانيه ويبسط له تفاصيل السياسة المشتركة بينهما فى المستقبل[5]

ولم تشر الوثائق إلى كنه تلك السياسة التى اعتزم والى مصر تنفيذها بالاشتراك مع أمير عسير . كما أنى لم أعثر على وثائق لتلك الفترة تنير لى الطريق وتوضح السياسة العربية التى انتوت مصرُ السير عليها فى المستقبل . ولكن الأحداث التاريخية التى مرت بمصر فى السنوات القلائل التى تلت

---

(١) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى إلى كامل بك القبوكتخدا . وثيقة رقم ١٩٥ فى ١٠ جماد ثانى سنة ١٢٨٢ (١ أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

(٢) محفظة سايرة من الجناب العالى إلى اسماعيل صادق بك . وثيقة بدون رقم فى ٧ شعبان سنة ١٢٨٢ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦ فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٦٥ .

(٤) Aff. Etrang. Corr. Polit & Marie au Ministre No. 212 Djeddah 24 Oct 1865.

(٥) دفتر ٢٢ عابدين (بند متفرقات) من اسماعيل باشا إلى محمد باشا ابن عائض أمير عسير . وثيقة بدون رقم ص ٩٣ فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٢ (يناير سنة ١٨٦٦) .

ثورة عسير تبين لنا أن والى مصر لم يُولى السياسة العربية الخالصة اهتماماً كبيراً ، حتى لا يصطدم بالباب العالى وبالدول الأوربية كما حدث أيام محمد على . بل إن سياسة مصر فى ذلك الوقت قد اتخذت وجهة أفريقية ، ولو أن توسع مصر على الساحل الغربى للبحر الأحمر قد أدخل فى حوزتها مراكز عربية تجارية هامة مثل هرر وسواكن ومصوع وغيرها .

وإذا كانت سياسة مصر العربية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قد وجدت معارضة من قبل الحكومة الإنجليزية ، فإن سياسة مصر الأفريقية أيضاً لم تقابل من انجلترا بعين الارتياح وخصوصاً عندما بدأ النفوذ المصرى يتقدم على الساحل الصومالى نحو الجنوب . وظلت انجلترا تتحين الفرص للقضاء على امبراطورية مصر الأفريقية ، كما قضت على امبراطوريتها العربية من قبل . وقد واتتها الفرصة ، عام ١٨٨٢ حيث تمكنت من احتلال مصر ، ثم ارغامها على الانسحاب من السودان بعد ذلك بسنوات قلائل .

محمد محمود السروجى

دعوة حركات الإصلاح السلفى

بدأت هذه الدعوة ، فى العصر الحديث ، بالدعوة التى قام بها محمد بن عبد الوهاب فى نجد وأطلق عليها اسم الحركة الوهابية .

إذا كنا قد استعملنا كلمة وهابية فى هذا المقال فليس معنى ذلك أن الـكلمة تدل دلالة صحيحة على حركة الإصلاح الدينى التى قامت فى الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر . والحق أنها كلمة أطلقها الخصوم على هذه الحركة ليشعروا بأنها مذهب جديد من المذاهب الدينية فكما تنسب الطرق الصوفية مثلا إلى أسماء مؤسسيها نسب الخصوم مجموعة الآراء التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده .

أما أنصار الدعوة فى بلاد العرب وخارجها فيرفضون هذه التسمية ويؤثرون أن يسموا أنفسهم بالموحدين أو بالمسلمين ، تمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التى هى فى رأيهم مبادىء الإسلام الأولى الصحيحة . وكان هذا فى الفترة الأولى من تاريخهم التى تميزت بالتشدد. أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين كما يؤكد ذلك صراحـة ، قانون الحجاز الصادر سنة ١٩٢٦ أى عند ضم هذا الإقليم إلى الحـكم السعودى ، فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمى هو المذهب السلفى .

وليست المبادىء الدينية التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب جديدة فى تاريخ الفـكر الإسلامى ، فـكلنا يعرف ــ ويعترف بذلك علماء نجد أنفسهم ــ أنه استقاها من أحد مشاهير الحنابلة تقى الدين بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وتلميذه ابن قيم الجوزية . والجدير بالبحث هو كيف انتقلت هذه الأفـكار إلى بلاد نجد المنعزلة عن العالم الإسلامى وبعد انقضاء فترة طويلة تبلغ نحو

أربعة قرون على موت هذين العالمين . خاصة وأن تيارات مضاده لتعاليمهما سيطرت على الحياة العقلية الإسلامية طوال هذه الفترة . وأهم هذه التيارات بلا شك هى :

أولا : الطرق الصوفية وما أحدثته فى المجتمع الإسلامى من تقاليد وأفكار تبعد كل البعد عن حياة المسلمين فى عصورهم الأولى .

ثانيا : جمود الدراسات الدينية حتى تحولت إلى مجرد جمع أحكام المتأخرين فى كل مذهب وهى أحكام بنيت فى الغالب على الاستنباط دون محاولة ردها إلى نصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، وأن كان هذا لا يعنى بالضرورة تعارض الأحكام مع النصوص وإنما يصر السلفيون على أن يطمئن كل قاض إلى سلامة حكمه من الناحية الدينية .

على أن غموض تاريخ نجد فى الفترة السابقة لدعوة ابن عبد الوهاب قد يجعل من الصعب إيجاد الحلقة ما بين ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب . ولكن بتدقيق النظر فى تاريخ عثمان بن بشر ، أشهر[1] مؤرخى الدولة السعودية الأولى ، نستطيع أن نستنتج أن مذهب الحنابلة كان هو المذهب الغالب فى بلاد نجد منذ القرن العاشر الهجرى ، فى الوقت الذى كان فيه هذا المذهب ضعيفاً فى جميع الأقطار الإسلامية الأخرى . وهكذا كان قضاة الإمارات الصغيرة المتعددة فى نجد ينتمون إلى مذهب ابن حنبل، كما أن كتب التراجم لا تذكر عالما حنبليا فى القاهرة أو دمشق دون أن نجد من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين .

ولكن هذا يكفى لتفسير ذيوع تعاليم بن تيمية بالذات فى نجد فى القرن الثامن عشر ، ففى هذا العصر كان التيار العام الواقع تحت تأثير المتصوفة قد جرف الفقهاء الحنابلة فنجد أنهم أهملوا مؤلفات ابن تيمية وعكفوا على الكتب المدرسية مثل كتاب (منتهى الايرادات) فى الفقه الحنبلى وانخرط

---

(١) اسم هذا التاريخ عنوان المجد فى تاريخ نجد وقد نشر بمكة سنة ١٣٠٢ فى مجلدين .

كثير منهم فى الطرق الصوفية المنتشرة حينئذ . وقد استطعنا رغم هذا أن نستدل على أن حنابلة نجد ظلوا محتفظين بنزعة ابن تيمية إلى تطهير العقيدة من المحدثات بدليل ظهور فقهاء من بينهم مثل عثمان بن أحمد النجدى المتوفى سنة ١٠٩٦ هجرية تركوا بعض المؤلفات التى تنم عن هذه النزعة . ونذكر على سبيل المثال من مؤلفات عثمان النجدى كتاب (التوحيد المنتخب من فتح البارى[1]) . وكتاب (نجاة الخلف فى اعتقاد السلف) وأن كان هذا الأخير قد فقد إلا أن عنوانه له مغزى واضح . ويبدو أن هذه النزعة كانت منتشرة فى بلاد العرب بصفة عامة . فقبيل ظهور محمد بن عبد الوهاب نجد أحد الشوافع فى صنعاء واسمه اسماعيل الصنعانى يؤلف كتاب « تطهير الإعتقاد » وهو يتفق تماما مع تعاليم محمد بن عبد الوهاب الذى حاول الاتصال به .

من هو مؤسس الدعوة الوهابية :

ولد محمد بن عبد الوهاب فى إحدى واحات نجد الوسطى وهى واحة العيينة الواقعة فى أقليم العارض سنة ١١١٥ هجرية أو سنة ١٧٠٣ م . وكما هى العادة فى ذلك الوقت وجه الابن إلى نفس الميدان الذى يعمل فيه والده الذى كان يشغل منصب قاضى الواحة . وجل معلوماتنا عن حياة محمد بن عبد الوهاب مستقاة من مؤلفات أتباعه وخاصة تلميذه حسين بن غنام النجدى . صاحب كتاب (روضة الأفكار والافهام فى تاريخ أحوال الامام وتعداد غزوات ذوى الإسلام) وقد نشر هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٤٩ ويقع فى مجلدين .

ولذلك فان المتتبع لسيرة « الشيخ » يلاحظ أن أنصاره حاولوا أن يوجدوا شبها بينها وبين سيرة النبى ؛ فهو قد أظهر ذكاء غير عادى منذ طفولته الأولى فرحل إلى المدينة لطلب العلم فى سن الثانية عشرة وما

---

(٢) هذا الكتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٩٢٩ (علم الكلام) .

لبث أن بزّ أساتذته هناك ، فاستأنف الرحلة إلى البصرة حيث لم يشتهر بالتفوق العلمى فحسب ، بل بجرأته فى نشر مبادئه التى بدأت تختمر فى ذهنه ، فأخذ يهاجم رجال الطرق ومشايخ الشيعة الموجودين بالبصرة مما أدى إلى وقوع بعض حوادث الشغب ، فطرده الوالى العثمانى من المدينة ، وفى طريق عودته إلى نجد كاد يهلك فى الطريق لولا أن وقع ما يشبه المعجزة إذ وجده أحد المارة ، فحمله على دابته وسقاه الماء بعد أن كاد يموت عطشا .

وفى واحة العيينة عاد الشيخ يظهر دعوته فى نشاط أوسع ، فجمع حوله عدداً من الأنصار ، أخذ يتزايد إلى حد أخاف حاكم الواحة الذى كان فى نفس الوقت أمير الأحساء . ويطرد الشيخ مرة أخرى فى سبيل دعوته وتحدث له معجزة تذكر بحوادث هجرة النبى من مكة إلى المدينة . فقد أرسل حاكم العيينة من يتتبع الشيخ لقتله ، ولكنه حين هم بتنفيذ خطته أراه الله منظراً مخيفا جعله يرد السيف إلى جرابه . وهكذا وصل محمد بن عبدالوهاب سالما إلى واحة الدرعيه . حيث قيض له أن يعيش طويلا إلى سنة ١٧٩٢ ، ويرى بنفسه انتشار دعوته فى أقليم نجد بأسره وأن كان الدور الأول فى نشر الدعوة قد أنتقل من يده إلى يد الأسرة الحاكمة فى الدرعية اسرة آل سعود وتحولت أهميتها من الجانب الدينى إلى الجانب السياسى .

ورغم هذا التحول فان المؤرخين يخلطون دائما بين تاريخ محمد بن عبد الوهاب والتطور السياسى والعسكرى للدولة السعودية الأولى وقد نتج عن هذا الخلط أن وصف بعض المؤرخين ، وخاصة المستشرقين ، الدولة السعودية الأولى خطأ بأنها دوله ثيقراطية وفى رأيى أن السعوديين — وإن كانوا قد أهتموا فعلا بنشر دعوة الإصلاح الدينى إلا أنهم لم يكونوا فى يوم ما خاضعين لسلطة القائمين بها . كما أن الدولة الثيقراطية فى النظام القديم تعتمد على منح صفة القداسة للرجال القائمين بالحكم ، ومن الواضح أنه لم يدّع هذه الصفة لا محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ولا آل سعود أو خلفاؤهم . وكل ما يميز الدولة السعودية عن غيرها من الدول الإسلامية القائمة

فى العصور المتأخرة هو أنها تبرر وجودها برغبتها فى تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا كاملا ، وهى سياسة مستمدة من طبيعة الإسلام نفسه .

ورغم أن مناصب القضاء والإفتاء فى المملكة السعودية ظلت فى الغالب بين أيدى أحفاد محمد بن عبد الوهاب إلا أن مشاركة هؤلاء فى الحياة العامة أخذت تتضاءل وليس من تقاليد الحكم السعودى أن يميز هذه الأسرة ، اى أسرة الشيخ ، بصفتها ذات مركز دينى يختلف عن أى أسرة أخرى تتمسك بأهداب الشريعة . وإذا كان محمد بن عبد الوهاب قد ترك فى التاريخ السياسى أثراً كبيراً يفوق ما كان ابن تيميه يتمناه لنفسه ، فإنه من الناحية العقلية البحتة يأتى متخلفاً بكثير عن العالم الحنبلى الشهير . ولا يمكن القول بأن محمد بن عبد الوهاب صاحب مذهب متكامل فى الفقه أو علم الكلام ، وانما تقتصر كتاباته على رسائل قصيرة وتتسم بطابع الوعظ الأدبى ويتخللها كثير من الآيات والأحاديث ، إلى حد أن تصبح أحياناً مجرد جمع للنصوص . ولذلك فإن الباحث فى تفاصيل الدعوة السلفية لابد أن يعتمد قبل كل شىء على تلاميذ الشيخ ، وأكثرهم كما ذكرنا من بين أولاده وأحفاده .

وأشهر هؤلاء هو عبد الرحمن بن حسن الذى عاصر حملة إبراهيم باشا فى نجد وأخذ أسيراً فى القاهرة حيث أكمل تعليمه فى الأزهر . وحمل معه مكتبة نفيسة إلى نجد حين عاد إليها سنة ١٢٤٥ هجرية بعد تأسيس الدولة السعودية الثانية . وكذلك لابد من ذكر إبنه عبد اللطيف بن عبد الرحمن الذى عاصر الخلافات الداخلية فى الدولة السعودية الثانية وشاهد اندثار هذه الدولة ، مما كان له أكبر الأثر فى اعتناقه لمبادىء متشددة . لأننا نعتقد أن الأحوال السياسية التى تبدلت طوال الحكم السعودى قد أثرت على طبيعة الدعوة الدينية .

وفى العصر الحديث يشتهر فى نجد سليمان بن سحمان بكثرة رسائله وتعدد الموضوعات التى تناولها بما فى ذلك المشاكل الكلامية التى كان يتحرز

سابقوة عن الخوض فيها . وقد جمعت رسائل علماء الوهابيين ومؤلفاتهم فى مجموعتين كبيرتين نشرت المجموعة الأولى فى القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ . فى أربع مجلدات باسم (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية) وقد نشرتها مطبعة المنار التى كانت تعمل لنشر مبادىء الإصلاح الدينى فى مصر فى الوقت الذى انتشرت فيه الدعاية ضد هذا الإصلاح بواسطة الأسرة الهاشميه . وهى حينئذ على خصومة شديدة مع السعوديين الذين أخرجوهم من حكم الحجاز سنة ١٩٢٦ ميلادية . أما المجموعة الثانية فهى تحتوى على نفس المواد ولكنها مرتبة على حسب الموضوعات وتعرف باسم الدرر السنية فى الأجوبة النجديه وقد نشرت بمكه سنة ١٣٥١ هجريه .

خصائص الدعوة السلفية :

سبق أن ذكرنا أن الوهابيين يسمون أنفسهم بالموحدين وليس فى عقيدة التوحيد ما يميز فرقة اسلامية عن أخرى . إذ أن أساس الإسلام نفسه هو الإيمان بوحدانية الله . ولكن تصور هذه الوحدانية قد يختلف من جماعة إلى أخرى ، فالمعتزلة كانوا يسمون أنفسهم بالموحدين ولكن التوحيد عندهم هو الإعتقاد بوحدة ذات الله مع صفاته . ويدعو كذلك كثير من المتصوفة إلى الوحدانية ، ولكنهم يقصدون بها وحدة الوجود ، بحيث لايتميز خالق الكون عن الكون نفسه ، أما الوهابيون فلا يعنيهم البحث عن طبيعة الذات والصفات كما هو الحال بالنسبة للمعتزله وينكرون على المتصوفة عقيدتهم هذه فى الوحدانية . وعندهم أن الوحدانية التى تكون العنصر الأساسى للدين الإسلامى هى الوحدانية التى تترتب على سلوك الموحد وهو ما يسمونه بوحدانية الربوبية ، أى أن المؤمن لايكون موحداً الا إذا قصر عبادته على كائن واحد ، وهى غير وحدانية الألوهية التى هى الإعتقاد بوجود إله واحد .

ولما كانت العبادة تشمل فى رأى الوهابيين جميع مظاهر التبجيل مثل

الدعاء والاستغاثه فان تصرف الغالبية العظمى من المسلمين حينئذ نحو الأولياء، بل والنبي نفسه يمكن وصفه — في رأي الوهابيين — بأنه عمل مخالف للتوحيد أو يمكن وصفه بالشرك . ولو أن الوهابيين ينفون عن أنفسهم أتهام غالبية المسلمين بالشرك ، إلا أن تاريخهم فى الفترة الأولى ، يدل على أنهم برروا سياستهم القائمة على محاربة جميع الدول الإسلاميه المجاوره بهذا التسلسل المنطقى الذى يؤدى إلى وصف عدد كبير من المسلمين بالشرك . ومعروف إلى أى حد كان العامة يتعلقون بأشخاص الأولياء ومقابرهم حتى عصر قريب جداً . ومن الأسباب التى قدمها الوهابيون لأثبات كفر بعض الجماعات الإسلاميه إهمال كثير من المسلمين فى ذلك الوقت لتأدية الفرائض الدينيه . وهم فى ذلك لايختلفون عن كثير من الفقهاء المعترف بهم ، إلا أنهم أختصوا بمحاولة إخراج هذه المبادىء إلى حيز التطبيق العملى ، ومع ذلك لانجد أمثلة فى تاريخهم تدل على أنهم قتلوا شخصاً معينا لامتناعه عن تأدية الصلاة مثلا .

والمشكلة الثانية التى اثارت جدلا بين الوهابيين وخصومهم تتعلق بموضوع أصول الفقه . فقد أراد دعاة الإصلاح الدينى أن يرجع الفقهاء والقضاة إلى المصادر الأصلية رأساً وهى عندهم ثلاثة أبواب : القرآن ، والحديث ، واجماع المسلمين على حكم معين إلى آخر القرن الثالث الهجرى . ويترتب على هذا أن يكون لجميع الدارسين المعترف بهم حق الأجتهاد فى الفقه وهو حق كان محظوراً استعماله منذ زمن طويل ، كما تعارف عليه فقهاء العصور المتأخرة . وقد ذهب الوهابيون فى إطلاق هذا الحق إلى أنهم دعوا إلى عدم التقيد بمذهب من المذاهب الأربعة المعروفه ، وانما يجوز لكل قاض أن يأخذ من أى مذهب مايرى أنه أقرب إلى النصوص المقدسه الأولى ، ولم يبيحوا التقليد الا عند العجز عن الرجوع إلى هذه النصوص .

ولكن عند التطبيق العملى تبين أن القضاة يصدرون أحكاماً متفاوتة فى الحالات المتشابهة ، ولذلك أصدر الملك عبد العزيز آل سعود

سنة ١٣٤٥ هجرية مرسوماً بالزام القضاة اتباع المذهب الحنبلى . ثم اتبع ذلك بمرسوم آخر حدد فيه للمحاكم السعودية المراجع التى يجب على القضاة التقيد بها ومعظمها من بين مؤلفات الفقهاء المتأخرين[1] مثل كتاب منتهى الايرادات لموسى الحجاوى المتوفى سنة ٩٦٣ هجرية .

أما مسائل الخلاف التقليدية التى كانت مثار الفرقه بين المذاهب الإسلامية المختلفه كمسألة الذات والصفات والجبر والإختيار فإن الوهابيين ينكرون التحدث فيها ، ولم يهتموا بماقشة الفرق التى أختفت كهئية قائمة مثل المعتزلة والمرجئه الخ . لذلك احتدم النزاع بينهم وبين الفرق التى ظلت تلعب دوراً إجتماعيا وسياسيا فى العالم الإسلامى حتى قيام الوهابيين . وأعنى بهذه الفرق المتصوفة اولا والشيعه ثانيا . ولم يقف الخصومة بين هؤلاء عند مجرد المجادلات النظرية بل تجاوزتها إلى القتال المسلح ، فقد تعمد الوهابيون مثلا الغارة على مدينة كربلاء فى العراق سنة ١٨٠٢ ميلاديه ، وانتقموا هناك من علماء الشيعه وحملوا نفائس قبر الحسين إلى نجد معتقدين انهم فعلوا ذلك جهاداً فى سبيل الله .

وقد اشتهر الوهابيون ببعض المبادىء الطهرية مثل تحريم الدخان ولبس الحرير والذهب ، لكن مثل هذه المبادىء ليست أساساً فى المذهب بعكس ما يشيع بين الناس ، فمثلا لم يحرموا شرب الدخان لتعنت أو تصلب فى الدين كما يشيع الخصوم . ولكن كما يذكر الوهابيون أنفسهم لأن شرب التنباك بكثرة قد يسكر . وقد وصف بيلى أحد الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر دخان بلاد العرب بأنه أقوى ثلاثين مرة من دخان فرجينيا ، مما يجعلنا ننظر إلى قول الوهابيين دون الإحساس بالسخرية .

وليست آراء الوهابيين قاصرة على الأمور الدينية البحته بل لعل أهم ما أكتشفناه فى مجموع تعاليمهم هو ما يمكن تسميته بالآراء السياسية الدينية

---

(١) أنظر البلاد العربية السعودية لفؤاد حمزه ص ١٨٩ وما بعدها .

فقد كان الوهابيون أول من دعا إلى فكرة العروبه فى العصر الحديث ، وأن لم تكن الفكرة قائمة على أساس قومى بقدر ما كانت قائمة على أساس دينى ، فقد صرحوا بأن العرب أفضل من الترك ، ولكن على أساس أن الترك أقل أتباعاً لتعاليم الإسلام من العرب[1] . وكذلك قالوا أن مكة تحت الحكم التركى تعتبر من بلاد الكفر . وأن العثمانيين أغتصبوا الخلافه وأنها إن وجدت فالعرب أحق بها .

على أن سياسة الدولة السعودية الأولى تثبت أنه كان هناك فكرة أولية عن معنى القومية ، لاقومية نجدية أولا ، ثم تطورت إلى فكرة قومية عربية . والعرب فى مفهوم السعوديين الأوائل كانوا هم سكان شبه جزيرة العرب دون بلاد الشام أو مصر ، رغم أن أهلها يتكلمون العربية . فهو مفهوم قائم على الوحدة الجنسية . ويدل على هذه السياسة أنهم كانوا منذ قيامهم من الدرعية بحركة التوسع يتوقون إلى توحيد نجد تحت حكمهم ، فلما تم لهم ذلك أصبحت نجد أشبه بوطن للدعوة الوهابية ، بحيث كان الوصف بنجدى يعنى الوصف بوهابى فى كثير من الأحيان . وقد رأينا أن الرسائل الوهابية تعرف بإسم الرسائل النجدية .

فلما أتسع سلطان السعوديين وشمل معظم الجزيرة العربية ، وأصبحت الدولة العثمانية هى خصمهم الأول رأينا هذه القومية المحلية تتحول إلى فكرة قومية عربية بمعنى أوسع من نجد ، ونتيجة لهذا نلاحظ أن كثيراً من قبائل الشام والعراق قد رحبت بالحكم السعودى لأحساسها بأن هناك وحدة جنسية ولغوية تجمع بينها وبين الدولة العربية الناشئة .

وقد تصور الوهابيون أن الأمة الإسلامية هى مجموعة المدن والقبائل التى خضعت للحكم السعودى ولذلك نجد من أغرب الآراء السياسية الدينية تلك التى تتعلق بموضوع انتقال السكان إلى خارج المنطقة التابعة للدولة .

---

(١) انظر الدرر السنية ج ١ ص ١٥٠ .

فبينما يلزم الوهابيون اتباعهم الذين آمنوا بالدعوة بترك ديارهم إذا كانت واقعة خارج الحكم السعودى إلى داخل حدود الدولة ، ويسمون ذلك بالهجرة الواجبة، نجد أنهم يحرمون الإنتقال من داخل الدولة إلى المناطق الواقعة خارج حدودها لغير غرض التجارة وقد شهد الرحالة برخارد[1] وهو خير من كتب عن الوهابيين وتاريخهم بأن الوهابيين ينفذون هذه القاعدة.

ويعتبر الوهابيون من أشهر الناس تمسكاً بضرورة قيام إمامة للأمة الإسلامية. والإمامة عندهم غير الخلافة ، فهى لاتتضمن صفه العموم بالنسبة للعالم الإسلامى ، والخلافة العامة لم تدم فى رأى الوهابيين أكثر من ثلاثين سنة . ثم تحولت الرئاسة فى عهد عثمان بن عفان إلى مُلكٍ . ومنذ ذلك التاريخ يمكن الإعتراف بعدة أئمة فى وقت واحد . ولا يشترط فى الإمام النسب القُرشى كما هو الحال بالنسبة للخلافة . ولما كانت الإمامة ضرورة جماعية للمحافظة على مصلحة الجماعة الإسلامية فإن الوهابيين يقبلون جميع الوسائل التى يستطيع بها الإمام أن يقر الحكم فى الجماعة ، سواء أكانت هذه الوسائل قائمة على البيعة أو التوارث أو تعيين الإمام لخليفته أو حتى استعمال القوة ، وهو مايسميه الوهابيون القهر . وكما يعتقد الوهابيون بوجوب الطاعة على الأمة فإنهم كذلك يجعلون نصيحة الأمام واجبة على كل فرد يحس فى نفسه القدرة على ذلك[2] .

التاريخ السياسي في الجزيرة العربية :

لعل قيام دولة موحدة فى الجزيرة العربية ، هى أهم النتائج التى ترتبت على دعوة الإصلاح الدينى أو كما قلنا من قبل ، أن الجانب السياسى للحركة

(١) زار هذا الرحالة السويسرى بلاد العرب سنة ١٨١٤ م . ونشر كتابه .
Notes on the bedouins and Wahabis. London 1829.
(٢) يعتبر كتاب « توضيح الخلاق فى الرد على أهل العراق » . لسليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب أهم مرجع للآراء السياسية .

الوهابية هو الذى يعطيها الأهمية الظاهرة فى التاريخ الإسلامى الحديث، أكثر مما يكسبها الجانب الدينى. فمنذ انتقال مركز الخلافة من داخل بلاد العرب إلى الشام والعراق فى القرن الأول الهجرى ظلت هذه المنطقة خاضعة للمنازعات القبلية إلى أن وحدتها فى أواخر القرن الثامن عشر الدولة السعودية الأولى. وقد مر تاريخ السعوديين بثلاثة أدوار رئيسية:

الدور الأول:

من ١٧٤٤ إلى ١٨١٨ — ويعتبر اتفاق محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود فى الدرعية سنة ١٧٤٤ إيذانا لمولد الدولة الجديدة. ويروى لنا الألوسى[1] كيفية وقوع الاتفاق بين الرجلين: فيبين أن محمد بن عبد الوهاب تنبأ منذ ذلك الوقت لابن سعود بملك نجد بأسره ويقول (فلما تحقق محمد بن سعود من المصالح الدينية والدنيوية مد يده إلى الشيخ مبايعا) وقد واجه أمير الدرعية أقصى مرحلة فى تاريخ السعوديين أثناء محاولة توحيد نجد تحت حكمه إذ أن كل واحة من واحاتها كانت تعتبر وحدة سياسية مستقلة هذا بالنسبة للحضر، أما البدو فكانوا يتبعون النظام القبلى ولا يخضعون لأى سلطة سياسية. وكان على محمد بن سعود أن يحتل جميع الواحات احتلالا عسكرياً من جهة، وأن يضطر القبائل البادية إلى الاعتراف بسيادته من جهة أخرى.

وإذا عرفنا أن واحة الرياض وهى من أكبر واحات نجد فى ذلك الوقت ظلت تقاوم غزوات أمير الدرعية مدة ثلاثين سنة، أدركنا إلى أى حد واجه بن سعود عقبات عسيرة. لذلك لم يتم توحيد نجد إلا فى عهد ابنه عبد العزيز سنة ١٧٨٦ ميلادية أو سنة ١٢٠٠ هجرية. أى بعد أكثر من أربعين سنة منذ مبايعة محمد بن عبد الوهاب فى الدرعية.

لم تتنبه الدولة العثمانية إلى خطورة الحركة الناشئة إلا بعد أن تمت

---

(١) تاريخ نجد الحنبلى ص ١١٠، ١١١.

المرحلة الأولى فى توحيد بلاد نجد . واستأنف السعوديون توسعهم شرقا فى إقليم الأحساء وغرباً فى إقليم الحجاز . ذلك أنه رغم وقوع بلاد العرب بأسرها نظريا تحت السيادة العثمانية إلا أن السلطة الفعلية للحكومة المركزية لم تتجاوز يوما ما الأماكن المقدسة فى الحجاز ، وبعض مدن الأحساء الكبيرة . مثل الحفوف ، وموانىء الخليج الفارسى . وعندما بدأ السعوديون بمهاجمة مدن الأحساء ، كانت الحكومة العثمانية قد تركت إدارتها لقبيلة عربية قوية ، هى قبيلة بنى خالد وجعلتها تحت إشراف والى بغداد .

ومع ذلك فقد ترك الوالى رؤساء بنى خالد يتولون الدفاع بأنفسهم عن الأحساء ، إلى أن بسط الوهابيون نفوذهم عليها ، وأقاموا حاميات فى مدنها وأخضعوا القبائل البحرية التى تسكن سواحل الخليج الفارسى . وكانت أول حملة وجهها العثمانيون ضد الدولة العربية الجديدة هى تلك التى جهزها والى بغداد سليمان باشا سنة ١٧٩٧ ميلادية . فنزلت فى ميناء القطيف وتقدمت حتى مدينة المبرز وهنا واجه العثمانيون صعوبة حرب الصحراء ، إذ لم يتمكنوا من تموين جيوشهم وراء خطوط طويلة وثبت عجزهم عن القيام بأى حصار طويل للمدن السعودية . وعلى أثر فشل هذه الحملة بدأ الوهابيون يطمعون فى الزحف على جنوب العراق ، وشجعهم على ذلك أن القبائل النازلة فى هذه المنطقة كانت على نزاع دائم مع والى بغداد إلى حد أن هذا الوالى فكر سنة ١٧٩٩ م فى عقد صلح مع السعوديين حتى يضمن مرور قوافل الحج من العراق إلى الحجاز عبر نجد .

ولكن المشكلة كانت أكبر من مجرد السماح لمرور قوافل الحجاج . فإن الأماكن المقدسة نفسها كانت مهددة بالاحتلال السعودى لأن شريف مكة صاحب السلطة الفعلية بالحجاز كان يتولى وحده الدفاع عنها . وكانت سياسة الشريف القائم حينئذ وهو غالب بن سرور تبعد القبائل الحجازية عن صداقته لأنه كان شحيحا ولا يشركها فيما يحصله من الأرباح الوفيرة التى تحققها له مواسم الحج . لذلك بعد أن انضمت هذه القبائل إلى الحكومة

السعودية تمكن سعود بن عبد العزيز من دخول مكة فاتحا سنة ١٨٠٣ م ، (١٢١٨ هجرية) . وكان ذلك صفعة قوية فى وجه الحكومة العثمانية أمام العالم الإسلامى إذ ثبت عجزها عن تأدية وظائفها كحكومة للخلافة الإسلامية عليها واجب تأمين طرق الحج .

وقد ترتب على استيلاء السعوديين على الحجاز ، أن انقطعت قوافل الحج من مصر والشام وأنحاء العالم الإسلامى المختلفة لأن السعوديين فى ذلك الوقت كانوا يعتبرون سكان هذه البلاد التى لم تدخل فى حكمهم من المشركين أو على الأصح كان أهل هذه البلاد غير مستعدين لاحترام قواعد الإصلاح الدينى أثناء قيامهم بشعائر الحج . ولذلك لم يسمح لهم السعوديون بالدخول إلى الأماكن المقدسة مما كلف أهل الحجاز خسارة مادية علاوة على انقطاع المساعدات التى كانت تصلهم من الأوقاف فى الولايات العثمانية .

والحق أن الدولة السعودية الأولى قد أثارت بتصرفها هذا غضب العالم الإسلامى وإن كان لعدائها للدولة العثمانية ما يبرره . ومن الواضح مثلا أنه كان من المستحيل السماح لقوافل الحج العثمانية الرسمية بالدخول إلى البلاد السعوديه ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولتان فى حالة حرب مستمرة . وقد وصلت الدولة السعودية أوج عظمتها سنة ١٨١٠ ميلادية حين امتد نفوذها على بادية العراق والشام . ويذكر لنا قناصل الدول الغربية فى بغداد وحلب ، أن القبائل التى تسكن حول هذه المدن كانت تخضع للسعوديين وأن سكانها كثيراً ما روعوا بذيوع أنباء عن غزو السعوديين المرتقب لبغداد أو دمشق أو حلب . ومما زاد فى خطورة الحركة السعودية بالنسبة للعثمانيين أنها لم تكن مجرد ثورة سياسية على الحكم العثمانى كما اعتادت الأستانة فى ثورات الباشوات ولكنها كانت حركة دينية تنكر على العثمانيين سلطتهم الشرعية .

ولم تكن الدولة العثمانية هى الدولة الكبرى الوحيدة التى احتكت بها

الدولة السعودية الأولى . فإنه بعد أن وطد السعوديون سلطتهم على سواحل الخليج الفارسى وانضمت لهم القبائل التى كانت تعيش من القرصنة البحرية . أصبحوا هم المنظمين لهذه الأعمال البحرية التى تجيزها تقاليد ذلك العصر . ولوحظ أنه بعد أن أحست القبائل باستنادها إلى دولة قوية كالدولة السعوديه تشجعت على مهاجمة السفن البريطانية التى تتردد على مياه الخليج . وكانت من قبل تخشى العالم البريطانى وتقصر قرصنتها على السفن العربيه التابعة للبحرين أو مسقط . بل واستطاعت أن توسع من ميدان نشاطها ، فيسجل لنا مؤرخ البحرية الهنديه لو (Law) أن القبائل التابعة للوهابيين هاجمت سنة ١٨١٨ ميلاديه سفينه بريطانية على بعدستين ميلا من ميناء بومباى . وقد ترتب على هذا أن قام الأنجليز بأول حملة بحرية فى الخليج الفارسى سنة ١٨٠٩ م . ثم وطدوا نفوذهم بحملة أخرى سنة ١٨١٩ م وذلك بأن تحالفوا مع الأمارات التى كانت تخشى ابتلاع السعوديين لها ، وخاصة أمارات مسقط والبحرين والكويت . ويبدو أنه فى الوقت الذى بدأ فيه محمد على حملته الكبرى ضد السعوديين من الغرب لم تخف وطأة الأعمال البحرية فى الشرق ضد الأنجليز كما يدل تاريخ البحرية الهندية .

ومن المعروف أن محمد على قد حقق ما عجز عنه ولاة دمشق وبغداد من القضاء على الدولة السعودية الأولى بالحملات المتعددة التى استمرت سبع سنوات من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٨ م . والتى كلفت الشعب المصرى كثيراً من التضحيات فى المال والرجال . ولو قرأنا للمؤرخ المصرى المعاصر عبد الرحمن الجبرتى . للاحظنا أن قسما من الرأى العام المصرى كان يعطف على حركة الأصلاح الدينى . ويفضل الوهابيين على الأتراك والألبانيين الذين يضطهدون هذا الشعب[1] . وإذا كان محمد على قد نجح فى القضاء على السعوديين كسلطة سياسية ، فإنه فشل تماماً فى التقليل من نفوذ الدعوة الدينيه التى كان السعوديون رمزاً لها على الأقل فى أقليم نجد . لذلك ما كاد

---

(١) تاريخ الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٤ .

يخلى هذا الأقليم سنة١٨١٩ حتى تهيأت الظروف لقيام دوله سعودية جديدة .

الدور الثانى :

ظلت الدولة السعودية الثانية محصورة فى أقليم نجد ولم تستطع استعادة نفوذ الدولة الأولى لعاملين :

أولا : أن محمد على لم يكف عن محاولاته لبسط سيطرته على الجزيرة العربية . حتى سنة ١٨٤٠ م .

وثانيا : لوقوع خلافات عنيفه بين أعضاء الأسرة على تولى الحكم بعد وفاة الشخصية الكبيرة فى هذا الدور وهى شخصية فيصل بن تركى سنة ١٨٦٧ م .

وعندما أسس تركى بن عبد الله هذه الدولة سنة ١٨٢٢ م كانت الدرعية قد حطمت . فاتخذ من الرياض عاصمة لحكمه واستطاع أن يستولى على الأحساء فترة قصيرة . وقد بدأت هذه الدولة تضعف بشكل واضح بعد وقوع النزاع بين عبد الله وسعود بن فيصل . والتجاء سعود إلى الأتراك لمعاونته مما شجع هؤلاء على أرسال حملات إلى بلاد العرب سنة ١٨٧٠ م . وتحويل الدولة السعودية من دولة مستقلة إلى أمارة تابعة للسيادة العثمانية . إذ أصبح سعود بن فيصل متصرفا من قبل العثمانيين على أقليم نجد . وعندما حاول أخوه عبد الله الانفصال عن الدولة العثمانية . عجز عن مواجهة آل الرشيد الذين كانوا يتولون شمال نجد من قبل العثمانيين أيضا . وبمعاونة الاتراك استطاعوا أن يقضوا على الحكم السعودى من نجد سنة ١٨٩٢ م .

الدور الثالث :

عندما قام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بغارته الشهيرة على الرياض سنة ١٩٠١ م ، كانت الاسرة السعودية تعيش لاجئه عند أمير

الكويت مبارك الصباح . ولذلك يعد بناء المملكة السعودية الحديثة ثمرة لكفاح الملك عبد العزيز الشخصى . ولعل هذا ما أثار أعجاب معظم المؤلفين الذين كتبوا عنه باللغة العربية أو باللغات الأجنبيه ، وهم ليسوا بقليل . ولا نستطيع أن نتتبع ادوار نضال الملك عبد العزيز لأعادة بناء حكم السعوديين فى نفس الحدود التى بلغتها الدولة السعودية الأولى . ويكفى أن نشير إلى أنه أتم هذا العمل فى خمس وعشرين سنة مابين سنة ١٩٠١ ، سنة ١٩٢٦ ميلادية .

وقد كان عبد العزيز معرضا للوقوع فى الأخطاء التى وقعت الدولة الأولى فيها وهى الأخطاء التى اثارت عليها الدول المجاورة . وفى ذلك الوقت كان الإنجليز قد حلوا محل الدولة العثمانية فى السيطرة على العراق وشرق الأردن بالإضافة إلى أمارات الخليج . فقد كانوا فى الحقيقه هم الحائل المادى الذى أوقف حركة التوسع السعودى فى القرن العشرين . ولما كان الملك عبد العزيز قد اعتمد فى بناء ملكه على نفوذ دعوة الإصلاح الدينى بين سكان نجد فقد كان عليه أن يحافظ على تعاليم الدعوة كما رأيناها فى القسم السابق . أى أنه كان ملزما بصفته إماماً ، بنشر الدعوة بالقوة فى جميع الأقطار الإسلامية المجاورة . أو على الأقل ، فى عدم التعاون معها لأنها لاتلتزم بتعاليم الإصلاح الدينى .

وقد كان هناك فعلا تيار قوى يضغط عليه لاتباع هذه السياسة . وتمثل هذا التيار فيما يعرف بجماعة الأخوان وهم البدو الذين أقام لهم عبد العزيز قرى زراعيه بعد أن قام بحفر آبار ارتوازية فى نجد وشمال الحجاز وشجعهم بأسم الإصلاح على ترك حياة البداوة والإستقرار فى هذه القرى الزراعيه . وقد بلغت هذه القرى حسب تعداد جريدة أم القرى سنة ١٩٢٦ م مائتى قرية تضم نحو ثلث سكان نجد . وكان الإخوان بمثابة الجيش العامل فى خدمة الملك فبفضلهم استطاع فتح الحجاز سنة ١٩٢٥ م . وعسير فيما بعد .
وكان الأخوان يريدون إملاء سياستهم التى ترمى إلى غزو العراق والكويت

على الملك . دون مراعاة أو فهم للظروف الدولية الجديدة . فلما حاول عبد العزيز منعهم من التمادى فى هذه الأعمال العدوانية . أعلنوا خروجهم عليه . ولولا أنه استعان بوسائل الحرب الحديثة . لما استطاع القضاء على ثورتهم الهائلة سنة ١٩٣٠ م . ويمكن القول انه بعد اختفاء حركة الإخوان ضعفت أهمية الحركة الوهابية كعامل دينى يؤثر فى سياسة الحكومة السعودية . وانحصر نفوذها فى ميدانى القضاء والتعليم . إذ ما زالت كتب بن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية فى المملكة العربية السعودية .

أثر حركة الإصلاح السلفى خارج بلاد العرب

فوت دعاة الإصلاح على أنفسهم فرصة الدعاية لمبادئهم حين قررت الدولة السعودية الأولى قفل الأماكن المقدسة أمام الحجاج من الأقطار الإسلامية الأخرى . مع أنه فى الحالات القليلة التى سمحت فيها بدخول قوافل حجاج أجنبية أثار نظام الوهابيين إعجاب الوافدين من الأقطار البعيدة كما حدث سنة ١٨١٠ م بالنسبه لقافلة المغرب التى كان يرأسها ولى عهد المغرب .

وللباحث أن يتساءل هل قامت الحركات السلفية القوية فى أواخر القرن التاسع عشر كنتيجة مباشرة للدعوة الوهابية ، أم انه تصادف قيامها نظراً لوقوع المسلمين تحت تهديد الأطماع الأوربية ، ومحاولتهم إحياء الروح الدينية القوية حيث غابت عنهم فكرة القومية بالمعنى الإقليمى الحديث . وإذا أخذنا تاريخ حركة الاصلاح الدينى فى الهند وهو أشهر مثل لهذه الحركات السلفية التى حملت اسم الوهابية صراحة . فإننا نستطيع أن نؤكد أن قيام هذه الحركات المختلفة كانت وليدة الظروف الجديدة المحيطة بالعالم الإسلامى دون أن يكون هناك بالضرورة علاقة أخذ من حركة بلاد العرب مباشرة .

فقد بدأ سيد أحمد ، الذى ينسب إليه تأسيس الحركة الوهابية فى الهند ، كفاحه سنة ١٨٢٦ م . كزعيم حركة سياسية بحته تهدف إلى إحياء الحكم الإسلامى على أثر تصدع دولة المغول الإسلامية الكبيرة فى الهند . ولم يكن سيد أحمد هو الذى تزعم المسلمين لملء الفراغ الجديد وإنما اختص بالمنطقة الشمالية الغربية من جزيرة الهند حيث كان المسلمون واقعين تحت تهديد خطرين : الأول من جهة الغزاة الأجانب أو الإنجليز والثانى من جهة السيخ الذين أسسوا دولة قوية فى إقليم البنجاب .

ولم يعرف عن سيد أحمد أنه اتصل بدعاة الإصلاح الدينى فى الجزيرة العربية وحتما قام بفريضة الحج كان ذلك عام سنة ١٨١٨ م أى بعد أن أخرج الوهابيون من الحجاز . وقد ظل أنصار سيد أحمد يعرفون باسم المجاهدين ولم يشتهروا بشىء من تعاليم الدولة السلفية سوى أنهم دعوا إلى فتح باب الاجتهاد . ونلاحظ أن أنصار سيد أحمد أشاعوا بعد وفاته مبدأ عودة الإمام المنتظر وهو مبدأ شيعى يبتعد تماماً عن روح الحركة السلفية العربية . ولكن حدث فيما بعد اتصال بين علماء نجد وعلماء الهند وخاصة سكان الإقليم الشمالى الغربى وكشمير حيث بقيت ثورة سيد أحمد قائمة ضد الحكم البريطانى حتى سنة ١٨٨٠ م ، وقد قدم كثير من سكان هذه المنطقة إلى المحاكمة أمام المحاكم البريطانية بتهمة انتمائهم إلى « الثوار الوهابيين » .

ومما يثبت الاتصال الفكرى بين الحركات السلفية أن كثيراً من كتب الوهابيين وابن تيمية طبعت فى الهند أواخر القرن التاسع عشر وذلك قبل أن يضطلع السيد رشيد رضا بهذه المهمة فى مصر ، وقبل أن يمتلك السعوديون للمرة الأولى مطبعة حديثة سنة ١٩٢٦ م ويعرف السلفيون الآن فى الهند باسم « جماعة أهل الحديث » .

ومما يستحق الملاحظة أن الحركة السلفية فى شمال أفريقيا ارتبطت أيضاً ارتباطاً وثيقاً بالحركات القومية الموجهة ضد الاستعمار الفرنسى . وقد عرفت

السلفية أولا فى أواخر القرن التاسع عشر بفضل الحملة التى شنها محمد بن العربى العلوى أحد علماء فاس على الطرق الصوفية . ومن المعروف أن لهذه الطرق نفوذاً كبيراً جداً فى شمال أفريقيا . وكان من نتائج ذلك أن قرر مولاى عبد الحفيظ ، الذى تولى الحكم فى مراكش سنة ١٩٠٧ م ، إقفال زوايا الطريقة الكتانية حين أكتشف أن مشايخ هذه الطريقة يتآمرون مع الفرنسيين . فكان على السلفيين أن يناضلوا ضد عدوين فى شمال أفريقيا : وهما رجال الطرق من ناحية والغزاة الأجانب من ناحية أخرى . فضلا عن أن هذين العدوين كانا متحالفين لا فى شمال أفريقيا وحدها بل فى جميع الأقطار الإسلامية الأخرى .

وللحركة السلفية يرجع الفضل فى إحياء القومية الجزائرية : فقد كان الزعماء الجزائريون بعد طول الانقطاع عن العالم الإسلامى وثقافته مترددين فى اختيار الأسس التى تبنى عليها القومية الجزائرية . وذهب بعضهم إلى حد إنكار وجود هذه الأسس أصلا ، فكان علماء الدين الذين تثقفوا فى الشرق الإسلامى على يد دعاة السلفية فى مصر والشام والحجاز هم الذين حافظوا على التراث العربى الإسلامى للجزائر ، بعد أن كاد ينمحى أثره تماماً أزاء محاولات فرنسة الجزائر .

وفى سنة ١٩٢٩م . أسس عبد الحميد بن باديس جماعة العلماء الجزائريين. وقد اقتصر عملها فى الفترة الأولى على نشر مبادىء الإصلاح الدينى ومحاربة رجال الطرق ورغم هذا فقد تخوفت السلطات الفرنسية من نشاطهم الدينى والثقافى . وتصدت لمقاومتهم فأصدرت السلطات الفرنسية وهى المهيمنة على الشئون الدينية فى الجزائر منشورا سنة ١٩٣٣ م ، يحرم على (الوهابيين) الخطابة الدينية فى مساجد الدولة . ويبدو أن السلطات

فى الهند أو الجزائر ، هى التى كانت تتعمد وصف السلفيين بالوهابية تنفيرا للرأى الإسلامى منهم ، خاصة وأن خصوم السعوديين السياسيين قد أشاعوا فى ذلك الوقت كثيراً من الدعاية ضد (الفرقة الوهابية المارقة) . وقد ترتب على موقف الفرنسيين هذا أن تحولت جماعة العلماء الجزائريين من هيئة دينية خالصة إلى حركة قومية ، كان لها فضل إعادة وصل الجزائر بشقيقاتها الدول العربية والإسلامية .

صلاح الدين العقاد

العمارة العسكرية فى العصور الوسطى

بين العرب والصليبيين

لم تكن فى غلبة العرب على البيزنطيين فى معارك سورية ومصر وشمال افريقية — القضاء الأخير على الإمبراطورية الرومانية الشرقية . صحيح أنه انسلخت عنها أهم ولاياتها فى الشرق الوسيط وانكمشت رقعتها وتخلت حامياتها عن كثير من المواقع الاستراتيجية الهامة ولكن مع ذلك صمدت الإمبراطورية نحو سبعمائة سنة أخرى حتى أتيح للسلاجقة وللعثمانيين القضاء الأخير عليها عام ١٤٥٣ .

ورث العرب تراثا ضخما من بيزنطية : رقعة فسيحة من الأراضى التى تمتد من اعالى الفرات ومضيق طوروس فى الشرق إلى الصحراء الكبرى فى الغرب ؛ أرض واسعة ذات سواحل تنتشر عليها الموانىء الصالحة لرسو السفن الحربية والتجارية ، ومدن كبيرة تنتشر فيها المعابد والكنائس والملاعب والمدارس والأسواق والحمامات . . . الخ . وعلوم وفنون كثيرة لم يكن للعرب معرفة بها من قبل ، ثم عرفوا كيف يفيدون منها فى حضارتهم الإسلامية .

وقد كان من بين ماورثه العرب مدن الثغور والحاميات البيزنطية وما احتوت عليه من الحصون والقلاع . وكان الرومان قد اختاروا لها المواقع المهمة التى تتوافر فيها المزايا العسكرية ، فأبقوها على حالها . ولكن هل كان معنى ذلك أن العرب لم يكونوا على معرفة بالحصون وهم فى الجزيرة العربية قبل أن تتدفق جيوشهم الوثابة نحو بلاد الأعداء فى سورية وشمال أفريقية .

فى أقصى الجنوب ، فى حضرموت واليمن ، إلى قلب الجزيرة ، وفى شمالها قامت القلاع العربية الشامخة والحصون المتطلعة ، يمر بها الرواد فى سلام وهدوء ، مع أنها كانت فيما مضى مواقع النضال المرير والاستبسال العنيف فقديما كانت اليمن بلاد القلاع والحصون أكثر من شيدها الحميريون للحماية ضد غزوات البدو ، ولقد وصفها الهمذانى وياقوت وغيرهما ، فيما دونوه عن القصور المحصنة ، ومنها قصر غمدان فى صنعاء ، الذى احتوى على عشرين طابقا ، ناطحت السحاب ، إلى أن أصابته يد الخراب والدمار ، ولم يتخلف منه سوى الأطلال .

وعندما بزغ نجم الإسلام ، لم تكن فى مدن الجزيرة القاحلة قلاع منيفة ، إلا فى بعض الواحات التى قامت فيها المدينة ومكة والطائف ، لأن طبيعة المعارك القبلية لم تكن فى حاجة اليها ، إلا أن الطائف كان لها على ما يظن سور يحيط بها ، ومن المحتمل أنه كان هناك بعض الحصون الصغيرة والمعاقل فى المدينة وخيبر . لقد كان من تقاليد العرب خوض المعارك المكشوفة ، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ م ، إتفق المشركون من القبائل العربية على القيام بهجوم على المدينة ابتغاء السيطرة عليها ، ووجد المسلمون انفسهم مضطرين لأول مرة ، إلى الالتجاء لنوع من الحصون وكان ذلك على صورة خندق ، أشار بحفره سلمان الفارسى (٦٢٧) .

ونحن إذا أخذنا بأقوال المؤرخ المسعودى ، لوجدنا أن سور المدينة لم يشيد إلا فى العام الثالث والستين للهجرة (٦٨٢ / ٦٨٣ م) .

أما اليهود ، فرغبة منهم فى الدفاع عن أنفسهم ، قبالة أى هجوم محتمل ، ركزوا جهودهم فى حصون قوية منيعة فى خيبر ، وقد منى المسلمون بخسائر فادحة أثناء هجماتهم على المواقع اليهودية ، بسبب ما كان يتساقط عليهم من معاقلهم ، ولولا جرأة الصحابة واقدامهم واستبسالهم ، لما تحطمت أمامهم أبواب قلعة خيبر . وبعد سقوط هذا الحصن المنيع وجد اليهود ، أن من العسير عليهم الصمود أمام أى هجوم جديد واضطروا مؤخرا ، إلى

تسليم حصونهم لجيش المسلمين . وقد عثر جنود النبي فيما عثروا عليه من الغنائم في حصن « صعب » على « منجنيق » وما كادوا يرونه حتى تثبتوا من فائدته وشرعوا من فورهم في صناعة مثله . وفي حصار الطائف عام ٦٢٧ / ٦٢٨ م رأينا المسلمين يقيمون لأول مرة منجنيقا أمام الحصن الذي استسلم لهم ، قبل أن تبدأ تلك الآلة عملها .

كذلك أفضى احتكاك جيوش العرب بقوات بيزنطية في أيام الخلفاء الراشدين إلى ادراكهم أهمية الحصون والأبراج ، ومن ثم عنوا بدراسة فن الحصار وصناعة آلاته الثقيلة . وهكذا بدأ العرب يتعلمون أساليب جديدة في فن اقامة القلاع وبناء الحصون بعد أن اندثرت معاقلهم القديمة التي شيدها أسلافهم في جنوب الجزيرة العربي .

إن العرب ، بعد انطلاقهم للفتح من قلب جزيرتهم ، سارت جيوشهم في ثلاثة اتجاهات ، أخذ أحدها طريقه في اتجاه بيت المقدس . وسار الثاني نحو دمشق ، أما الجيش الثالث فقد اتجه لغزو العراق . . ووصل إلى الفرات عند مكان البصرة تقريبا . ومر هؤلاء الغزاة بسلسلة من قلاع الحدود الرومانية ، كانت تمتد من رأس خليج العقبة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تدمر وشرقيها في قلب صحراء الشمال ، ولقد أسهب في وصف أطلال تلك القلاع الرومانية لفيف من رجال الآثار ، أمثال برونو وفون دوماسز وسكى في الكتاب « القيم » الولاية العربية . وكان من أشهر تلك القلاع ، ادرو ، والدجانية ، وليجون ، وهي من بناء الإمبراطور تراجان ويشير ودمير .

العمارة العسكرية في أيام الأمويين :

وقد استفاد بعض تلك الحصون الرومانية أمراء بني أمية ، فقد عاش الوليد الثاني وقتا طويلا في حصن الأزرق الروماني الذي شيد في أيام ديوكليتيان — ومكسيميان وقد أعيد بناء الحصن على أيام الملك المعظم عيسى في عام ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ — ١٢٣٧ م) .

وعلى مسافة نحو عشرين ميلا شرق الزرقاء ، كانت توجد قلعة رومانية عرفت فى العصر الإسلامى باسم قصير الحلابات ، كان قد بدأ فى تشييدها الإمبراطور « كاراكلا » عام ٢١٣ / ٢١٧ م ، ثم أكملها جستينيان عام٥٢٩م ، ويقع اليوم بالقرب من قصير الحلابات ، مسجد صغير يرجع بناؤه إلى النصف الأول من القرن الثامن وقد شيده أحد أمراء الأمويين ، وكان قد أقام مدة فى القلعة الرومانية(١) .

وتعلم الأمويون مزايا تلك الحصون البيزنطية وخصائصها الدفاعية ، ولاسيما ما كان منها فى الأراضى « التى كانت على الحدود البيزنطية أمام أنطاكية ومن تلك : المصيصة [(٨٣ – ٨٤ ﻫ) (٧٠٢ / ٧٠٣ م)] . والمثقب (١٠٥ ﻫ) (٧٢٤ م) . وقطرجاش والمؤرة والبقاع وبغراس (١٠٥ ﻫ ٧٢٤ م) .

وفضلا عن ذلك ، فقد تأثر الخلفاء الأمويون بأساليبها المعمارية عندما صمموا قصورهم التى نذكر منها : —

١ — قصر الوليد فى مينيا على بحيرة طبرية (٧٠٥ — ٧١٥ م) .

٢ — قصر الوليد فى جبل سيس .

٣ — قصر هشام (المعروف بقصر الحير الغربى) حول عام ٧٢٧ م .

٤ — قصر هشام (المعروف بقصر الحير الشرقى) ١١٠ ﻫ — ٧٢٩ م)

٥ — قصر هشام (المعروف بخربة المفجر) فى أريحا .

٦ — قصر الوليد الثانى فى مشتى (٧٤٤ م) .

٧ — « « « (المعروف بقصر الطوبة) (٧٤٤ م) .

ومع أن جميع تلك القصور الحصينة شيدت فى قلب بلاد المسلمين ، فقد اتبع فى بنائها طراز هندسة القلاع — على الأقل فى الخارج . فقد شيدت جدرها

Creswell: Early Muslim Architecture. Vol. I. pp. 284-87. (١)

من الحجر واكتنفتها الأبراج المستديرة ، والمشربيات الحجرية لتصويب السهام على المحاصرين المهاجمين . والمشربيات (Machicolis) في العمارة عبارة عن اعداد دعائم ، يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها جواجز بارزة وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور ، يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المهاجمين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ، ويضعوا تحتها اللغم . كما يمكن أيضاً أن يصب على رءوسهم الزيت أو الماء المغلى أو غير ذلك من المواد المؤذية . وقد استخدم العرب المشربيات فى الحصون قبل الاوروبيين ، بمئات السنين ويعود ذلك إلى أيام هشام الأموي حينما بنى قصر الحير الغربى (٧٢٧ م) ثم قصر الحير الشرقى [1]. وبنى هشام أيضاً قصراً آخر يقع على مسافة أربعين ميلاً شرقى تدمر (بالميره) له مشربيتان جميلتان لهما فتحتان .

المدن ذوات الأسوار :

وبعد انتهاء أسرة الأمويين فى عام ٧٥٠م شيد العباسيون بغداد لتكون حاضرة دولتهم ، وقد كان لنقل عاصمة الدولة من دمشق إلى بغداد أثر كبير كالذى حدث حينما انتقلت عاصمة الإمبراطورية الرومانية من رومه إلى القسطنطينية . فقد كانت دمشق الأموية فى ذلك الحين فى قلب اقليم سادته الثقافة الهيللينية منذ ألف سنة بين الفتحين الإسكندرى والعربى . وقد نتج عن انتقال العاصمة العربية أن اضمحل التأثير الهلليني وحل فى مكانه مؤثرات فارس الساسانية التى كان العراق يقع فى محيطها الجغرافى والثقافى .

وأول ما يقع عليه نظر الباحث من ناحية تلك المؤثرات هو تخطيط بغداد الجديدة ، ولدينا تفصيلات واضحة عن بناء المدينة بفضل ما كتبه اليعقوبى والخطيب نستدل منها على ما كان عليه شكل بغداد حينما شيدها المنصور وذلك بالرغم من زوال المبانى الأصلية .

كان تخطيط بغداد على شكل دائرة قطرها نحو ٢٫٥٠٠ متراً ، وقد بدأ

(١) Schlumberger, D. in Syria, XX, pp. 366-72.

فى وضع الأساس فى عام ٧٦٢ م وتم البناء عام ٧٦٦ م وكان هناك سوران أحدهما داخلى والآخر خارجى بينهما فاصل يقدر اتساعه نحو ٣٥ — ٤٠ متراً .

أما السور الخارجى فيقدر علوه نحو ٢٤ متراً وسمكه ٤ أمتار ، وكان ارتفاع السور الداخلى نحو ١٧ متراً بما فيه الشرفات وسمكه خمسة أمتار ومن أهم ما كانت تمتاز به أبواب بغداد تلك المداخل المنحنية (**Bent-entrance**) التى تعرض المهاجمين لأخطار الاصابة عند ما يقتحمون مدخل المدينة[١] .

وفى أعقاب بناء بغداد شيد الخليفة المنصور عام ١٥٥ هـ — ٧٧٢ م مدينة الرّقا ، وشحنها بالجند الخراسانية لتأمين الحدود السورية من غارات الروم[٢] ويقول الطبرى المؤرخ الكبير أن أبوابها شيدت على نمط أبواب بغداد ، وكذلك الفواصل بين الأسوار الداخلية والخارجية والرحبات والطرق ، وليس هذا فحسب فإن الرقا لم تكن مستديرة الشكل وأن كانت قد أحيطت بسور مزدوج وبخندق .. وقد كان تخطيطها على شكل حدوة الفرس . وكانت سعة الخندق حول ١٦ متراً فى أعلاه وتسعة أمتار ونصف فى أسفله[٣] .

وتقابلنا عدة عناصر معمارية ذات طابع عسكرى فى قصر الأخيضر الذى شيده عيسى بن موسى ابن عم السفاح عم المنصور حول عام ١٥٩ هـ - ٧٧٦ م[٤] .

---

(١) هذا الأسلوب المعمارى أخذه الغرب عن الشرق وهو جعل المدخل الموصل من باب القلعة الى داخلها على شكل زاوية قائمة أو جعله ملتويا لكى لا يتمكن العدو التى يصل الى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه الى من فيه .... الخ .

(٢) يعزى الى الخليفة المنصور تحصين مدن كثيرة على الحدود البيزنطية فقد ذكر البلاذرى أنه فى عام ١٣٩ هـ (٧٥٦/٧ م) كتب المنصور الى صالح بن على يأمره بإعادة بناء وتحصين ملطية وقد نفذ الأمر فى العام التالى .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩ (طبعة أوربا) .

(٤) **Creswell : Fortifications in Islam before A. D. 1250., p. 109. Proceedings of the British Academy, Vol., XXXVIII. 1952.**

ويختلف رجال الآثار حول تاريخ بناء الأخيضر . وهو على العموم قد شيد فيما بين عامى ٧٢٠ و ٧٧٨ م .

ويقع الأخيضر على مسافة ثلاثين ميلا غربى كربلاء ويشتمل على موقع محصن خارجى تقدر مساحته بنحو ١٧٠ متراً مربعاً ، وينتصف كل جانب باب كبير ويلتصق بالجانب الشمالى قصر كبير مساحته حول ١١٣ × ٨٢ متراً ، ويقدر ارتفاع الأسوار بنحو ١٧ متراً (بدون الدورة التى اختفت) وفى كل كن من القصر برج مستدير ،ويتخلل السور عشر أبراج موزعة عليه عدا أبراج الأبواب ، وللأبواب متاريس مدلاة من حديد تسدها عند الضرورة وذلك برفعها أو خفضها ، وتلك ظاهرة تقابلنا فى القلاع العربية للمرة الأولى ، اقتبست عن الرومان فى الأخيضر على ما ذكره العلامة كريزويل فى كتابه المعروف .

تحصين الحدود العباسية البيزنطية :

وكان خط الحدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية يتكون من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة العسكرية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التى تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك فى الممرات الجبلية الضيقة وقد حرصت كل من الدولتين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع . فوضع البيزنطيون منطقة التخوم التى واجهت أراضى الدولة الإسلامية تحت اشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور . ولما ازدادت حدة الإغارات الإسلامية فى القرن الثامن الميلادى دعموا تلك المنطقة بحاميات اطلق عليها حراس الحدود ، وكان هذا الخط الدفاعى يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قيليقيا وينقسم قسمين : الأول يمتد من ملطية إلى عين زربة وكان مخصصاً لدفع غارات المسلمين الآتية من شمال العراق .

وأهم حصون ذلك القسم ملطية التى تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية

من سبيسطة أو سيواس وقيصرية إلى أرمنية وشمالى العراق ، ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة . أما القسم الثانى من الخط الدفاعى البيزنطى فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن الأراضى البيزنطية ضد الحملات الشامية (١) .

وقامت الدولة العباسية بمثل ما قامت به الدولة البيزنطية لتحصين حدودها فأقبل خلفاؤها على ترميم المعاقل والحصون فى منطقة الحدود المطلة على الأراضى البيزنطية . والمعروف أن الخليفة هارون الرشيد كان صاحب الخطوة الهامة فى تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليما مشابهاً لإقليم الأطراف البيزنطى على حدود البلاد الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور وعاصمته انطاكية وجعل عليه ابنه المعتصم . وفى عام ١٨٠ هـ — ٧٩٦/٧ م أمر الرشيد بأن تشيد وتحصن مدينة عين زربة وحشد فيها لواء من فرسان(٢) وفى عام ١٨٣ هـ — ٧٩٩ / ٨٠٠ م أمر الرشيد ببناء حصن الهاردنية وهو حصن صغير فى جبل اللكام ، من غربية فى بعض شعابه وشحنه بالمقاتلة(٣) وكان للحصن سوران وأبواب حديد وقد خربته الروم ثم أعاد عمارته سيف الدولة بن حمدان . ونذكر أيضاً قلاع طرسوس(٤) . وبياس ومرعش وملطية واطنه(٥) .

---

(١) Bury : History of the Eastern Empire, p. 244, 246.
انظر أيضا دكتور إبراهيم أحمد العدوى : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) البلاذرى / فتوح البلدان ص ١٧١ (طبعة أوربا) .

(٣) تاريخ حلب ص ١٨٦ .

(٤) تقع طرسوس على نهر « قره صوه » وكانت قديما فرضة بلاد قيليقيا ولقد أوصى الخليفة المهدى العباسى ببنائها استنادا إلى التقرير الذى رفعه إليه قائده العربى الحسن بن قحطبة الطائى سنة ١٦٢ هـ ٧٧٨ م وقد تم بناؤها فى زمن الرشيد عام ٧٨٨ م وعندها توفى المأمون عام ٨٣٢/٣٣ م ودفن بجامعها .

(٥) تقع أطنة على نهر سيحان الذى يصب فى البحر المتوسط فشيد قلعتها أبو سليم فرج الخادم عام ١٩٣ هـ — ٨٠٨ م .

أسوار القاهرة :

شيد القائد جوهر مدينة القاهرة فى عام ٣٥٨ ﻫ — ٩٦٩ م وقد أحاطها بسور لم يبق شيء منه اليوم . ولم تصل إلينا عنه معلومات معمارية سوى أنه بنى من اللبن ، وأن عرضه كان يسمح لفارسين بالمرور عليه فى اتجاهين متضادين .

وبنى السور الثانى للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ ﻫ — ١٠٨٧ م خارج سور جوهر الأول لا على أساسه . وكان مثله مشيداً من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج وقد قام ببناء الأبواب الثلاثة باب النصر — باب الفتوح — باب زويلة ثلاثة اخوه من رجال العمارة اتوا من الرها (أورفا) شيد كل واحد منهم بابا ولا تزال تلك الأبواب المنيعة باقية إلى اليوم فى أماكنها . وقد عنى رجال الآثار بدراسة تلك الأبواب دراسة مفصلة يمكن الرجوع إليها فى مراجعها[1] .

أما سور القاهرة الثالث فقد ابتدأ فى عمارته صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ ﻫ — ٦٩ / ١١٧٠ م . وقد كان حينذاك وزيرا للعاضد لدين الله آخر خلفاء الفواطم بمصر .

فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ ﻫ(١١٧٣ م)وصار سلطانا ندب بهاء الدين قره قوش للعمل فى السور ، فبناه بالحجارة كما هو عليه اليوم — وبدلا من أن يحيط به القاهرة وحدها قرر أن يطوق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط ولكنه توفى قبل أن يتم ذلك .

ونجد تفاصيل عمارة ذلك السور وما اشتمل عليه من أبواب وأبراج ومشربيات ومزاغل وزخارف ونقوش فيما كتبه العلامة الأستاذ كرزويل.

---

(١) الفصلان العاشر والحادى عشر فى كتاب Creswell : Muslim Architecture in Egypt.

قلعة الجبل :

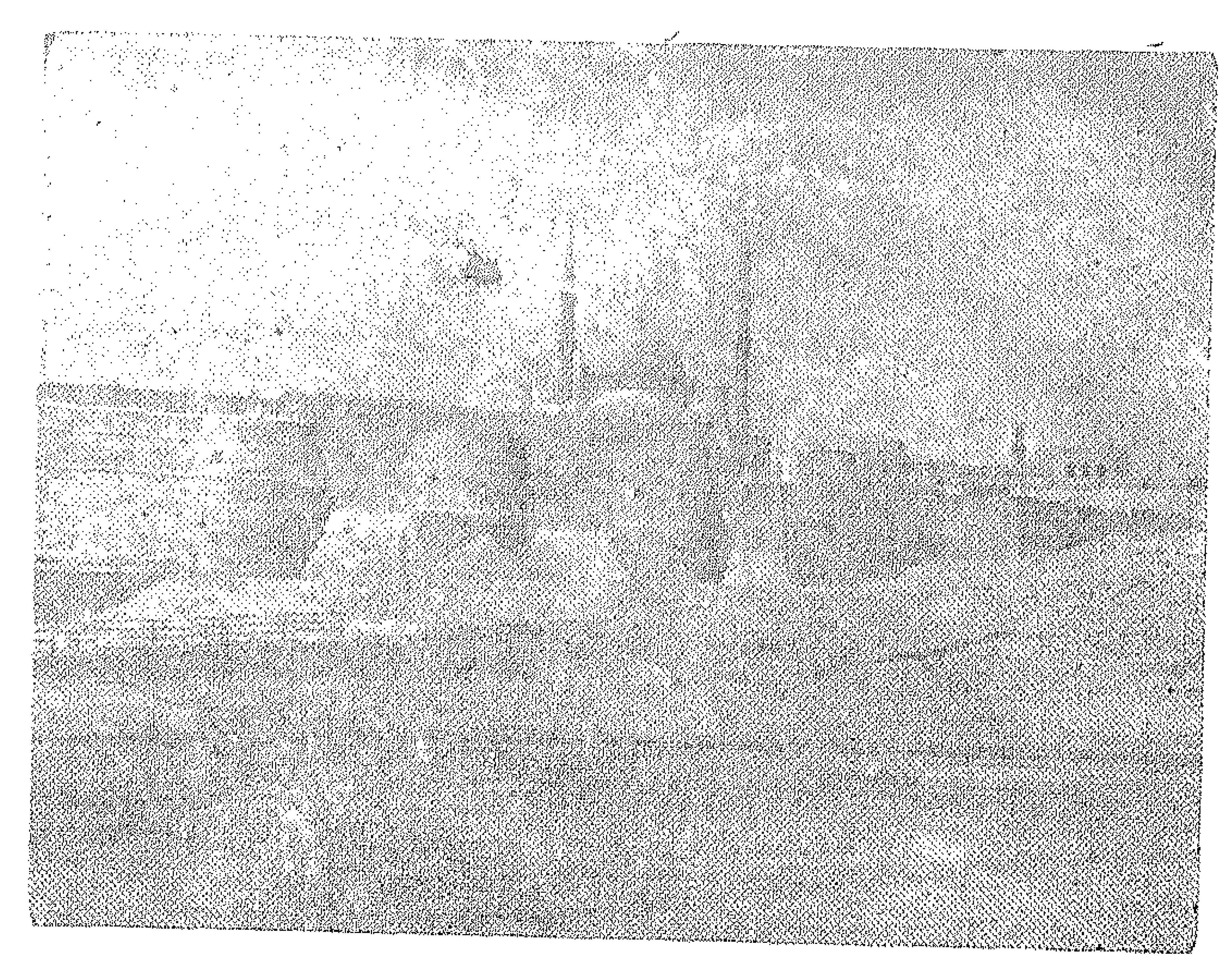
تعتبر قلعة الجبل من أهم منشئات صلاح الدين العسكرية ، قرر بناءها فى عام ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م وتم العمل الكبير فيها عام ٥٧٩ هـ - ١١٨٣/٨٤م.

يتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مربعين من الأرض مستقلين : الشمالى منه يشبه مستطيلا ذا أبراج بارزة ويفصله عن المربع الجنوبى حائط سميك ، وأبراج ضخمة . ويخرج المربع الجنوبى عن الشمالى مكونا معه زاوية قائمة . وحدود هذا المربع ليست منتظمة ويبدو أنه لم يكن فى البداية جدران محصنة وكان حول القسم الشرقى من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهرا . فإن الصخور محفورة فى هذا الجانب إلى عمق كبير بحيث يضاعف ارتفاع الجدار . وبذلك فصل صلاح الدين بين جبل المقطم وبين جزئه الواقعة عليه القلعة بهوة كبيرة ليمنع أى عدو قد يسيطر على جبل المقطم من الافادة على إشرافه على قلعته .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء حائط السور بابراجه النصف الدائرية ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقى لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذى يشغله اليوم المتحف الحربى ، وينسب إليه أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلى من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذى يمتد جنوبيه بما فى ذلك الجزء الخلفى من البرج النصف الدائرى الكائن بين الباب الأخير والباب المتوسط .

وموجز القول أن صلاح الدين شيد سور القلعة كاملا وقويا على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به وبفضل نشاط وزيره قره قوش . إذ أنه استدعى لفلسطين فى ١١ مايو ١١٨٢ وخاض غمار حروب طاحنة

خرج منها منصورا إذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس فى أكتوبر ١١٨٧ م[1] .



قلعة الجبل — السور الشرقى

ولما خلفه أخوه الملك العادل كانت الأمور قد استقرت قليلا ، فانتهز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وما له من النفوذ أن يعيد تحصين المواقع الحربية فى سورية ومصر وغيرهما .

ولا تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى واطلال حصون جبل طابور وقلعة النجم على الفرات شاهدة على جهوده الكبيرة ونشاطه فى هذا السبيل.

وينسب إلى الملك العادل فى القلعة ، الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلى وهى برج صفطة وبرج قرقيلان وبرج العلوة ، والزيادة التى أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء

---

(١) K. A, C. Creswell : Archeological Researches at the Citadel of Cairo. 1924.

الداخلى ببرج الصحراء والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور. وقد تمت أعمال الملك العادل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/٧ م).

قلعة بصرى :

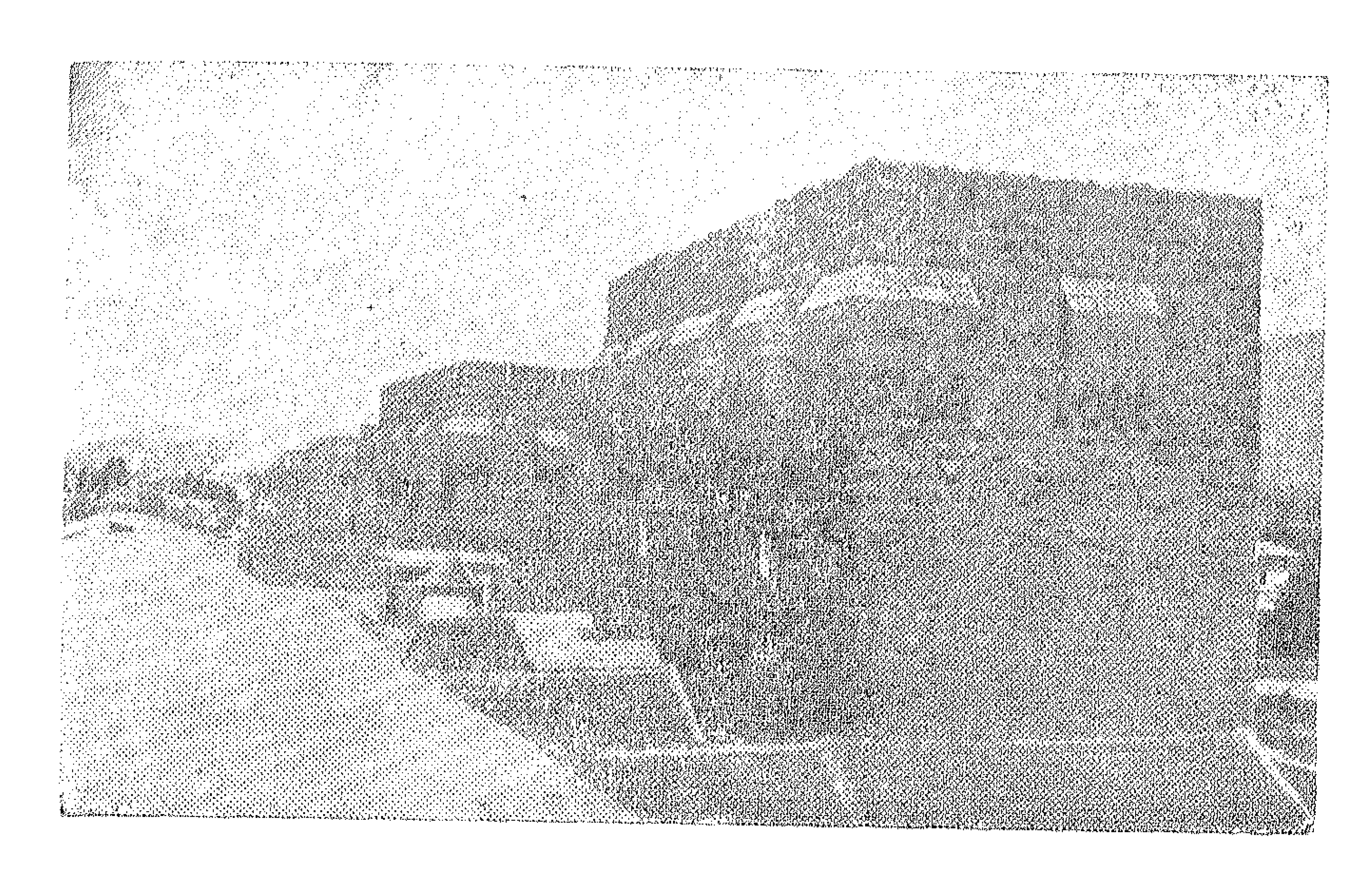
وفى بصرى حيث كان يقوم مسرح رومانى كبير شيد فى القرن الثانى الميلادى أدرك الأيوبيون أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشييد عدد كبير من الأبراج حوله وتحمل هذه الأبراج عددا كبيرا من النقوش الكتابية للملك العادل تواريخها كالآتى :

٥٩٩ هـ (١٢٠٢ — ٣ م) و ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) و ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) و ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) و ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) و ٦١٥ هـ (١٢١٨ م).

وهناك نقش آخر باسم الملك الصالح تاريخه ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م). وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل أحد أبراج العادل فى قلعة الجبل، ويشتمل على قاعة كبيرة يعلوها قبو وقد شيدت القاعة بالاسلوب المتعامد.

قلعة دمشق :

وقلعة دمشق كما هى عليه اليوم من أعمال العادل أيضاً، بدأ عمارتها تاج الدولة تتش عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) الذى جعلها دار الإمارة، واهتم بتعميرها السلطان نور الدين ثم الملك العادل. وتمتد تواريخ نقوشها بين عامى ٦٠٥ هـ و ٦١٤ هـ (١٢٠٨ — ١٢١٧ م) ويقوم فى جانبيها الشرقى والشمالى مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة (Bent-entrance) وتعلو جميع أبواب القلعة المشربيات الدفاعية.



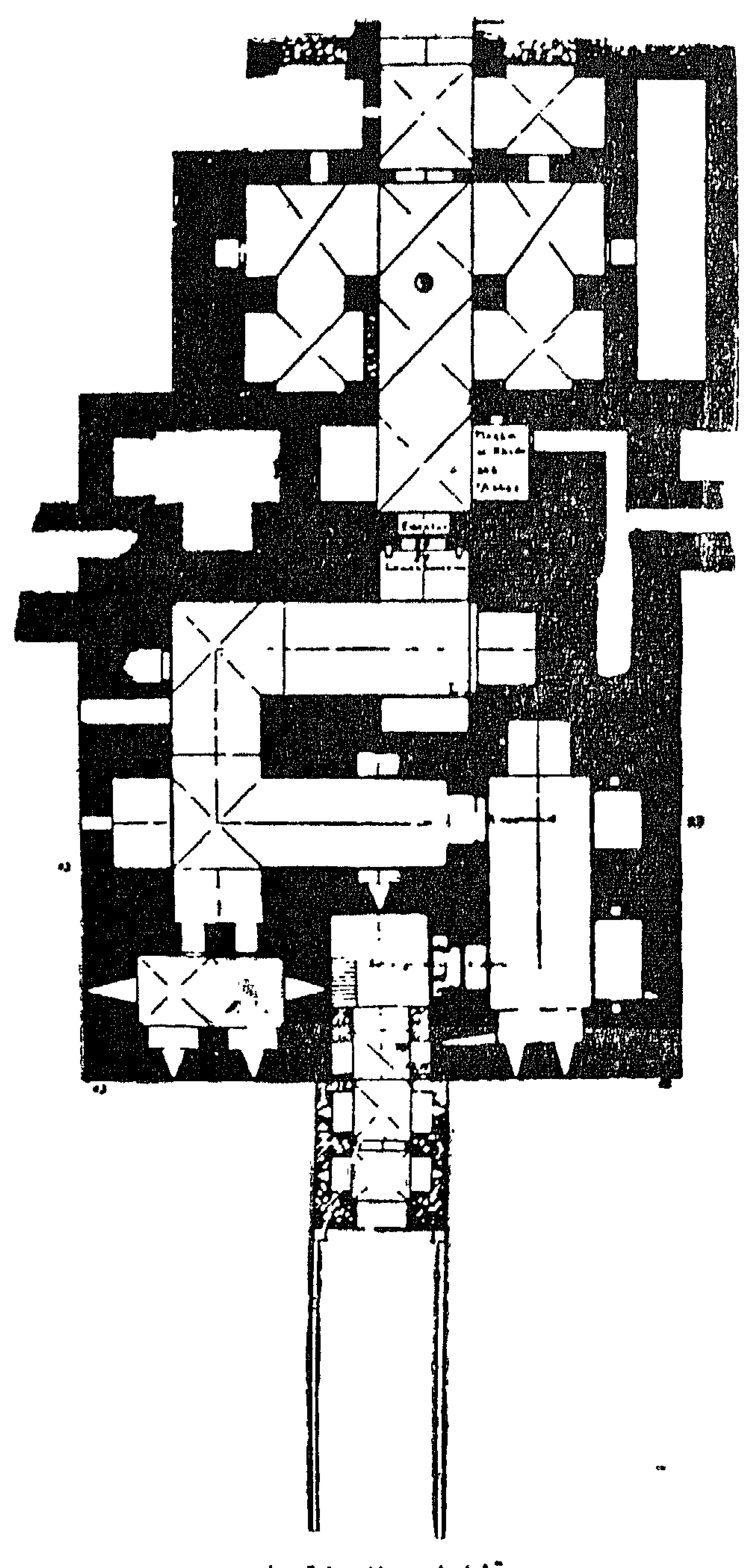
قلعة دمشق

قلعة جبل طابور :

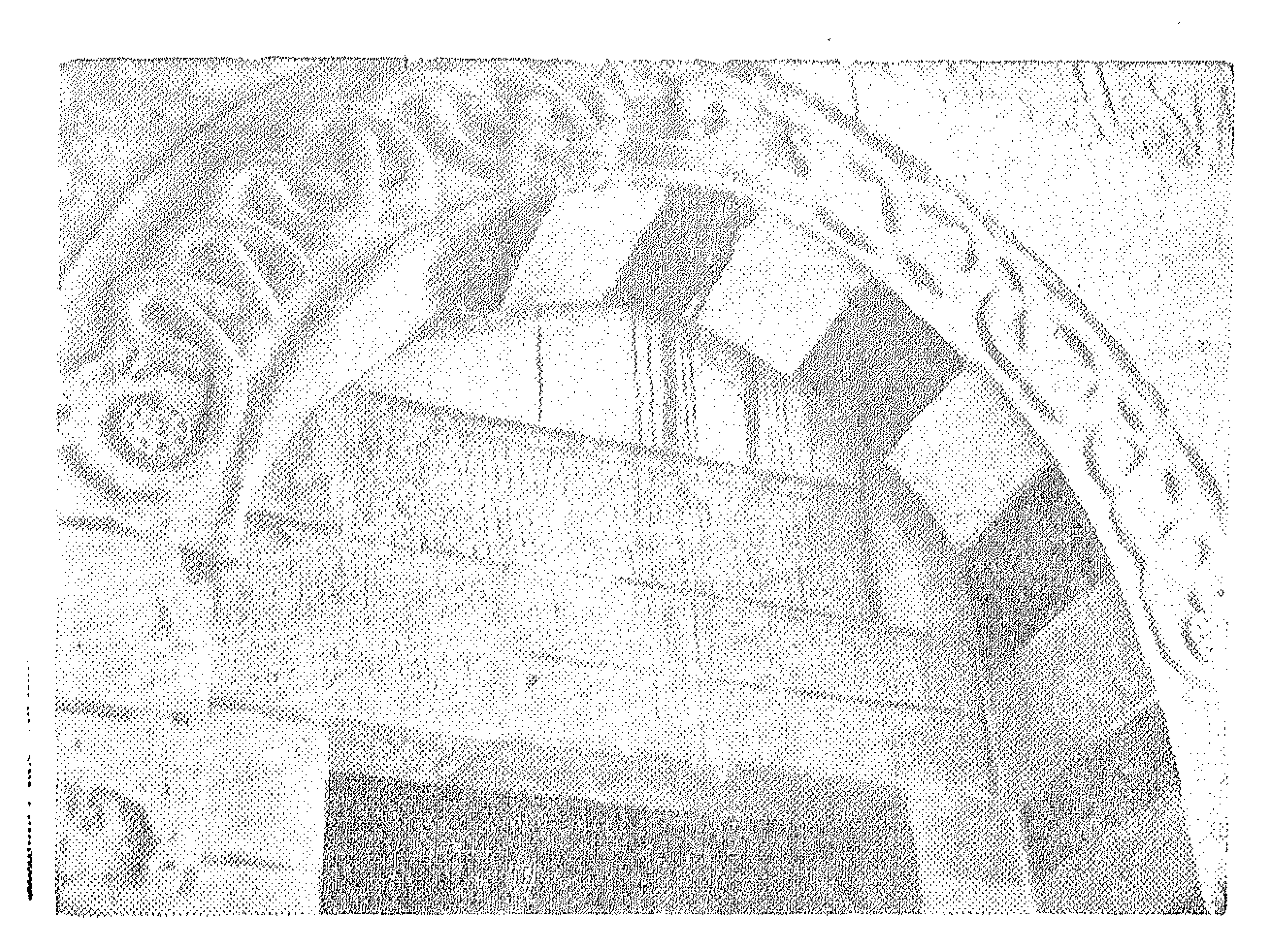
وقد حصن العادل قمة جبل طابور عام ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) ولم يبق إلا مخلفات قليلة من حصونه اليوم ، وفى برج خرب نلاحظ فتحة للسهام (مزغل) على شكل حرف — v — يشبه فى تفاصيله المزاغل الموجودة فى قلعة الجبل والتى تنسب أيضاً إلى العادل .

قلعة حلب :

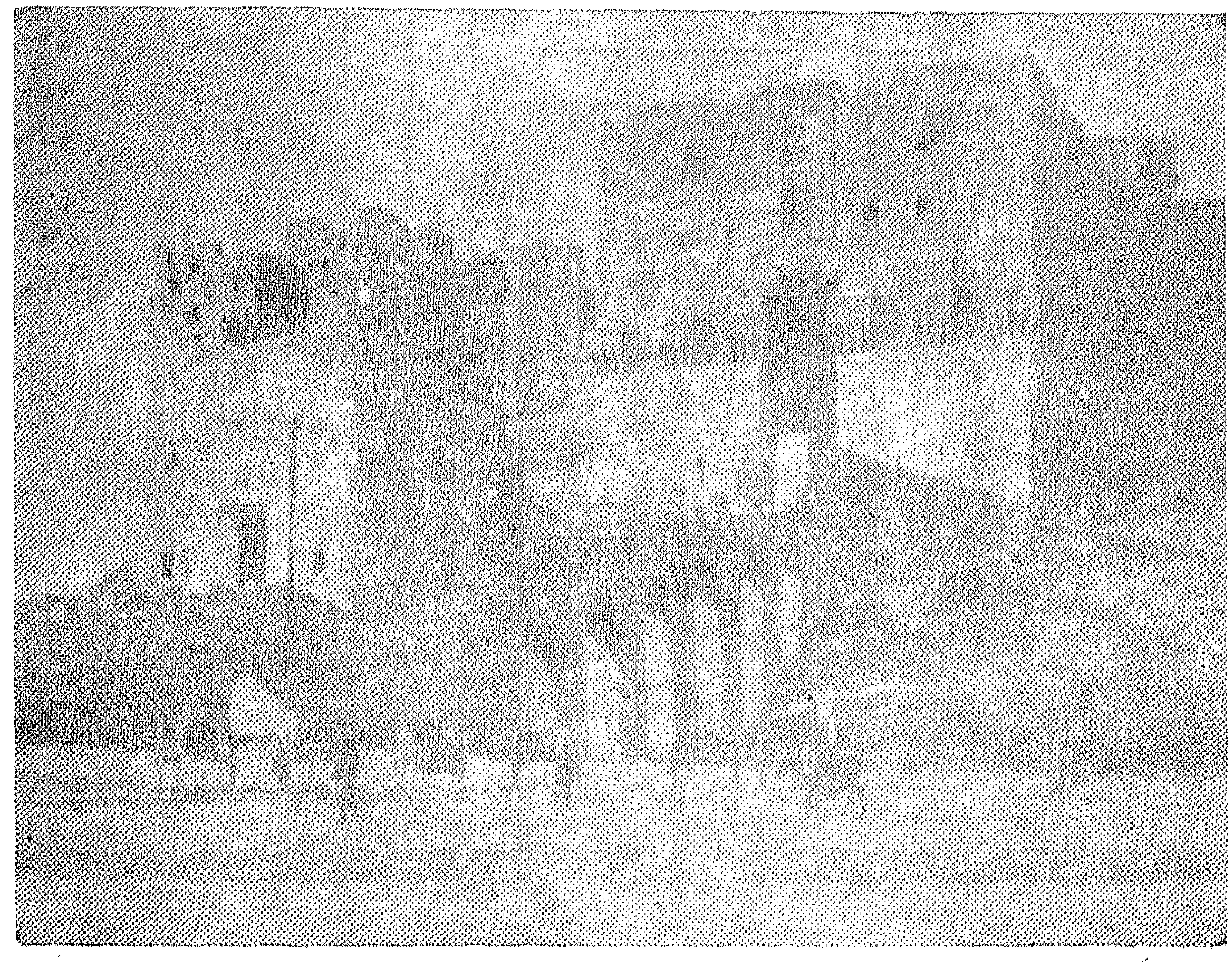
قلعة حلب من أهم آثار سورية الإسلامية وهى تنهض فى وسط مدينة حلب على تل مستدير الشكل غطى بزلاقة من الحجارة ، ويصل إلى القلعة بواسطة قنطرة عبر خندق وتتكون القنطرة من سبعة عقود .



تخطيط مدخل قلعة حلب



قلعة حلب : باب الحيات



المدخل الرئيسي الجنوبي لقلعة حلب

ندخل إلى القلعة بعد أن نمر عبر مدخلها ذى الأركان المستديرة ، وعلى هذا المدخل نجد نقشـــاً للسلطان الغورى يشتمل على تاريخ عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧)[١] ثم نعبر الخندق على جسر (قنطرة) عالية إلى أن يقابلنا برج المدخل الكبير (عرضه ٣٠ مترا وعمقه ٣٥ مترا) الذى يمر فى وسطه المدخل الرئيسى وهو مغطى بقبو على شكل نفق ، ثم ننثنى إلى اليمين لنجتاز المدخل الخارجى الرئيسى فيقابلنا باب من الحديد ثم ننثنى إلى اليسار وإلى اليسار مرة أخرى ونعبر باباً آخر من الحديد ومنه إلى ممر مقبىّ فنجد أنفسنا فى الجانب الآخر من البرج وندور يمينا مرتين ثم ننثنى إلى اليسار ونجتاز باباً حديدياً ثالثاً فنجد أنفسنا فى الجانب الداخلى للبرج (بعد خمسة منحنيات) .

وقد ذكر ابن الشحنة نقلا عن ابن شداد أن الملك الظاهر غياث الدين غازى هو الذى غطى سفح التل بالحجر وشيد بابها وكان ذلك فى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣/٤) وعمل الملك الظاهر لهذا الباب جسراً (قنطرة) ممتداً منه إلى البلد . وبنى على الباب برجين وعمل للقلعة خمس دركات وجعل لها خمسة أبواب من الحديد ، وبنى فيها أماكن للجند وأرباب الدولة .

قلعة النجم :

وقلعة النجم حصن مستدير مشيد بالحجارة الجميلة ومقام على تل مستدير يحمى قنطرة عبر الفرات بين جرابلس وبالس وهى تشبه من بعض النواحى قلعة بصرى ويدل النقش الموجود على المدخل أنها من بناء الملك الظاهر فيما بين ٦٠٥ و ٦١٢ هـ (١٢٠٨ — ١٢١٥م)[٢] .

---

(١) Sobernheim : Der Islam, XV, p. 169.

(٢) Wiet et Hautecœur : Les Mosquées du Caire., pp. 123 - 4.

العمارة العسكرية عند مجيء الصليبيين :

عند ما جاء الصليبيون إلى الشرق فى أخريات القرن الحادى عشر وجدوا فيه عمارة عسكرية أكثر تقدما عما كانت عليه فى بلادهم بأوروبا حيث كان عصر بناء القلاع بالأحجار قد أوشك على البداية .

ويرجع تقدم العمارة العسكرية فى الشرق إلى الرومان ، فقد عنوا بدراسة مشاكل الدفاع العسكرى كعلم له قواعد وأساليب واستفاد البيزنطيون بهذا التراث وعملوا على إنعاشه وتطويره لأن سياستهم العسكرية كانت دفاعية خلال مدة وجودهم فى الشرق الوسيط ولا سيما فى أهم أقسامه أى سورية ضد غارات الأعراب من الصحراء — ولذلك اكثروا من بناء الحصون والقلاع فى الأماكن الهامة ... فلما جاء العرب إلى سورية وانتصروا على البيزنطيين كانت الناحية الدفاعية أولى الأشياء التى عنوا بها . وتعلموا أشياء كثيرة من أساليب البيزنطيين كما رأينا .

ولكن مشاكل البيزنطيين الدفاعية لم تكن صورة طبق الأصل لمشاكل الصليبيين القادمين الجدد . فقد افترض البيزنطيون أن القوة العددية للجند لا تعتبر عندهم مشكلة بالقدر الذى نجدها عند الصليبيين الذين يستمدون الرجال من بلادهم البعيدة . فالبيزنطيون تسندهم بسرعة بلادهم المجاورة بما يتطلبه الموقف العسكرى .

والقلعة البيزنطية فى الشرق لم تكن أكثر من معسكر محصن . صمم تخطيطها على اعتبار أن أسلحة العدو أضعف من أسلحتهم ، وكان البيزنطيون يرون أعداءهم العرب أضعف منهم فى فنون الحصار وأسلحته. ولذلك كانت جدران حصونهم غير متينة واستعانوا بالخنادق العريضة أو العميقة ليحرموا العدو جلب أبراج الكباش وسلالم الحصار إلى مسافة يستطيع منها قذف الحجارة والسهام على جنود القلعة .

وكان البيزنطيون يشيدون فى القلاع – الأبراج ذوات الميول ويبنونها على مسافات متفاوتة من جدران القلعة ، ولم تكن تلك الأبراج لحماية الأسوار بل لكى يتيسر لرماة القسى ورماة النقط مدى طويلا لاختراق خطوط العدو المهاجمة وكان يشيد فى وسط السور برج مرتفع يخزن فيه المؤن والسلاح والعتاد وليس لكى يكون آخر ملجأ للجنود يدافعون فيه عن أنفسهم .

ونحن إذا استثنينا بعض القلاع التى شيدها البيزنطيون عند الحدود الأرمنية حيث كان يقوم بشئون الدفاع أمراء شبه مستقلين فقد استخدمت القلعة كمكان إقامة دائمة . لقد كان الأمير جنديا محترفا ترك زوجه وأولاده خلفه فى المدينة يعيشون عيشتهم الرتيبة .

ومع أن البيزنطيين كانوا يعنون باختيار الأرض الصالحة لبناء القلعة ، فلم تكن صعوبة الوصول إلى موقع القلعة (من ناحية المهاجم) هى أولى العوامل التى اهتموا بها . فقد كانت المزية الأولى الرئيسية للقلعة أن تستخدم كثكنة مسلحة . وكان من العسير أن نطلب من الجندى كلما أمر بالتحرك أن يجهد نفسه صاعدا أو هابطا[1] ونلاحظ أن العرب قد اتبعوا أساليب البناء البيزنطية وإن كانت طبيعة جيوشهم تعتمد على الهجوم المفاجىء وسرعة الحركة ولذلك لم يعنوا كثيراً بمشاكل الدفاع الكبرى إلا فى بعض الظروف[2] .

الصليبيون ودراسة أساليب القلاع :

عنى الصليبيون بدراسة أساليب العمارة العسكرية فى خلال سيرهم الطويل فى رحلتهم من الغرب إلى الشرق ، وقد أفادوا حقا من قوة

---

(١) Deschamps : Le Crac., pp. 45 - 57., Eberselt Monuments d'Archite cture Byzantine, pp. 101 - 106.

(٢) Je ddan : Crusader Castles, pp, 22 - 6.

ملاحظتهم ، ولكن كما قلنا كان موقفهم (من النواحى الاداريه والتعبوية على الأقل) مختلفا عن البيزنطيين أو العرب ، فقد كانت شكواهم من نقص عدد الرجال دائمة . ولم يستطيعوا الاحتفاظ بحافل ضخمة العدد فى حامياتهم المبعثرة فى مملكتهم . . فلا غرو إذا لاحظنا متانة قلاعهم وسهولة وضعها من ناحية الدفاع عنها . وقد عنوا كثيرا باختيار المواقع المناسبة التى تتوافر فيها المزايا العسكرية الدفاعية . ولذلك نراهم قد استخدموا كل منحدر وكل صخير إلى اقصى حد . ولما كان من الصعب استعمال جنود الكشافة فقد استعاضوا عنهم بمبدأ تبادل الرؤية ، بمعنى أن تكشف كل قلعة ما يجاورها أو يتلوها من الحصون وذلك لغرض تبادل الأنباء والتعليمات وتيسير المواصلات .

وقد بالغ الصليبيون فى زيادة سمك جدران القلاع وعلى اطالة علوها وذلك لكى تقاوم الهجمات المباشرة والاسلحة الفتاكة ولم يعتمدوا على منشئات الدفاع الخارجية التى تقام عادة أمام القلعة وذلك اقتصادا للجند .

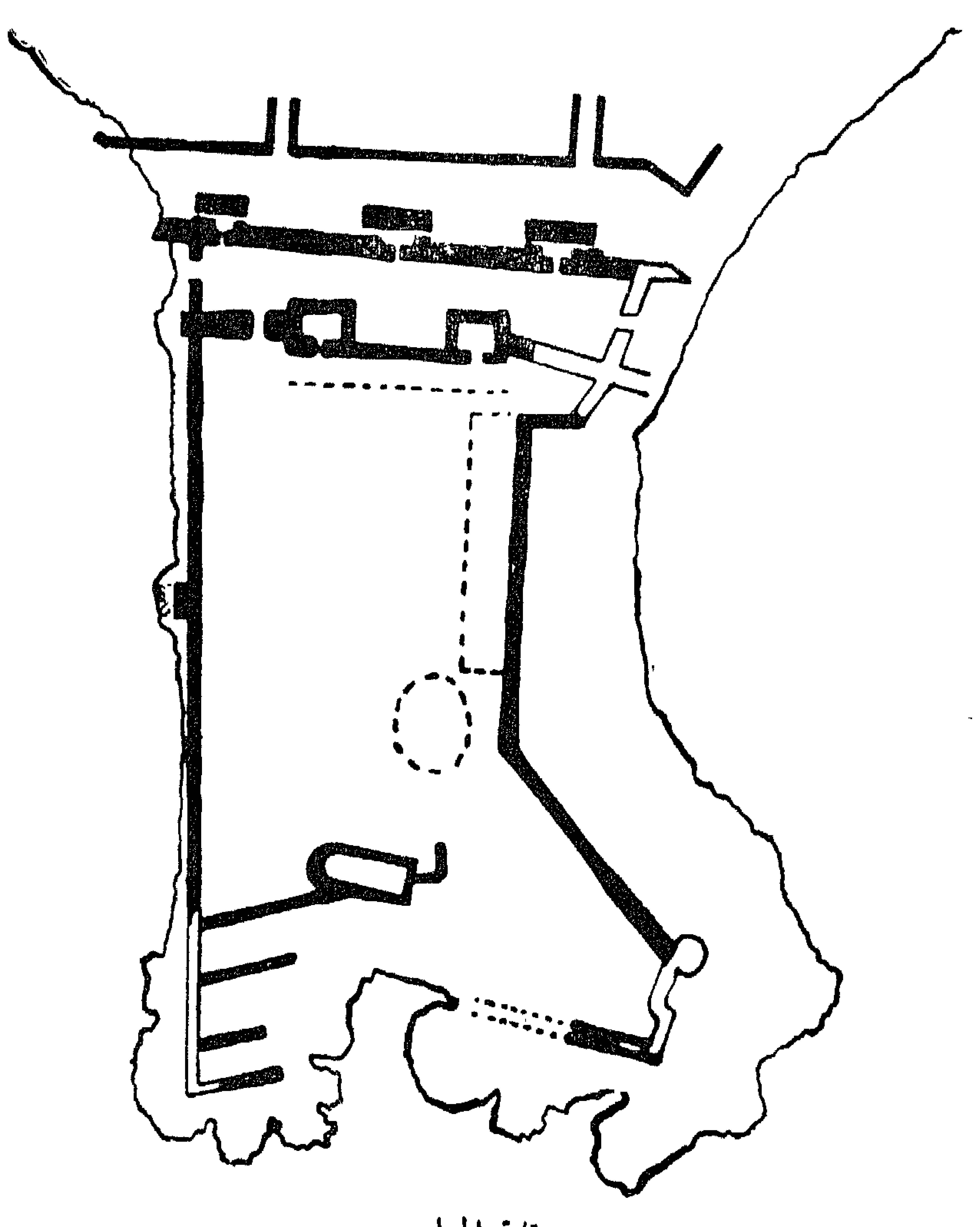
وفى الوقت نفسه كانت تؤدى القلعة وظيفة المركز الرئيسى للآمر أو الملك أو نائبه والمقر الأدارى للحكومة .

ولا يخفى أن الفرنج كانوا قد جلبوا أساليبهم الأقطاعية ولم ينسوا أنهم أجانب يحكمون بلادا يختلف أهلها عنهم .

وكانت المساحة التى تشغلها القلعة كبيرة وتسمح بوقاية قطعان الحيوان والغنم أثناء غارات العدو العديدة . والحقيقة أن القلعة لعبت دورا أكثر أهمية للافرنج مما لعبته عند العرب والبيزنطيين(١) وفى الغرب المعاصر للصليبية كان القصر القلعة فى دورها البسيط عبارة عن حصن مربع قوى البناء كان يطلق عليه أسم (Donjon) وقد بلغ أسلوبه فى عهد النورمان

Desehams : Le Crac, pp. 89 - 103. (١)

إلى ما يقرب من الكمال . ولكنه كان لا يفي باحتياجات حاميات الصليبيين أن يعملوا بجد لتحسين طراز قلعتهم لتؤدى لهم أجل الفوائد . فاستعاروا أفكاراً كثيرة من أسلافهم البيزنطيين ، واقتبسوا مما شاهدوه فى الشرق ظاهرة المشربيات ، كما انتفعوا باسلوب توزيع الابراج على امتداد سور القلعة ولم ينقل هؤلاء ما شاهدوه بدون تعديل بل نراهم يفضلون الأبراج المستديرة لانها تعطى مدى أوسع للاضرار بالعدو ، ولم يتمسكوا بالابراج المربعة التى فضلها البيزنطيون .



قلعة الحصاج

أسرع الصليبيون عقب نزول جيوشهم فى البلاد المقدسة فى اصلاح اسوار المدن التى تهدمت وشيدوا القلاع لحراسة أماراتهم ، واستخدموها كما قلنا مراكز لادارة شئون البلاد إلى جانب واجبها فى الدفاع ، وقد بدأوا عملهم فى المدن التى احتوت على قدر كاف من الحصون . . كانوا يشيدون قلاعهم على حافة المدن لكى تضطلع بالدفاع المستقل عن المدينة . وقد بنوا أول قلعة يمكن تأريخها بالدقة ــ قلعة الكونت ريمون على جبل الحاج ، عام ١١٠٤ م لكى تكون مقرا لرئاسة جيشه وذلك بينما كان منهمكا فى حصار طرابلس .

ومن المحتمل جدا أن تكون قلاع أمراء الجليل فى طبرية وتورون قد شيدت فى العصر نفسه .

قلاع الصليبيين فى أوائل القرن الثانى عشر

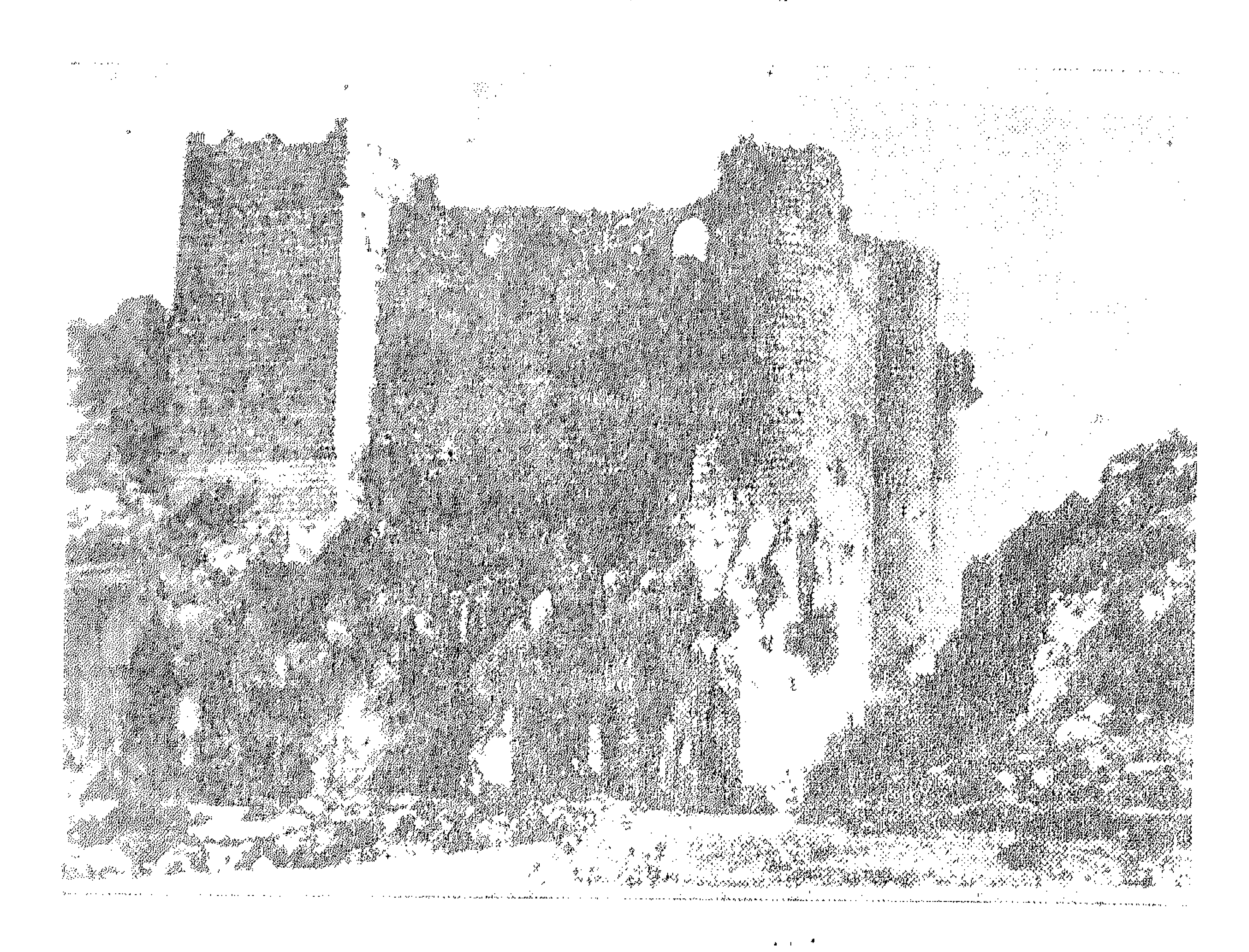
كانت قلاع الصليبيين فى أوائل القرن الثانى عشر صغيرة كقلعة بلفوار مثلا ، شيدوها بالأسلوب البيزنطى ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبا وتكتنفه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال (Keep) كان يؤلف فى المواقع قلب الدفاع ، وقد اهتموا كثيرا باختيار الموقع ليكون صعب المنال ولكى يستغنوا عن بناء الأعمال الدفاعية الخارجية . أما اسلوب البناء فقد جمع بين المتانة والمنعة .

لقد بدأ العصر الكبير الأول فى بناء القلاع الصليبية فى سورية فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى أيام حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨ ــ ١١٣١ م) واستمر على أيام فولك ، حينما شيدت قلعة كرك مؤاب[١]

---

(١) شيد الصليبيون كرك مؤاب فيمابين ١١٤٠ ــ ١١٤٣ م وتمتاز بموقعها العسكرى الهام شرق البحر الميت ومشيدها ابن النابلسى رئيس سقاة الملك فولك .

وبوفورت[1] وإلى الشمال قلعة صهيون[2] وكذلك تلك المجموعة من القلاع الصغيرة نسبيا فى بلاد اليهودية مثل قلعة الحارس الأبيض[3] وقلعة



قلعة صهيون فى سورية

ايلين[4] ونرى الصليبيين قد انتفعوا فى قلعة صهيون (وكانه اصلا من بناء البيزنطيين) بالخندق المحيط ببعض اجزائها وحولوه إلى هوة عميقة

(١) بدأ الفرنج بناء قلعة بوفورت عام ١١٣٩ على قمة أحد الجبال المشرفة على نهر الليتانى وهى تبعد نحو ٢٤ ميلا من بيروت وقد انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين فى ١٥ أبريل ١٢٦٨ م .

(٢) تقع قلعة صهيون على حافة تل مرتفع بين وهدتين عميقتين وقد شيد على هذا المكان الفينقيون والبيزنطيون قلعة ما زالت بعض أجزائها باقية من مبانى القلعة الصليبية وقد أضاف الصليبيون إليها الأسوار الضخمة والأبراج المنيعة لتزداد منعة وتعتبر صهيون والمرقب وحصن الأكراد من أهم قلاع الصليبيين .

(٣) تعرف هذه القلعة باسم تل الصفى بناها الملك فولك فيما بين عامى ١١٣٧ — ١١٤٢ وهى تؤلف مع ايلين وبيت جبلين حلقة دفاعية حول عسقلان فى الجنوب الغربى من فلسطين .

(٤) شيد رجال الاسبتارية قلعة ايلين (يبنا) عام ١١٤١ م .

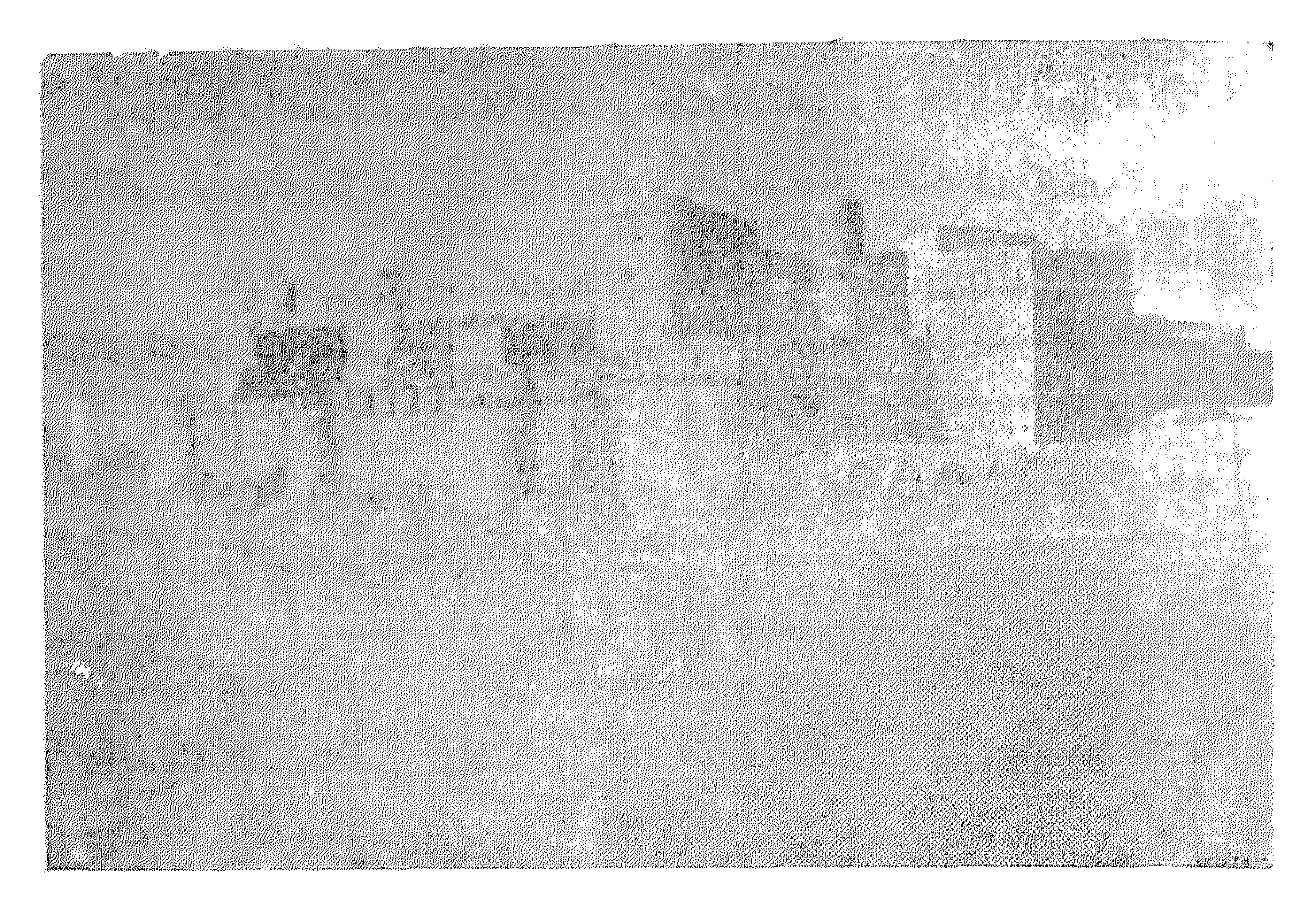
ضيقة يبلغ عمقها نحو تسعين قدما قطعوها فى الحجر الصلب . ولقد ادرك الصليبيون اهمية موقع صهيون فزادوه مناعة . ومن ذلك أنهم استخدموا المتاريس المدلاة وهى أبواب من حديد معلق على بوابات الحصون عند الضرورة فتسدها وتعرف هذه المتاريس بأسم (Portcullis)وقد استخدمها الرومان منذ القدم فى قلاعهم وفى حصن قصر الشمع ببابليون كما استعملها العرب فى حصن الاخيضر كما ذكرناه من قبل . وقد عرف الصليبيون من العرب المدخل الذى على شكل زاوية قائمة .

القلاع الصليبية الكبرى :

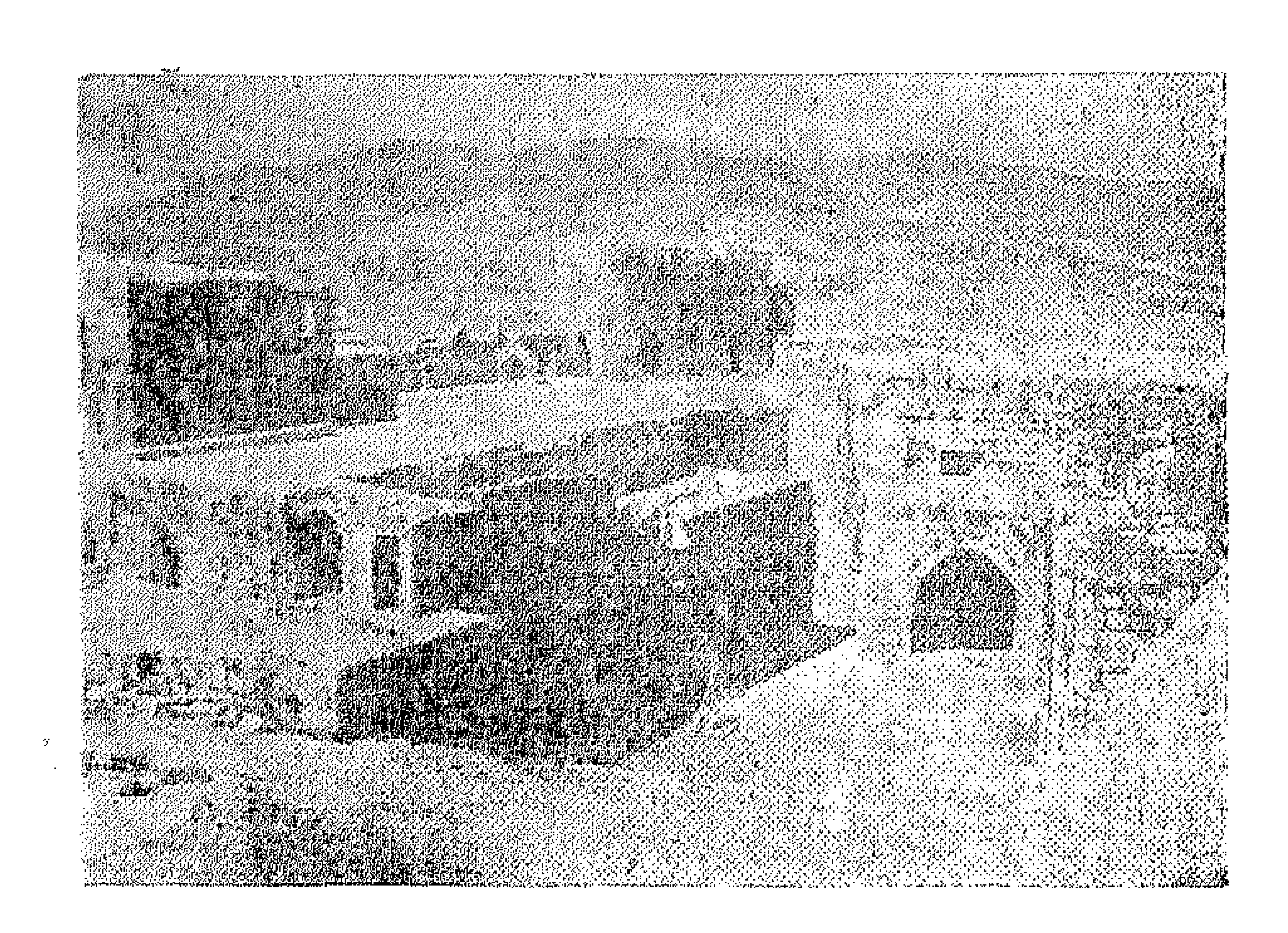
أما القلاع الصليبية الكبرى فكانت مبانيها أكثر تعقيداً ، فإن قلعة كرك الفرسان (حصن الأكراد)[1] مثلا شيدت لكى يعيش فيها الأمير وأسرته وجنوده والكتبة ورجال الإدارة الذين يعملون فى إمارته وفى مثل تلك القلعة — أى قلعة القرن الثانى عشر كان الحصن (Keep) ومساكن الإقامة تقام فى غالب الأحيان فى أبعد أركان السور ليمكن الدفاع عنه بسهولة أما المخازن والمصلى فقد شيدأ فى الفضاء الأوسط داخل القلعة ، بينما اشتملت الأبراج الأخرى المشيدة ضمن مبانى السور على ثكنات الجنود وأماكن العمل وكان شكل مخطط القلعة يختلف تبعاً لشكل الأرض المقامة عليه القلعة ومساحتها . وقدكان الحصن (Keep) عبارة عن برج بسيط مربع الشكل على النمط النورمانى له فى غالب الأحيان مدخل واحد . شيد بالحجارة

---

(١) أهم الحصون الإسلامية الصليبية فى سوريا ، يقع على مسافة ٢٤٠ ك . م من دمشق و١٤٠ ك . م غربى طرابلس (لبنان) . ويشتمل على مجموعة نادرة المثال من أعمال الدفاع والأبراج المستديرة والجدران والمشربيات والأقبية التى تحت الأرض والزلاقة الخارجية فضلا عن مناعة الموقع العام . وقد نشبت حوله معارك عنيفة لا عد لها مبنية الاستيلاء عليه . وكان آخرها ذلك الحصار المستميت بين قوات الظاهر بيبرس وفرسان الاسبتارية الذين كانوا يدافعون عنه إلى أن سقط فى قبضة المسلمين فى ٨ أبريل ١٢٧١ م .



قلعة الحصن — حصن الأكراد



حصن الأكراد من الداخل

القوية وبأسلوب بسيط وأن زخرفت أحياناً مساكن الإقامة والمصلى . ومن سوء الحظ أنه لم يصلنا شيء من تلك الحليات والزخارف المعمارية التى كانت توجد فى قلاع القرن الثانى عشر أما القلاع التى بقيت فى أيدى اصحابها من المسيحيين بعد عصر . صلاح الدين الأيوبى فقد أعيد زخرفتها وتجميلها فى القرن الثالث عشر وما وقع منها فى قبضة المسلمين اصابها التغيير والحذف والإضافة . وما تبقى بعد ذلك آل إلى الخراب على مر السنين[1] .

العمارة العسكرية فى القرن الثانى عشر

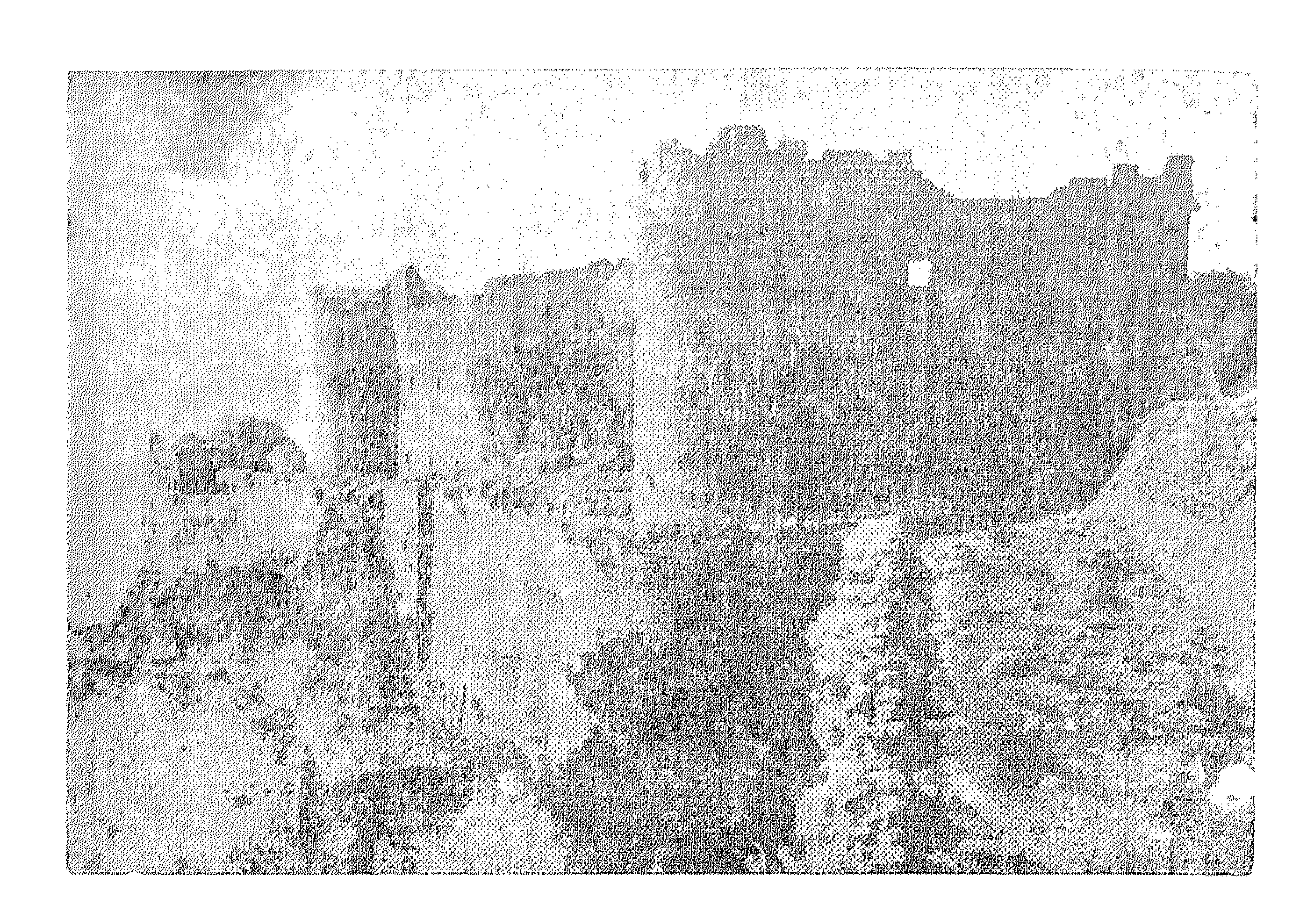
وبتقدم القرن الثانى عشر طرأت تغييرات رئيسية فى تخطيط القلاع الصليبية فقد نظر بعين الاعتبار إلى اهمية موقع الحصن (Keep) وهو امنع اجزاء القلعة واقواها ورؤى أن يقام فى اضعف قطاعات السور ، وكان الحصن حينذاك قد تحول شكله من المربع إلى المستدير وذلك لاسباب ذكرنا بعضها ومنها مقاومة السطح المستدير طلقات المقذوفات بشكل مؤثر كما أنه زيد عدد الأبواب العادية والسرية (Postern) فى الأسوار .

ونلاحظ أن القلاع التى شيدها الصليبيون فى القرن الثانى عشر أخذت فى الضخامة ولا سيما حينما بنى رجال الطوائف الدينية قلاعاً لهم أو عند ما كانت تؤول إليهم قلاع النبلاء والأمراء وكانت قلاع تلك الطوائف لاتأوى النساء ومع أن مساكن كبار القادة والموظفين (داخل القلاع) اشتملت على جميع وسائل الراحة فقد احتوت أيضاً على كل ما تتطلبه الضرورة العسكرية . لقد كانت القلاع الكبرى مثل كرك أثليت عبارة عن مدن عسكرية تسع عدة الاف من المحاربين والخدم والتابعين .

---

(١) راجع الوصف المفصل وتخطيطات قلعة كرك مؤاب والعبية فى باتياس فى كتاب :
Dechamps : La Défense du royaume du royaume de Jerusalem. Paris 1939.

ونشاهد أنه كان من النادر استخدام الأسوار المزدوجة فى قلاع الأسلوب المشترك المركز (Concentric) — صحيح أنه كان لقلاع طائفة الاسبتا ية الكبرى مثل حصن الأكراد والمرقب اطار مزدوج (أى سور)



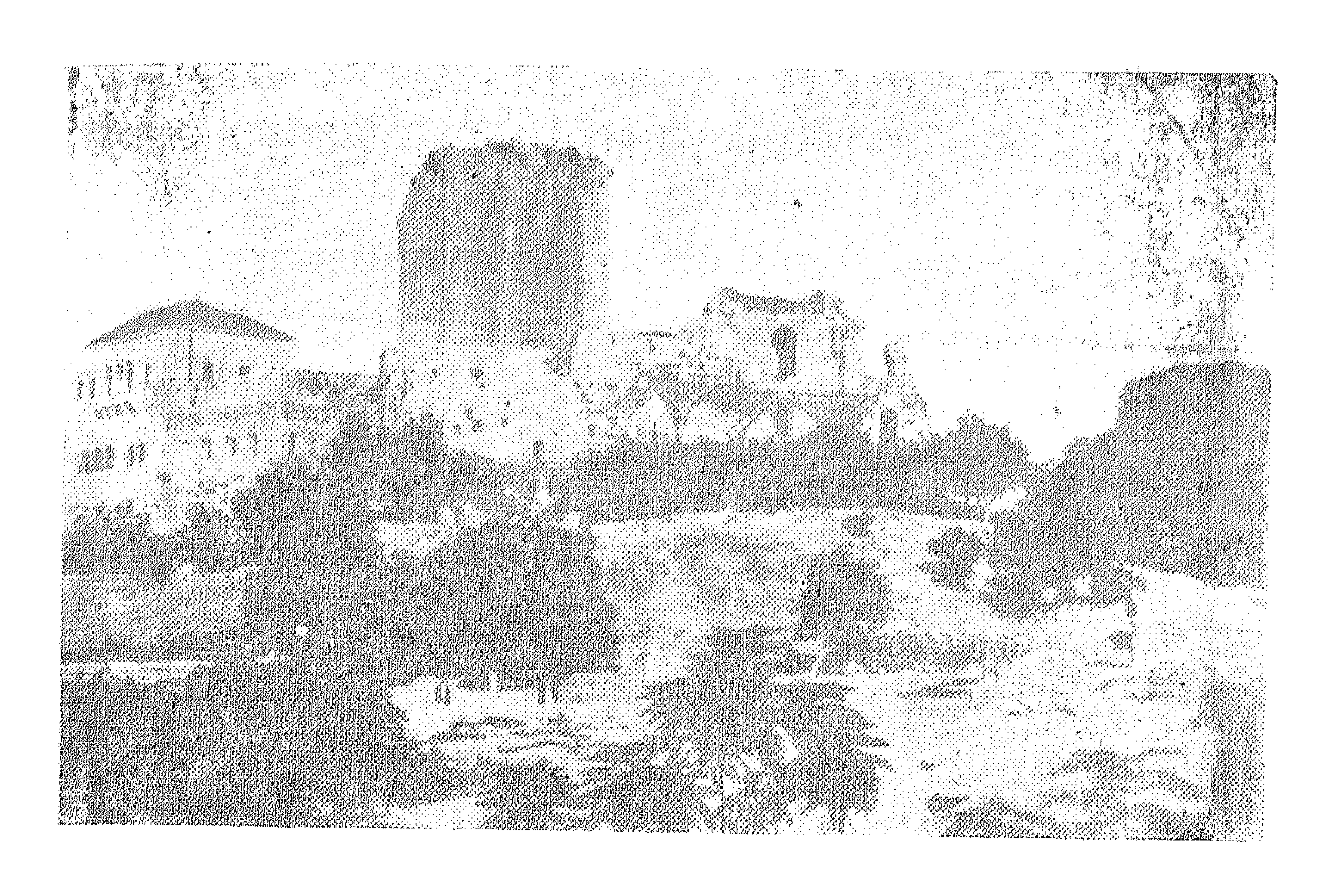
قلعة المرقب فى سورية

وتملد هذه الظاهرة طائفة الداوية . وقلدوه فى بنـــاء قلعة صافيتا[1] ولكنهم فضلوا السور المفرد كقاعدة عامة ولذلك نلاحظ أن قلاعهم الهامةالتى شيدوها فى القرن الثالث عشر كطرطوسة[2] واثليت[3] اتخذت

(١) من أقدم القلاع التى شيدها الصليبيون (٢ — ١١ — ١١٠٤) لوقاية المخاضة التى توجد فى أقصى شمال نهر الأردن .

(٢) طرطوسة من أجل القلاع التى شيدتها طائفة الداوية على ساحل سورية ولها خطان للدفاع .

(٣) تقع قلعة اثليت على الساحل وتبعد نحو ١٣ ميلا جنوب غربى حيفا وهى من أجل العمائر العسكرية فى فلسطين ، بناها الداوية عام ١٢١٨ م وكانت مقر رئيس طائفتهم وقعت فى قبضة السلطان الملك الأشرف بعد سقوط عكا فى عام ١٢٩١ م.



قلعة صافيتا (البيضاء)

الأسلوب الباكر ، لكننا نشاهد فى الحالتين أن الأجزاء المرتفعة من الأسوار هى التى كانت تلاصق البحر — كذلك قلعة مونتفورت[1] التى شيدها رجال التيتون كانت ذات سور مفرد . ولم تكن فكرة السور المزدوج جديدة على فن العمارة العسكرية فى سورية فإن أسوار القسطنطينية البرية التى شيدت فى القرن الخامس كانت مزدوجة ، وحينما شيد المنصور مدينة بغداد فى القرن الثامن احيطت بسور مزدوج ولكن رجال الاسبتارية سبقوا غيرهم فى تطبيق هذا الأسلوب فى قلعة واحدة مع أنه يفضل استخدام السور المزدوج فى قلعة كبيرة[2] وضخمة .

---

(١) قلعة مونتفورت (Mons Fortis) أو ساركبنورج شيدت فيما بين ١٢٢٧ و١٢٢٩ م فى موقع قاحل ومنيع يصعب الاستيلاء عليه .

(٢) Rey : Arch. Militaire pp. 70 - 72. Fedden : pp. 28 - 9.



قلعة طرطوس من الداخل

تلك هى نظرة شاملة عن أحوال أهم القلاع الإسلامية والصليبية وأهم عناصرها المعمارية أرجوا أن أكون قد وفقت فى عرضها .

عبد الرحمن زكى

مجرى مياه فم الخليج

أن المتتبع لطوبوغرافية عواصم مصر الإسلاميه يجدها سلسلة مؤلفة من امتدادات اتخذت اتجاها واحدا جهة الشمال الشرقى . فقد أنشأ عمرو ابن العاص مدينة الفسطاط سنة ٦٤١ م ، ولما ضاقت هذه العاصمة بساكنيها أنشئت مدينة العسكر فى العصر العباسى سنة ٦٧٠ م . ولما استقر الأمر لأحمد ابن طولون اتخذ له عاصمة جديدة هى القطائع بناها فى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة العسكر فى عام ٨٦٩ م . ثم جاء الفاطميون فأنشأوا لهم عاصمة جديدة اتخذوها مركز اشعاع للمذهب الشيعى ، تلك هى مدينة القاهرة التى أنشئت سنة ٩٦٩ م (انظر شكل ١) .

ثم دالت دولة الفاطميين وجاءت الدولة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين ابن يوسف الأيوبى ، وكان من التقاليد المرعية فى العصور الوسطى أن يبنى الملوك والسلاطين المدن والعواصم تخليداً لذكراهم ، وكذلك فعل صلاح الدين ، ولكنه بدل أن ينشىء عاصمة جديدة رأى بثاقب فكره أن يبنى[1] سورا يضم شتات العواصم الأربع السالفة الذكر خاصة بعد أن أباح صلاح الدين سكنى القاهرة للخاصة والعامه[2] ، مما أوجب الزيادة فى رقعتها . كما أنشأ قلعته المشهورة «بقلعة الجبل» إلى الغرب من تلال المقطم ، لتكون له معقلا وحصنا[3] يعتصم به من أعدائه ، وليتخذها مقرا لحكومته وثكنات لجيشه .

وقد روعى فى تصميم السور الجديد أن يحيط بالقلعة حتى يتصل بأسوار القاهرة

(١) ابن جبير ص ٢٠

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق .

من الجهة الشمالية من نقطة اتصال السور الفاطمى بالخليج المصرى إلى جامع المقس « أولاد عنان الآن[1] » ومن باب النصر إلى برج الظفر . وفى الجهة الشرقية من برج الظفر إلى باب الوزير وقلعة الجبل ثم يميل جهة الغرب فاصلا الجزء العامر عن الخراب من دور العسكر والفسطاط محيطا بها من جنوبها حتى يلتقى بالنيل عند رباط الآثار « جامع أثر النبى » . وقام بعمارة القلعة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى[2] ، فشرع فى بنائها وكذا السور عام ٥٧٢ هـ ، ولكن صلاح الدين مات قبل أتمام هذا المشروع فأهمل العمل فيه إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل فأتمها وسكنها[3] واقتدى به من ملك مصر من بعده من ملوك الدولة الأيوبية وحذا حذوهم ملوك دولتى المماليك.

ولما كانت حكومة صلاح الدين حكومة حربية فقد استأثرت الحرب بجزء كبير من عناية الدولة وميزانيتها ، من أجل ذلك احتاج صلاح الدين إلى منشآت حربية وأخرى مدنية كان من أهمها إذ ذاك بناء الجسور وتطهير الترع وتشييد القلاع وإقامة الأسوار المحيطة بالبلاد لتقيها شر غارات الفرنجة من الخارج والشيعة المنبثين فى أنحاء العالم الإسلامى . ومن أظهر الأعمال الجليلة التى ماانفك أثرها باقيا حتى اليوم والتى تشهد بتقدم مصر الهندسى فى عهد صلاح الدين هو توصيل مياه النيل من رباط الآثار عبر الأسوار إلى القلعة . وكانت هذه الفكرة بمثابة نبراس سار على هديه من جاء بعده من الملوك والسلاطين فبنوا القناطر إلى جانب السور لزيادة كمية الماء التى تصل إلى القلعة .

تعددت الأقوال وكثرت الآراء فى تأريخ مجرى المياه الذى كان يوصل مياه النيل إلى قلعة الجبل ، كما خلط كثير من الكتاب بين مجرى المياه وأسوار صلاح الدين حتى لقد كان الأصطلاح الشائع إلى عهد قريب لدى العامه وفى المكاتبات الرسمية على تسميتها « بمجرى صلاح الدين » . لذلك فقد

---

(١) الفسطاط — الأستاذ حسن الهوارى ص ١٠ .

(٢) المقريزى جزء ٢ ص ٢٠٣ .

(٣) المقريزى جزء ٢ ص ٢٠١ .

رأيت أن أتتبع تاريخ هذا الأثر كما جاء فى المراجع التاريخية ثم أناقش آراء المؤرخين وعلماء الآثار على ضوء ما ورد فى المراجع القديمة وعلى ضوء الآثار الباقية وطوبوغرافية مدينة القاهرة .

مقدمه تاريخية :

لقد جاء ذكر هذا المجرى فى كتاب خطط مصر للمقريزى فى مناسبات عدة ننقل منها هذا النص : « أنشأ الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢ هـ أربع سواق على بحر النيل تنقل الماء إلى السور[1] ثم من السور إلى القلعة . وفى عام ٧٢٨ هـ عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة ويكون حفر الخليج فى الجبل ، ولكنه عدل عن تنفيذ هذا المشروع لكثرة تكاليفه ، إذا قدر له مبلغ ثمانين ألف دينار ، كما رأى الملك الناصر أن المدة التى سيتم فيها المشروع وهى عشر سنوات مدة طويلة . فلما كانت سنة ٧٤١ هـ اهتم الملك الناصر بسوق الماء إلى القلعة وتكثيره بها لأجل سقى الأشجار وملء الفساقى ولأجل مراحات الغنم والأبقار ، فطلب إليه المهندسين والبنائين وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة حتى انتهى إلى الساحل فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة فيجتمع الماء من بئرين ويصير ماء واحدا يجرى إلى القلعة فيسقى الميدان وغيره . فعمل ذلك ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا فركب ومعه المهندسون إلى بركة الحبش وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ويمر إلى حائط الرصد[2] وينقر فى الحجر تحت الرصد عشر آبار يصب فيها الخليج المذكور ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة زيادة لمائها . وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل

(١) المقريزى جزء ٢ ص ٢٣٠ .
(٢) انظر وصف الرصد المقريزى ج ١ ص ١٢٥ .

فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعاً وقدّر الله تعالى موت الملك الناصر قبل اتمام هذا العمل فبطل ذلك وأنطم بعد ذلك وبقيت منه إلى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار وما زال الحائط قائماً من حجر فى غاية الاتقان من أحكام الصنعة وجودة البناء عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد قائماً من الأرض فى طول الجرف إلى أعلاه حتى هدمه الأمير يلبغا السالمى سنة ٨١٢ ﻫ وأخذ ماكان به من الحجر فرم به القناطر التى تحمل إلى اليوم الماء حتى يصل إلى القلعة وكانت تعرف بسواقى السلطان فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها ونسوا ذكرها .

يتبين لنا من النص سالف الذكر أنه كان يوجد فى عصر الملك الناصر مأخذان للماء من النيل مباشرة يوصلانه إلى القلعة ، أحدهما يرجع للعصر الأيوبى والآخر انشأه الملك الناصر محمد . وقد أطلق المقريزى على المجرى الذى كان يوجد قبل عهد الناصر محمد اسم « القناطر العتيقة » . ويقول الأستاذ كرزويل[١] أن لفظ القناطر العتيقة التى ذكرها المقريزى هو الذى أدى إلى التضارب فى تأريخ هذا الأثر فقد ذكر Casanova[٢] وكذلك Van Berchem[٣] أن المجرى قد أنشىء فى عهد السلطان الكامل ويكوّن جزءاً من المجرى الموجود حالياً ثم أصلح وأعيد بناؤه فى عهد من جاء بعده من السلاطين . أما Vollers[٤] فإنه يقول « لعل المقريزى يعنى بكلمة » القناطر العتيقة « قناطر ابن طولون التى أقامها فى البساتين وأن كان ذلك لايتفق وطبوغرافية القاهرة ، أو لعله (المقريزى) يقصد بالقناطر العتيقة أنها أنشئت فى عهد صلاح الدين وهـذا هو الشائع الآن بين الجمهور وإن لم يؤيده نص أو مرجع تاريخى » .

---

(١) كرزويل ص ٨٩ .

(٢) Casanova ص ٦٦٠ .

(٣) Van Berchem. (Journal Asiatique 1891—1892)

(٤) Vollers ص ٥٩ .

على أن جمهور مؤرخي مصر الإسلامية أجمع على أن صلاح الدين توفى قبل اتمام بناء القلعة والسور فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل فأتمها. كذلك أجمعت المراجع على أن البئر المعروفه بالحلزونى المحفورة بالقلعة هى من عمل صلاح الدين وكان الغرض من انشائها تخزين الماء داخل القلعة بواسطتها إذا حدث أن حوصرت القلعة. ولعل من المفيد أن أنقل وصف هذه البئر كما ذكرها ابن عبد الظاهر[1].

هذه البئر من عجائب الابنية تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقاله فى وسطها، وتدور البقر فى وسطها تنقل الماء من أسفلها، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجار وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء وقيل أن أرضها مساحة أرض بركة الفيل، وماؤها عذب. كذلك وصف القاضى ناصر الدين شافع بن على[2] هذه البئر فى كتابه «عجائب البنيان» أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة والمشاهد أنه ينزل إليها بمزلقان، ولم يكن هناك درج، وبئر يوسف هذه عبارة عن بئرين فوق بعضهما والماء بعد طلوعه من البئر السفلى ينصب فى البئر الثانية والمستعمل فى نقله سواقى القواديس وارتفاع البئر العليا من ابتداء أرض القلعة إلى قاعها خمسون متراً وثلاثة أعشار المتر وعمق البئر السفلى أربعون متراً وثلاثة أعشار متر فيكون مجموع الارتفاع من أرض القلعة إلى قاع البئر السفلى تسعين مترا وستة أعشار المتر أو مائتين وتسع وتسعين قدما وجميعه نقر فى الحجر، ومستوى ماء بئر يوسف تحت مستوى تحاريق النيل وماؤها به ملوحة قليلة.

من هذا الوصف الدقيق لهذه البئر نستطيع أن نرجح أنها كانت تكفى لسقاية القلعة على الأقل فى عهد صلاح الدين خاصة وأن بناءها لم يتم فى عهده أى أن عدد سكانها كان محدودا.

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢.

على أن الاستكشافات التى قام بها على بك بهجت فى الفسطاط[1] قد أوضحت الفقرات الغامضة فى نص المقريزى . فقد تبين من الكشف بأن سور صلاح الدين الممتد إلى الغرب من الفسطاط يلتقى بقناطر المياه عند الانثناء الكبير حيث يوجد سبيل (الوسية) الآن ، ثم يتجه جهة الشمال الشرقى نحو القلعة (انظر شكل ١) . وقد وجد فى أعلى سور صلاح الدين مجرى محفور فى الحجر ومغطى بألواح حجرية ، ويجاور الجزء المكشوف منه من الداخل حوضان يظهر أنهما كانا يملآن من ذلك المجرى ليشرب منهما عابرو السبيل[2] . ولذلك فانى أؤيد ما ذهب إليه الأستاذ كرزويل من أن المقريزى يعنى بلفظ « القناطر العتيقة » السور العتيق بالنسبة إلى أن السور كان يؤدى نفس عملية قناطر المجرى .

وقد توالت يد الإصلاح والتعمير لهذه القناطر فقد جاء فى المقريزى أن الأمير يلبغا السالمى أصلحها سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م) كذلك قام السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ببعض الاصلاحات ، فقد أنشأ بابا معقوداً عند التقاء المجرى بالسور ، ولا يزال الباب باقيا حتى اليوم يحمل اسم قايتباى وجزءا من تاريخ إنشائه وهو ٨٨ (انظر لوحة ٩) . ويرجح Casanova أن يكون هذا الباب هو باب الصفاء الذى ذكره المقريزى ، ولكنى أستبعد ذلك حيث أن المقريزى ذكر أن هذا الباب قد هدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس[3] .

وذكر ابن إياس[4] وكذلك أبو الفلاح[5] بن العماد أن الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى الذى حكم من سنة ٩٠٦ إلى سنة ٩٢٢ أنشأ المجرى.

---

(١) حفريات الفسطاط على بك بهجت ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الفسطاط : حسن الهوارى ص ١٢ .

(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٤) تاريخ مصر لابن اياس جـ ٣ ص ٦٢ .

(٥) شذرات الذهب ص ١٤ .

(٦) Casanova : The Citadel.

ويؤيد هذه الرواية سمة السلطان المنقوشة على أماكن متعددة من المجرى ونصها : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره (انظر لوحة ١) وهناك جامه أصلها من هذا المجرى ونقلت إلى متحف الفن الإسلامى تحت رقم (١٠٠) إلا أن هذه الجامات لا تحمل تاريخا وإن كان **Casanova** يقول أن الغورى أنشأها سنة ٩١١ هـ أى سنة ١٥٠٥م ويقول **Jomard**[١] حوالى سنة ٩٠٧ هـ سنة ١٥٠١م .

وإذا مددنا خطا من جامع زين العابدين يتقاطع مع الواجهة الشمالية للمجرى وجدنا لوحتين تذكاريتين باسم عبدى باشا يتبين منهما أنه قام ببعض الإصلاحات للمجرى عام ١١٤٠ هـ — ١٧٢٨ م (انظر لوحة ٢) وقد نقلت اللوحتان إلى متحف الفن الإسلامى تحت رقم ٤٢٣١ ، ٤٢٣٢ . ومما هو جدير بالملاحظة أننا نجد على جانبى الكتابة باللوحتين التذكاريتين رسم حيوانين اعتقد أنهما رنك عبدى باشا ويوجد مثل هذا الحيوان على احدى الدعائم السائدة القريبة من سكة حديد حلوان (انظر لوحة ٣) ولذلك فإن كرزويل[٢] يرجع الدعائم الشبه دائرية إلى اصلاحات عبدى باشا (لوحة ٤) .

ثم جاءت الحملة الفرنسية وأحدثت كثيراً من التغيرات بهذا المجرى ، فقد ورد فى الجبرتى[٣] فى ذكر ما هدمه الفرنساوية وخربوه وما أحدثوه من العمائر ما يأتى ، سدوا أبواب الميدان من ناحية الرسيلة وناحية عرب اليسار وأوصلوا سور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سورا بذاتها ولم يبقوا منها إلا قوصرة

---

(١) **Jomard : Description de L'Egypt.**

(٢) **Creswell : P. 22.**

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ١٦٥ .

واحدة ناحية الطيبي جهة مصر القديمة جعلوها بابا ومسلكا وعليها الكرنك والغفر والعساكر الملازمون الاقامة بها ، ولقبض المكس من الخارج والداخل وسدوا الجهة المسلوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب بقفل مقفص أيضاً وعليه حرسجية ملازمون القيام عليه وذلك حيث سواقى المجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة وحفروا خلف ذلك خندقا » .

تسمية المجرى :

ومن العجيب أنه على الرغم من عظم شأن هذا المجرى وكثرة ورود ذكره فى المراجع التاريخية إذ ذكره المقريزى وأبو المحاسن وابن إياس والسخاوى وابن حجر العسقلانى والسيوطى وابن دقاق وابن العماد وغيرهم فان أحدا لم يسمه .

ولكننا نجد فى بعض الكتب الحديثة تسمية له فقد سمى « بقناطر[1] صلاح الدين » ، ولعل ذلك يرجع إلى أن أول من فكر فى توصيل مياه النيل إلى القلعة فى مجرى مرتفع هو صلاح الدين ، إذ استخدم السور ، كمجرى للمياه . أو لعله قد التبس الأمر على بعض الكتاب وظنوا أنها القناطر التى أنشأها صلاح الدين غرب النيل فقد ذكر ابن جبير[2] والمقريزى[3] وغيرهما من المراجع أن صلاح الدين أقام قناطر غرب النيل مكونة من أربعين قنطرة .

وفى كتاب[4] وصف مصر للحملة الفرنسية جاء ذكر هذا المجرى تحت اسم (السبع سواقى) . ولما كانت جميع البيانات والمعلومات التى جاءت

(١) محاضر جلسات لجنة حفظ الآثار رقم ( ) Lane Poole p. 205 .

(٢) ابن جبير جـ ٢٠ .

(٣) المقريزى جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) Le Description de L'Egypte p.465.

فى كتاب « وصف مصر » صحيحة ودقيقة ، فإن تسميته للمجرى بهذا الاسم لابد وأن تعتمد على أحد أمرين :

١ — أما أن تكون الحملة الفرنسية استعملت الاسم الذى استعملته المراجع القديمة ، وسبق أن بينا أنه على الرغم من كثرة المراجع التى ذكرت الأثر فإنها لم تسم المجرى .

٢ — أو أن تكون التسمية مطابقة للمسمى وفى هذه الحالة لابد وأن يكون بالمجرى سبع سواقى ، وهذا يخالف الواقع الموجود الآن ، إذ الباقى الآن ست سواقى .

ولقد وجدت رسما للمجرى يرجع إلى سنة ١٨٤٠ فى كتاب «القاهرة[١]» أى بعد مجىء الحملة الفرنسية بأربعين عاما تقريباً ونجد فى هذا الرسم مبنى صغيرا على حافة النيل مباشرة وملتصق برأس المجرى (لوحة رقم ٥) . وليس من المستبعد بل من المرجح أن يكون هذا المبنى مكان الساقية السابعة . ويمكن تعليل وجود هذا المبنى الصغير إذا عرفنا أن ساحل النيل فيما يجاور القاهرة لم يثبت على حالة واحدة ، بل ينتقل من الشرق إلى الغرب ، وهذه الحركة يرجع عهدها إلى ما قبل الهجرة النبوية لم تقف بل استمرت إلى يومنا هذا[٢] (انظر شكل ١) . وعلى ذلك فمن المحقق أن رأس المجرى قد بعد عن شاطىء النيل ومن ثم أنشئت الساقية السابعة لتغذية الست السواقى الموجودة برأس المجرى ولعلها تكون من الاصلاحات التى قام بها عبدى باشا .

وصف المجرى :

يبلغ طول المجرى الموجود حاليا والذى يمتد من فم الخليج إلى باب

---

(١) Cairo, by Robert Hay, PL. 1,

(٢) حفريات الفسطاط ص ١٩ .

السيدة عائشة ٣ر١ كيلومترات تقريبا . ويفصل شارع الكورنيش الآن بين رأس المجرى وبين النيل ، ثم يمتد المجرى جهة الشرق فى خط متكسر الغرض منه إحداث انثناءات طفيفة فى سير المجراه حتى يزيد من قوة دفع المياه (انظر شكل ٢) . ويستمر سير المجرى نحو الشرق حتى يلتقى بسبيل « الوسيه » (انظر شكل ١) حيث يوجد باب قايتباى الذى سبق الإشارة إليه . ويبلغ طول المجرى من مبدئه حتى سبيل « الوسية » حوالى ٢ر٢ كيلومترا ، ثم يتغير سير المجرى ويتجه إلى الشمال الشرقى فيمر أمام مسجد « الزمر » ثم ينتهى عند باب السيدة عائشة ويبلغ طول المجرى من سبيل « الوسية » حتى مسجد الزمر نصف كيلومتر ومن مسجد الزمر حتى باب السيدة عائشة ما يقرب من ٤٠٠ مترا .

والمجرى مقامه على قناطر يبلغ عدد العقود الباقية منه الآن ٢٧١ عقدا ، ومعظم العقود على شكل شبه دائرى . وقد أجرى للمجرى عدة اصلاحات كما أدخل عليه بعض التغيرات ، إما لتصدع البناء كما حدث فى العصر العثمانى على يد عبدى باشا سنة ١١٤٠ هـ — ١٧٢٨ م أو لاتخاذها استحكاما حربيا وذلك فى عهد الحملة الفرنسية ، فقد سد معظم عقود المجرى واستخدم كسور . ولذلك فإن القناطر الموجودة الآن بعضها باق بحالته الأصيلة ويبلغ عددها ١٧٣ قنطرة ، والبعض له (جلس) للتقوية ويبلغ عددها ٣٣ قنطرة (لوحة ٦) ، ويبلغ عدد القناطر التى سدت ٢٦ قنطرة (لوحة ٧) ، أما عدد القناطر التى أنشئت فوق سور صلاح الدين فيبلغ عددها ٣٩ قنطرة (لوحة ٨) ويبلغ ارتفاعها ٣٥ر٤ مترا فوق السور . لقد جاء فى وصف المجرى فى كتاب الحملة الفرنسية ، وكذلك فى الجبرتى أن عدد قناطر المجرى يبلغ ٣٠٠ قنطرة ، ولما كان الباقى منها الآن ٢٧١ قنطرة ، إذن فقد هدمت ٢٩ قنطرة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن سمة السلطاة الغورى ما زالت باقية فى

أجزاء كثيرة من المجرى ، فهناك مداليه على رأس المجرى المطل على شارع الكورنيش (انظر لوحة ١) وهناك مداليتان على الوجه الجنوبى للمجرى على العقد السادس (انظر شكل ٢ : ب ، ج) . وبمتحف الفن الاسلامى مداليه تحت رقم (١٠٠) مأخوذة من المجر تحمل اسم السلطان الغورى . وعلى الوجه الجنوبى أيضا بعد تقاطعه بسكة حديد حلوان توجد مدالية خامسة (شكل ٢ هـ) . كما توجد مداليتان على العقد السادس فى الوجه الجنوبى بعد تقاطع شارع سوق المواشى بالمجرى (شكل ٢ و ، س) .

وفى الجزء المتوسط من المجرى توجد دعائم سانده يبلغ عددها ٢١ دعامه ممتدة على مسافات غير متساوية ، بعضها شبه دائرى ويبلغ عدده ١٥ دعامة والآخر مربع ويبلغ عدده ٦ دعامات . ويقول كرزويل[١] أن هذه الدعائم مستحدثة لأنها لا تتصل بدماميك الاكتاف التى ترتكز عليها (انظر لوحة ٤) ، كذلك يعتقد كرزويل أن الدعائم الشبه مستديرة والتى يبلغ عددها ١٥ دعامة كلها من عمل عبدى باشا أى ترجع إلى سنة ١٧٢٨ م .

والمجرى مبنى بالحجر (الدستور)[٢] المسنم فى معظم اجزائه ، أما باطنه فمحشو بالحجارة (انظر لوحة ١٠) . وهناك اجزاء قليلة من المجرى مبنية من الحجر الاملس ويرجع كرزويل كل الاجزاء الملساء فى المجرى إلى عبدى باشا ، ولكنى استثنى من ذلك رأس المجرى ، فهو مبنى من الحجر الاملس أرجح أنه من عمل السلطان الغورى .

وفى أعلى المجرى يوجد تجويف مبنى بالملاط يبلغ عرضه ٧٦ سم وعمقه ٥٠ سم ، وهو الجزء المخصص لجريان المياه (لوحه ١٠) .

رأس المجرى :

يتكون رأس المجرى من شكل سداسى تبلغ مساحته ٨٥ ر ٦٢٥ مترا

(١) Creswell : 92

(٢) استعمل صلاح الدين الأحجار المسنمة من قبل فى سوره .

مربعا وهو غير متساو الاضلاع (انظر شكل ٣) اذ يبلغ طول الضلع [١] ٨ ر ٢٢ مترا والضلع ا[٢] ٨ ر ٢١ مترا والضلع ا[٣] ٢ ر ١٨ مترا والضلع ا[٤] ٦ ر ٢٦ مترا والضلع ا[٥] ٨ ر ٢١ مترا والضلع ا[٦] ٨ ر ٢١ مترا . ويبلغ ارتفاع رأس المجرى ٤ ر ١٨ مترا ، وقد ورد فى كتاب « القاهرة »[١] أن ارتقاع رأس المجرى يبلغ ٦٨ قدما أى ٤ ر ٢٠ مترا ، ومعنى هذا أن الاتربة تغطى مترين من أساس المجرى .

والضلع رقم ا[٦] هو الضلع المطل على شارع الكورنيش الآن . وكل وجه من الاوجه الستة محلى بعقدين شبه دائريين انظر (لوحه ا) وتبلغ فتحة العقد ٨ ر ٢ مترا وارتفاعه ١٦ مترا (انظر شكل ٣ الواجه) ويبلغ عمقه ١١ مترا ما عدا العقدان الموجودان فى الضلع [٣] فيبلغ عمق كل منهما ٨ ر ١١ مترا . ويوجد تجويف واحد بكل من العقود الاثنى عشره الموجوده باضلاع المأخــــذ الستة ما عدا عقد واحد بالضلع ا[٣] به تجويفان .

وبداخل الشكل السداسى الخارجى يوجد سداسى آخر متساوى الاضلاع يبلغ طول كل ضلع منه ٨ مترا ، ويتوسط السداسى الداخلى عمود يبلغ قطره ١٦ ر ٣ مترا ويحيط بالمسدس من الداخل ستة عقود يبلغ فتحة كل منها ٩ ر ٣ مترا وترتكز هذه العقود على اكتاف عرضها ٩ ر ١ مترا وتبرز العقود عن المسدس الداخلى بمقدار ٥٤ ر ١ مترا . وهذه المسافة مكشوفة وغير مغطاة من أعلى . والمأخذ مغطى من الداخل بستة أقباء متقاطعه (مصلّبات) مبنية بالطوب ، أما باقى بناء المأخذ فبنى من الحجر الاملس وباطنه محشو بالحجارة (الردش) كما هو الحال فى باقى القناطر . وعلى ارتفاع ثلثى العمود المتوسط توجد ستة نتوءات يقابلها ستة نتوءات فى اكتاف العقود الستة ومن المرجح أن تكون هذه النتوءات المتقابلة بقايا سته عقود،

---

(١) Robert Hay : Cairo p.

كان الغرض منها ربط المأخذ بالعمود المتوسط للتقوية ، وقد تهدمت مع مرور الزمن .

كيفية عمل السواقى :

يصعد إلى سطح المأخذ (بمزلقان) ليس به درج ، ولعل ذلك عمل خصيصا لصعود الدواب التى تستخدم فى ادارة السواقى . ويوجد فى وسط السطح حوض تحيط به ستة فتحات هى المسافة المتروكة بين العقود والمسدس الداخلى التى سبقت الاشارة اليها ، وقد خصصت هذه الفتحات لكى تدور فيها العجلة التى تربط بها القواديس التى تجلب الماء من باطن المأخذ ثم تصبه فى الحوض المتوسط ، والحوض متصل بمجراه ، فاذا امتلأ الحوض بالمياه صب فى هذه المجراه ومنها تسير المياه إلى باقى القناطر . وتتصل الفتحات الست بمجراه بهاعمود خشبي يتصل بعجلتين بهما (تروس) احدهما فى وضع أفقى وهذه هى التى يحركها البقر والاخرى فى وضع رأسى متصلة بالعمود الخشبى الذى يدير بدورة العجلة ذات القواديس بداخل الفتحات (شكل ٣ مسقط السطح) .

وعلى ذلك فانه يوجد بأعلى المأخذ ست سواق تعمل بنفس الطريقة التى ما زالت تستعمل فى الريف المصرى حتى اليوم (انظر شكل ٤) .

الخلاصة :

من هذا السرد المتقدم لآراء المؤرخين وعلماء الآثار يتبين لنا أن حجتنا فى هذا الموضوع هو النص الذى أورده المقريزى ، وعلى ضوء هذا النص واعتمادا على الاستكشافات التى أجرتها مصلحة الآثار بالفسطاط ودارسة الاثر دراسة دقيقة نخلص إلى الآتى : —

أولا — أنه تم فى العهد الايوبى توصيل مياه النيل من منطقة رباط

الآثار جنوبى الفسطاط إلى قلعة الجبل بواسطة السور الذى عبر عنه المقريزى بالقناطر العتيقه ، ويؤيد المقريزى فى ذلك حفريات الفسطاط التى كشفت عن وجود مجرى للمياه منحوت فى الحجر ومغطى بألواح حجرية فى سور صلاح الدين ، أضف إلى ذلك وجود الحوضين المبنين بالسور واللذين يرجح أنهما كانا يملآن بالماء لكى يشرب منهما عابر والسبيل .

ثانيا — اعتنى الملك الناصر محمد بن قلاوون عناية عظيمة بنقل مياه النيل إلى القلعة فأقام المنشآت الآتية : —

(١) أنشأ سنة ٧١٢ هـ[١] أربع سواق على بحر النيل تنقل المياه إلى السور ثم من المؤكد أن يكون مكان هذه السواقى الأربع ، هو عند التقاء السور بالنيل من الجهة الجنوبية أى عند رباط الآثار .

(٢) سنة ٧٤١ اهتم الملك الناصر بسوق الماء إلى القلعة وتكثيرها فأمر بحفر بئر أخرى عند ساحل النيل واقام عليها قناطر تتصل بالقناطر العتيقة «أى سور صلاح الدين» حيث يوجد مجرى أخر للماء ، فيجتمع الماء من بئرين بئر سور صلاح الدين وبئر القناطر ويصير ماء واحداً يجرى إلى القلعة[٢]. ويستفاد من هذا أن القناطر التى أنشأها الناصر محمد كانت فى مستوى سور صلاح الدين لأنه لم يرد فى نص المقريزى ولا فى غيره من المراجع ، ما يفيد أن الناصر ارتفع بالسور أو أقام قناطر على السور حتى يصل إلى مستوى قناطره الجديدة . ولما كان ارتفاع السور وكذا قناطر مجرى المياه أقل ارتفاعا من القلعة ، فقد أصبح من الواجب انشاء عدة سواق فى أماكن متعددة لرفع المياه إلى القلعة ، وهذا ما عمله الناصر محمد فقد أنشاء للمياه آباراً وجعل عليها سواقى نقاله فى عدة أماكن[٣] .

---

(١) المقريزى جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٢) المقريزى جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٣) تاريخ مصر لابن اياس جـ ١ ص ١٦٠ .

نخلص من هذا أن القناطر القائمة الآن ليست من عمل الناصر محمد لأنها أعلى من سور صلاح الدين مما استوجب انشاء قناطر أخرى على سور صلاح الدين ، وذلك عند التقاء القناطر بالسور عند سبيل الوسيه .

ومن التحقيقات المعمارية يتبين لنا أن القناطر المقامه على السور تختلف الأحجار المستعملة فى بنائها عن أحجار السور ، فمقاس « المدماك » الذى بالسور يبلغ ٤٣ سم تقريباً وهو نفس مقاسات الأحجار التى استعملت فى باقى أسوار صلاح الدين ، أما مقاس « مدماك » القناطر فيبلغ ٣٦ سم وهو نفس مقاسات الأحجار المستعملة فى معظم اجزاء القناطر ونفس المجرى الذى يوجد عليه رنك السطان الغورى .

ثالثا — من المرجح أن يكون الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى قد أزال المجري الذى انشأه الناصر محمد وأقام مكانه مجرى جديداً وذلك لسببين هامين :

(١) ليرتفع بالمجرى حتى يصل إلى مستوى قريب من ارتفاع القلعة .

(٢) إن المتتبع لطوبوغرافية مدينة القاهرة يجد أن النيل ينتقل باستمرار جهة الغرب ، وعلى ذلك فإنه فى المدة التى انقضت بين الملك الناصر والسلطان الغورى وتبلغ قرابة قرنين من الزمان ؛ بعد المجرى أو القناطر عن شاطىء النيل ، وعلى هذا فليس من المعقول أن يكون مكان رأس القناطر الموجود الآن على النيل هو نفس المكان الذى أقام عليه الناصر رأس قناطره . كذلك ذكر ابن اياس[١] أن الغورى أنشاء المجرى ، ولم يقل اصلحها .

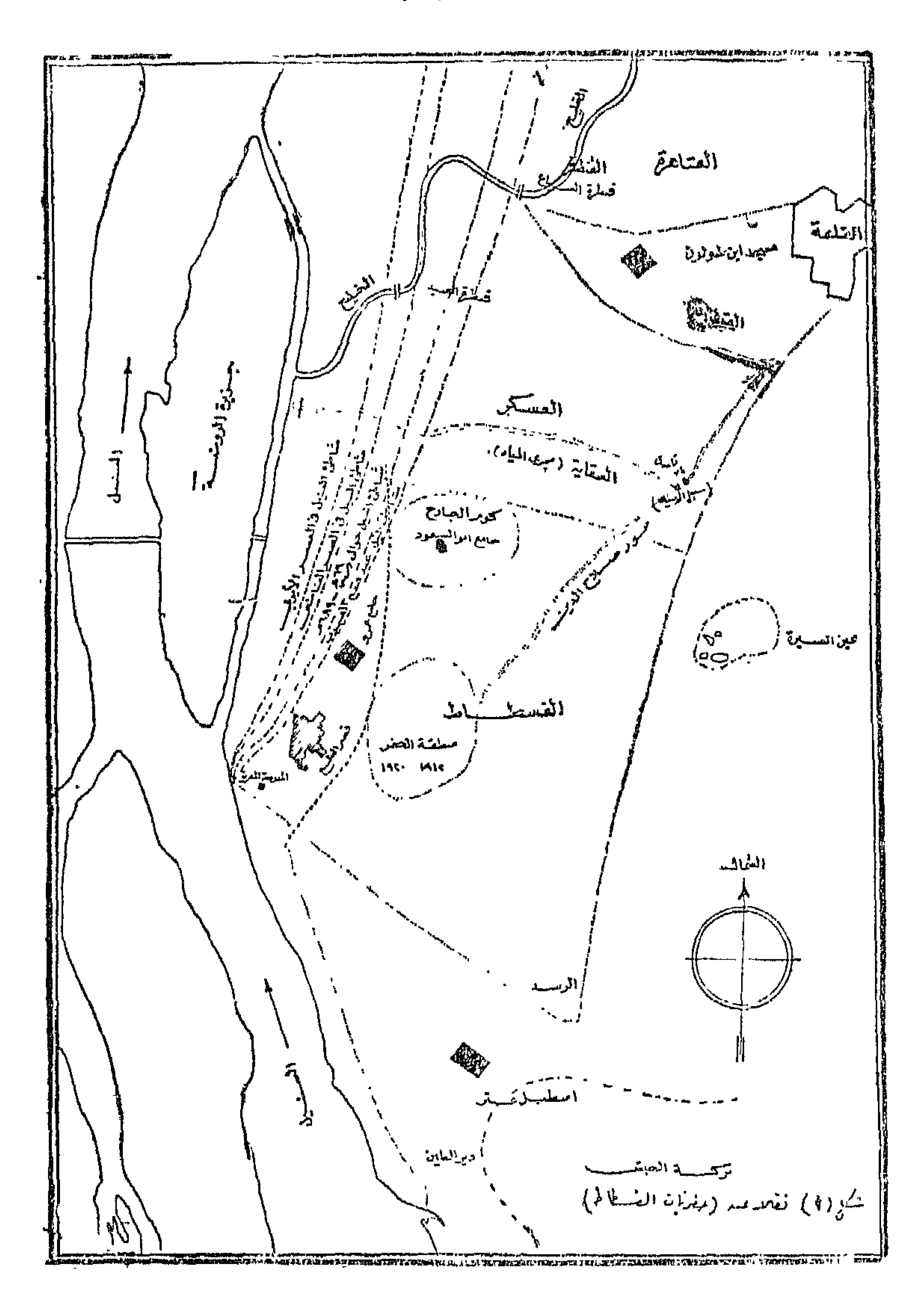
---

(١) ابن اياس جـ ٣ ص ٦٢ .

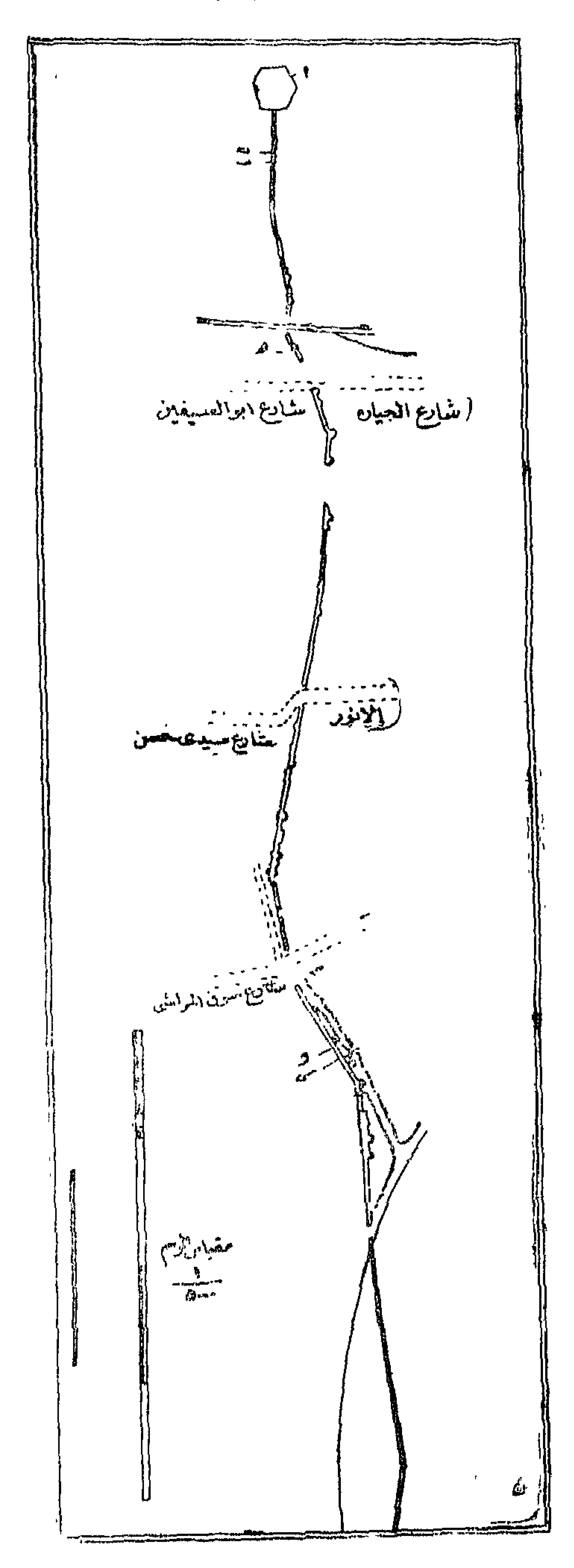
مما تقدم أستطيع القول فى ثقة واطمئنان أن أول من أنشأ مجرى مياه فم الخليج هو الناصر محمد عام ٧٤١ هـ، وأصلحت سنة ٨١٢ هـ على يد الأمير يلبغا السالمى، ثم أعاد بناءه السلطان الغورى سنة ٩١١ هـ. وفى العهد العثمانى أصلح عبدى باشا بعض اجزائه سنة ١١٤٠ هـ — ١٧٢٨ م ثم جاءت الحملة الفرنسية فسدت معظم عقود القنـــاطر واستخدمته سوراً تحتمى وراءه .

سعاد ماهر

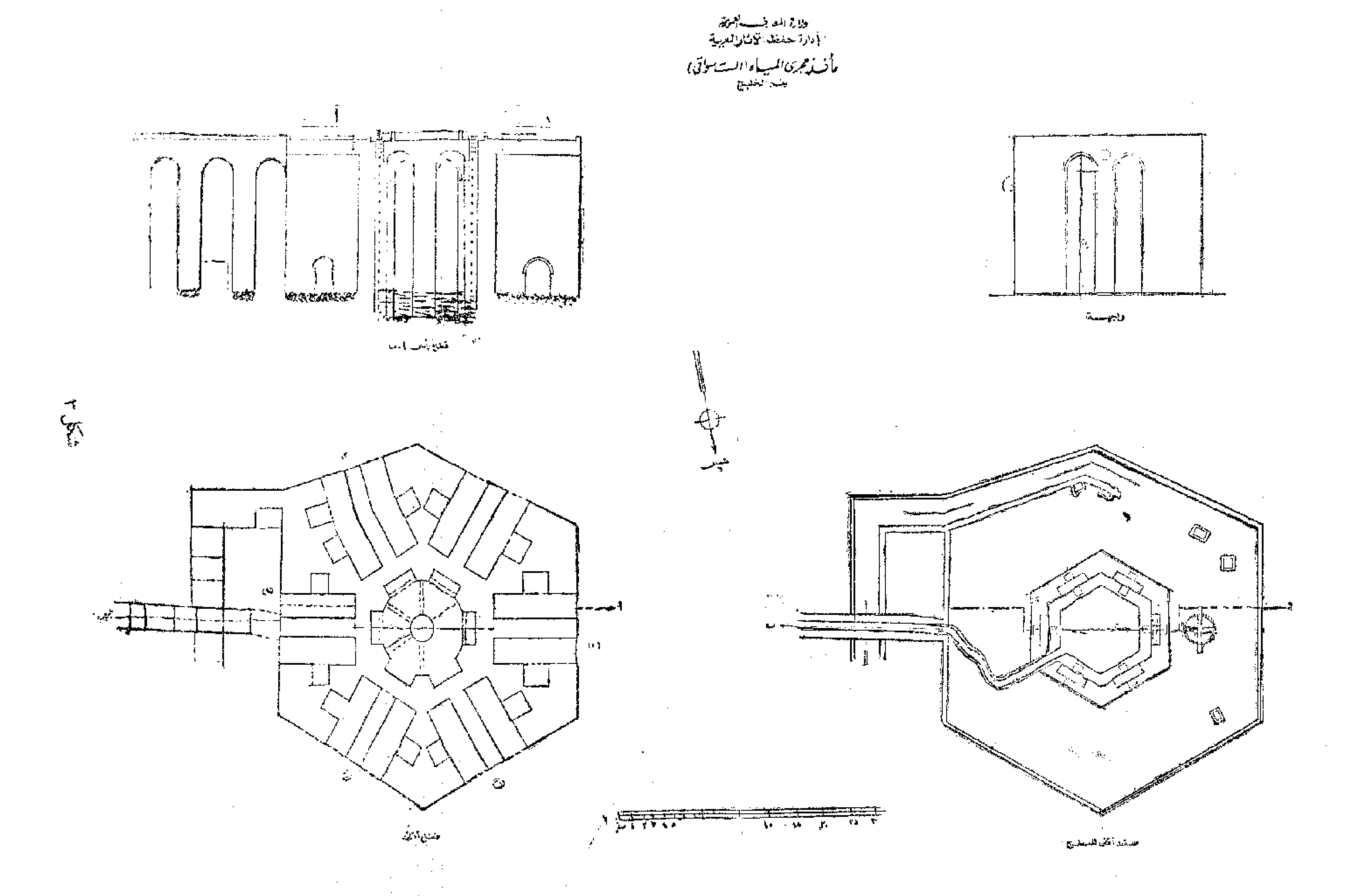
شكل (١)

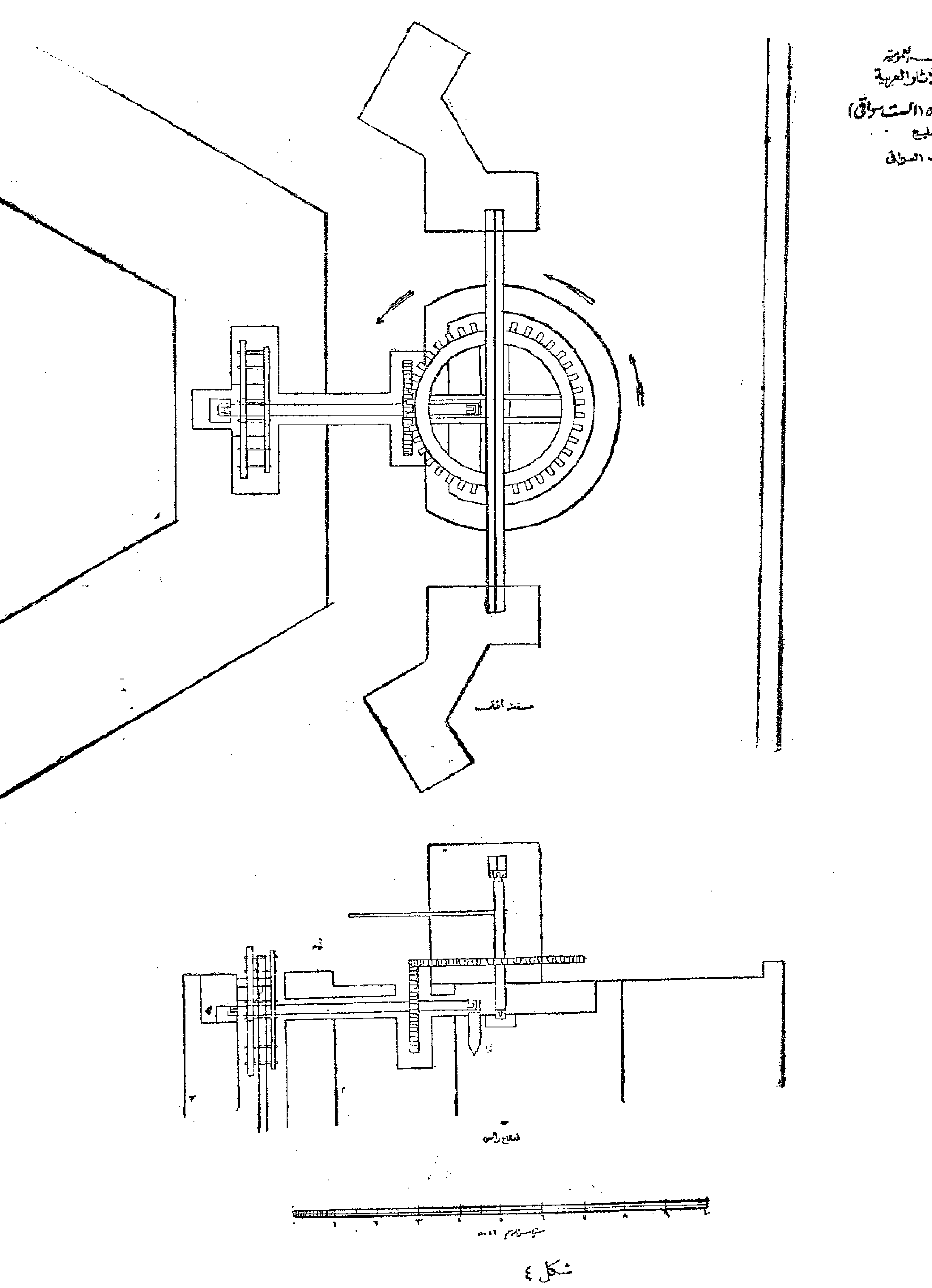

القاهرة
القلعة
الخليج
قنطرة السباع
مسجد ابن طولون
قنطرة السد
جزيرة الروضة
النيل
العسكر
السقاية (عين المياه)
كوم الجارح
جامع ابو السعود
عين الصيرة
الفسطاط
منطقة الحفر ١٩١٢ - ١٩٢٠
الشمال
الرصد
اصطبل عنتر
بركة الحبش
شكل (١) تخطيط عام (حفريات الفسطاط)

شكل (٢)



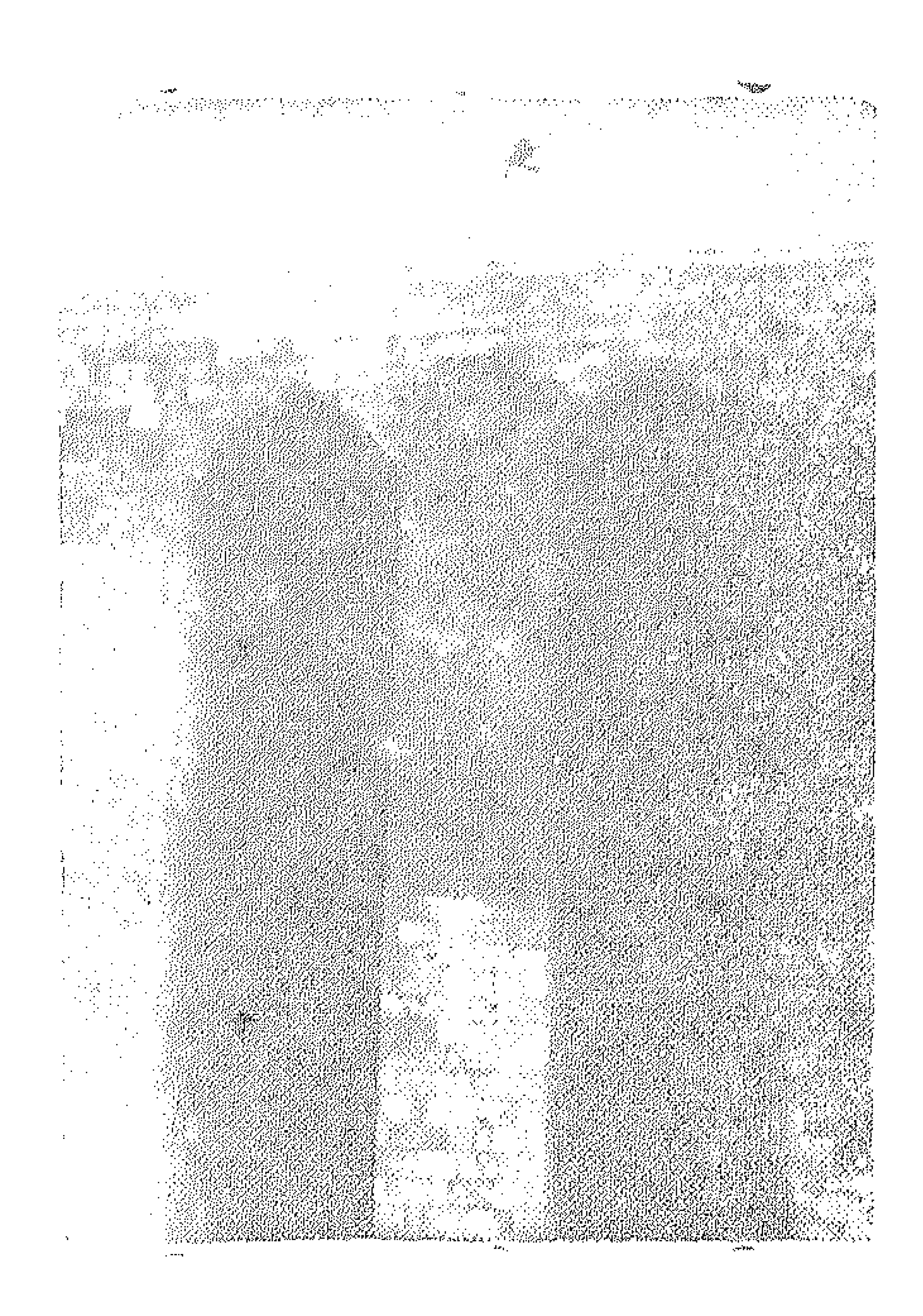
[نقلا عن كرزويل]


إدارة حفظ الآثار العربية
مأخذ مجرى المياه
بفم الخليج
قطاع رأسي أ-أ
واجهة
شكل ٣
مسقط أفقي
مسقط أفقي للسطح

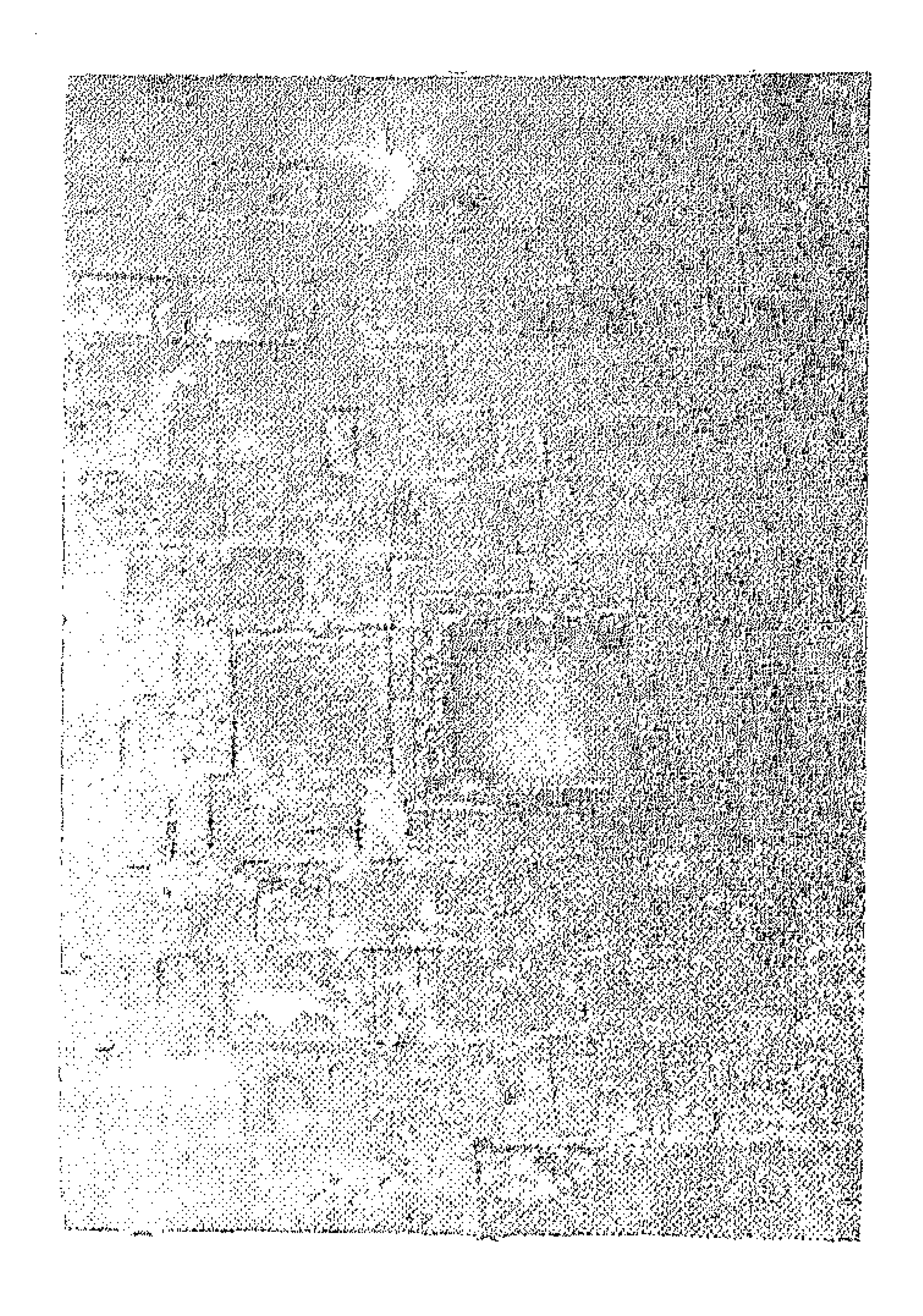

وزارة المعارف العمومية
إدارة حفظ الآثار العربية
مأخذ مجرى المياه (الست سواقي)
بفم الخليج
رسم إحدى السواقي
مسقط أفقي
قطاع رأسي
٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠
مقياس الرسم

شكل ٤

لوحة ١



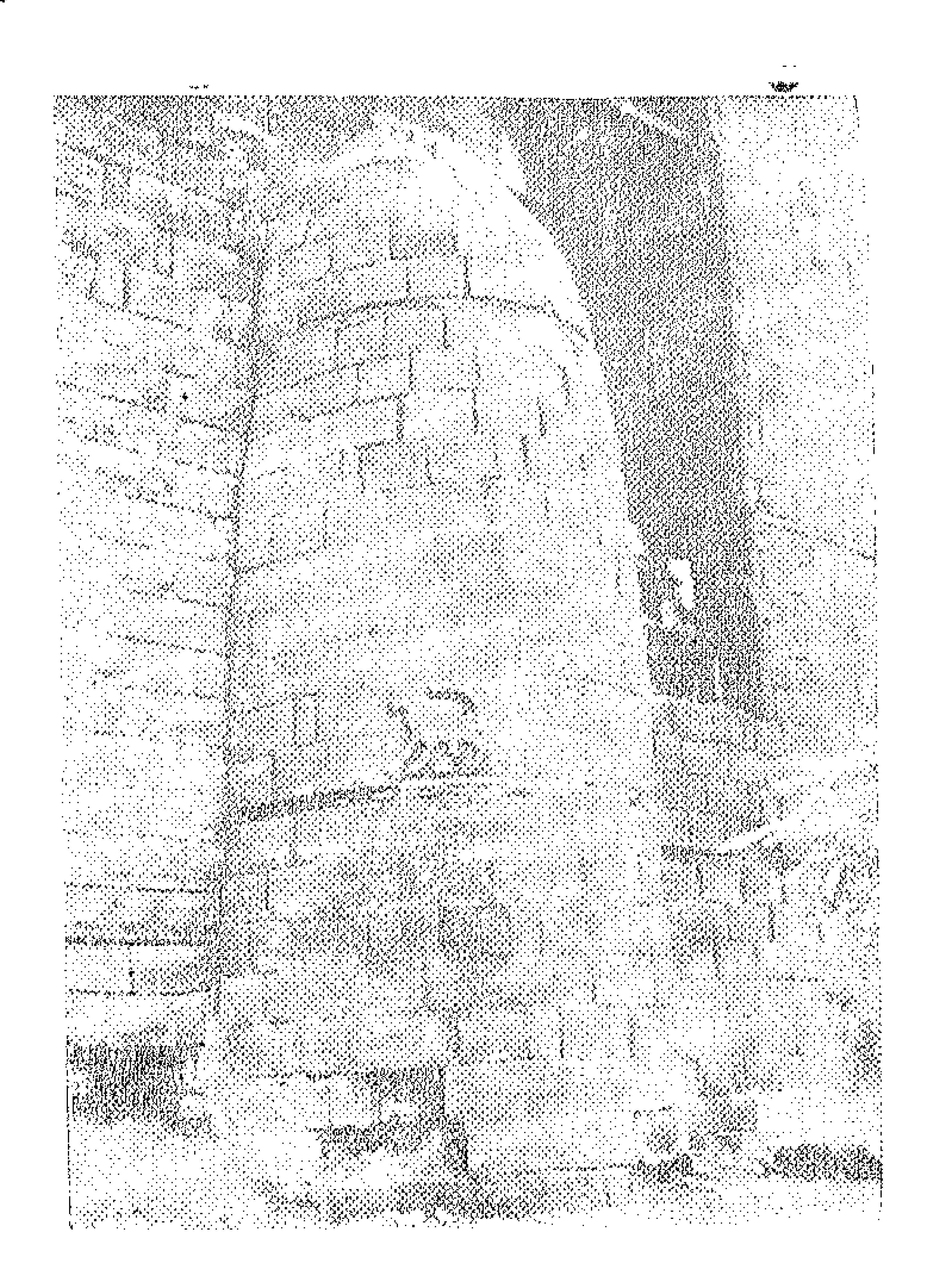
لوحة ٢



لوحة ٣

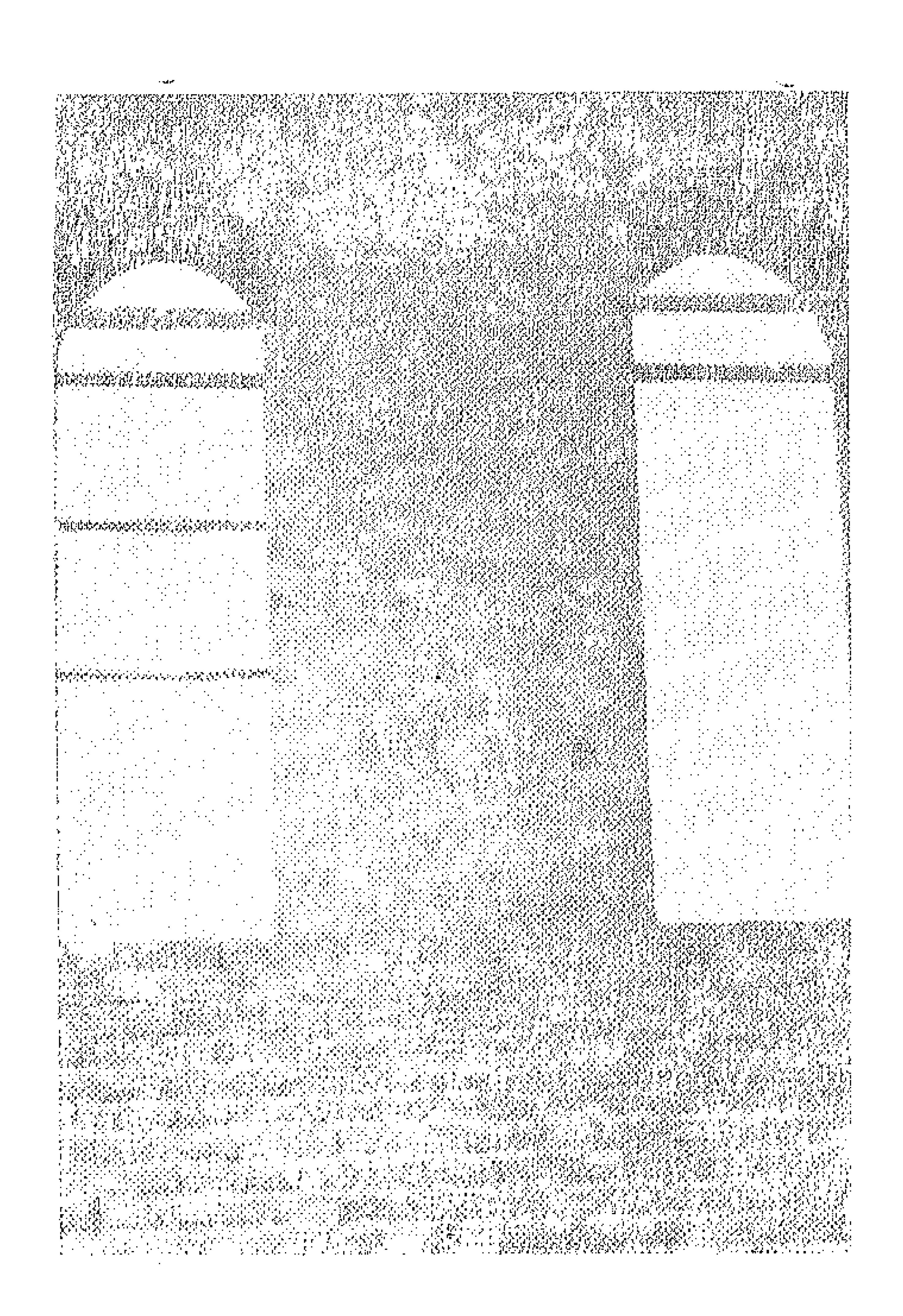


لوحة ٤



لوحة ٥

لوحة ٦



لوحة ٧

لوحة ٨



لوحة ٩



لوحة ١٠



النصوص

ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى

تمهيد :

عندما ابتدأت لجنة المجمع للمصطلحات التاريخية والجغرافية تباشر عملها . اتجهت إلى البحث عن القواعد التى تقيم عليها وضع هذه المصطلحات . وقد وجدت اللجنة أن المؤرخين يستمدون المصطلحات التى يستخدمونها من العلوم والفنون الأخرى ، أى ليس للتاريخ مصطلحات خاصة به . والخوارزمى ، فى كتابه مفاتيح العلوم ، دل اللجنة على ما يجب عليها أن تقوم به فى هذا الشأن . فطريقة الخوارزمى هى أن يستعرض الكتب التاريخية والجغرافية ويستخرج منها ما سماه الألفاظ التى يكثر ورودها فى تاريخ الروم أو فارس أو فى المغازى إلخ . . .

ونظراً للقيمة الكبيرة لهذا الكتاب فقد قامت اللجنة بضبط وشرح الألفاظ الاصطلاحية الواردة فيه وعرضته على المجلس لإقراره ووضعه تحت تصرف الباحثين . وقد قام بهذا البحث الأستاذ يحي الخشاب عضو اللجنة .

رئيس اللجنة

محمد شفيق غربال

---

* نشرت هذه المصطلحات بإذن الأستاذ الجليل رئيس المجمع .

من كتاب «مفاتيح العلوم» للخوارزمى[1]

الباب الثانى

فى الكلام وهو سبعة فصول

الفصل الأول : فى مواضعات متكلمى الإسلام فيما بينهم .

الفصل الثانى : فى ذكر أرباب الآراء والمذاهب من أهل الإسلام .

الفصل الثالث : فى ذكر أصناف النصارى ومواضعاتهم .

الفصل الرابع : فى ذكر أصناف اليهود ومواضعاتهم .

الفصل الخامس: فى ذكر أرباب الملل والنحل .

الفصل السادس: فى ذكر عبدة الأوثان من العرب وأصنامهم .

الفصل السابع : فى وصف الأبواب التى يتكلم فيها المتكلمون من أصول الدين .

الفصل الأول

فى مواضعات متكلمى الإسلام

الشىء هو ما يجوز أن يُخبر عنه وتصح الدلالة عليه .

المعدوم هو ما يصح أن يقال فيه هل يوجد .

والموجود هو ما يصح عنه سؤال السائل هل يعدم إلى أن يجاب عنه بلا ونعم وقيل الموجود هو الكائن الثابت .

---

(١) أبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى ، عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

والمعدوم هو المنتفى الذى ليس بكائن ولا ثابت .

القديم هو الموجود لم يزل .

المحدَث هو الكائن بعد أن لم يكن .

الأزلى الكائن لم يزل ولا يزال .

الجوهر هو المحتمل للأحوال والكيفيات المتضادات على مقدارها ، وعند المعتزلة المتكلمين أن الأجسام مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ وهى الجواهر عندهم .

والخَط عندهم المجتمع من الجواهر طولا فقط .

والسطح ما اجتمع من الجواهر طولا وعرضا فقط .

والجسم عندهم المجتمع من الجواهر طولا وعرضا وعمقا .

والعَرَض أحوال الجوهر كالحركة فى المتحرك والبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود . فأما هذه الأشياء على رأى الفلاسفة والمهندسين فعلى خلاف ما ذكرته فى هذا الباب . وسأذكرها فى أبوابها إن شاء الله عند ذكر أقاويلهم .

أيس هو خلاف ليس ،

قال الخليل بن أحمد ليس إنما هى لا فى أيس فأسقطوا الهمزة وجمعوا بين اللام والياء ، والدليل على ذلك قول العرب : ايتنى بكذا من حيث أيس وليس .

الذات نفس الشىء وجوهره .

الطفرة الوثوب فى ارتفاع ، تقول طَفَرت الشىء أطفِره طفْراً إذا وثبت فوقه ، والطفرة المرة الواحدة .

الرَّجْعَة[1] عند بعض الشيعة رجوع الإمام بعد موته ، وعند بعضهم بعد غيبته .

التحكيم قول الحرورية لا حكم إلا لله وهم المحكِّمة .

الفصل الثانى

فى ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين

وهى سبعة مذاهب :

المذهب الأول : المعتزلة ويتسمون بأصحاب العدل والتوحيد وهم ست فرق[2]:

الأولى : الحَسَنية ، وهم المنتسبون على زعمهم إلى الحسن البصرى .

الثانية : الهُذَيليه[3] ، أصحاب أبى الهُذَيل العَلاّف .

الثالثة : النظّامية[4] ، أصحاب ابراهيم بن سيّار النظام .

الرابعة : المَعْمَرية[5] ، أصحاب مَعْمَر بن عبّاد السُلَمى .

الخامسة : البِشْرِية[6] ، نسبوا إلى بشر بن المُعْتَمِر .

السادسة : الجاحظية[7] ، أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ .

المذهب الثانى : الخوارج وهم أربع عشرة فرقة[8] :

الأولى : الأزارقة[9] ، ينسبون إلى نافع بن الأزرق ،

الثانية : النَجَدَات[10] ، أصحاب نَجْدة بن عامر الحَنَفى .

الثالثة : العجاردة[11] ، نسبوا إلى عبد الكريم بن العجرد .

الرابعة : البِدْعِيَّة ، رئيسهم يحي بن أصرم ، سموا البدعيَّة

لأنهم أبدعوا قطع الشهادة على أنفسهم أنهم من أهل الجنة .

الخامسة : الحازمية[12] ، نسبوا إلى شعيب بن حازم .

السادسة : الثعالبة[13]

السابعة : الصُفرية[14] ، أصحاب زياد بن الأصفر .

الثامنة : الإباضية[15] ، أصحاب عبد الله بن إباض .

التاسعة : الحَفْصية[16] ، أصحاب حفص بن (أبى) المِقْدَام .

العاشرة : اليزيدية[17] ، أصحاب يزيد بن أبى أُنَيْسة .

الحادية عشرة : البَيْهَسيَّة[18] ، نسبوا إلى أبى بَيْهَس الهَيْصم بن جابر .

الثانية عشرة : الفضلية[19] ، أصحاب الفضل بن عبد الله .

الثالثة عشرة : الشمراخية ، أصحاب عبد الله بن شِمرَاخ .

الرابعة عشرة : الضَحاكية[21] ، أصحاب الضحاك بن قيس الشارى .

المذهب الثالث : أصحاب الحديث[22] وهم أربع فرق :

الأولى : المالكية ، أصحاب مالك بن أنس .

الثانية : الشافعية ، أصحاب محمد بن إدريس الشافعى .

الثالثة : الحنبلية ، أصحاب أحمد بن حنبل .

الرابعة : الداوُدية ، أصحاب داود بن على الإصفهانى .

المذهب الرابع : المجبرة[23] وهم خمس فرق :

الأولى : الجَهْمية ، أصحاب جهم بن صفوان الترمذى .

الثانية : البطيخية ، نسبوا إلى اسمعيل البطيخى .

الثالثة : النجارية[٢٤] ، نسبوا إلى الحسين بن محمد النجار .

الرابعة : الضرارية ، نسبو إلى ضرار بن عمرو .

الخامسة : الصبّاحيّة ، أصحاب صبّاح بن معمر .

المذهب الخامس : المُشَبهة[٢٥] وهم ثلاث عشرة فرقة :

الأولى : الكُلابية ، نسبوا إلى محمد بن كُلاب .

الثانية : الأشعرية ، أصحاب على بن اسمعيل الأشعرى .

الثالثة : الكرّامية ، نسبوا إلى محمد بن كَرّام السجستانى .

الرابعة : الهشَامية[٢٦] ، أصحاب هشام بن الحكم .

الخامسة : الجواليقية ، أصحاب هشام بن عمر الجواليقى .

السادسة : المُقاتِلية ، أصحاب مقاتل بن سليمان .

السابعة : القضائية ، نسبوا إلى ذلك لزعمهم أن الله ، تبارك وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، هو القضاء .

الثامنة : الحُبيّة ، سموا بذلك لزعمهم أنهم لايعبدون الله خوفا ولا طمعا وأنهم يعبدونه حباً .

التاسعة : البيانية ، أصحاب بيان بن سمعان .

العاشرة : المُغيرية ، نسبوا إلى المغيرة بن سعيد العِجلى .

الحادية عشرة : الزُرارية ، أصحاب زُرارة بن أعين بن أبى زرارة .

الثانية عشرة : المنهاليه ، اصحاب المنهال بن ميمون العجلى .

الثالثة عشرة : المُبَيضَة ، أصحاب المقَنَّع هاشم بن الحكم المرزوى، سمو ا بذلك لتبييضهم ثيابهم مخالفة للمسوّدة من أصحاب الدولة العباسية .

المذهب السادس : المرجئة [٢٧] وهم ست فرق :

الأولى : الغَيْلانية ، أصحاب غيلان بن خَرَشة الضَبى .

الثانية : الصالحية ، أصحاب صالح بن عبد الله ، المعروف بقُنَّة .

الثالثة : أصحاب الرأى ، وهم أصحاب أبى حنيفة النعمان بن ثابت البزّاز .

الرابعة : الشبيبية ، أصحاب محمد بن شبيب .

الخامسة : الشَمِرية ، نسبوا إلى أبى شَمِر سالم بن شَمِر .

السادسة : الجَحْدرِية ، أصحاب جَحْدر بن محمد التميمى .

المذهب السابع : الشيعة [٢٨] ، وهم خمس فرق :

الأولى : الزَيْدية ، وهم خمسة أصناف :

١ – الأَبْتَرية ، نسبوا إلى كُثَير النوبى ، واسمه المغيرة ابن سعد ، ولقبه الأبتر .

٢ – الجارودية ، نسبوا إلى أبى الجارود زياد بن أبى زياد .

٣ – الدُكَنِيّة ، أصحاب الفضل بن دُكَيْن .

٤ – الخَشَبِيّة ، ويعرفون بالصرْخَابيّة ، نسبوا إلى صُرْخاب الطبرى ، وسموا الخشبية لأنهم خرجوا على

السلطان مع المختار ولم يكن معهم سلاح غير الخشب .

٥ ــ الخَلَفِيّة ، وهم أصحاب خلف بن عبد الصمد .

الثانية : الكَيْسَانية ، وكيسان كان مولى لعلى بن أبى طالب (عم) ، وهم أربعة أصناف :

١ ــ المُخْتَارِيّة ، أصحاب المختار بن أبى عُبَيْد قَبِل مقالته من كيسان .

٢ ــ الإسحاقيّة ، نسبوا إلى اسحق بن عمرو .

٣ ــ الكَرِبِيّة ، أصحاب أبى كَرِب الضرير .

٤ ــ الحَرْبية ، نسبوا إلى عبد الله بن عمر بن حرب .

الثالثة : العباسية ، ينسبون إلى آل العباس بن عبد المطلب (رضهم) وهم صنفان :

١ ــ الخَلاّلِيّة ، أصحاب أبى سلمة الخلاّل .

٢ ــ الراوندية ، أصحاب القاسم بن راوند .

الرابعة : الغالية ، وهم تسعة أصناف :

١ ــ الكامِليّة ، أصحاب أبى كامل .

٢ ــ السبائية ، أصحاب عبد الله بن سبأ .

٣ ــ المنصورية ، أصحاب أبى منصور العِجْلى .

٤ ــ الغُرابية ، سموا بذلك الاسم لأنهم يقولون علىّ عَلى (عم) كان أشبه بالنبى من الغراب بالغراب .

٥ ــ الطيّارية ، وهم أصحاب التناسخ ، نسبوا إلى جعفر الطيـار .

٦ ــ البَزيعيّة ، نسبوا إلى بَزيع بن يونس .

٧ ــ اليعفورية ، نسبوا إلى محمد بن يَعْفور .

٨ ــ الغَماميّة ، سموا بذلك الاسم لزعمهم أن الله تعالى ينزل إلى الأرض فى غَمام كل ربيع فيطوف الدنيا ، سبحان الله عما يقولون .

٩ ــ الإسماعيلية ، وهم الباطنية .

الخامسة : الإمامية ، وهم الرافضة ، سموا بذلك لرفضهم زيد بن على عليهما السلام ، فمنهم :

١ ــ الناؤوسية ، نسبوا إلى عبد الله بن ناؤوس .

٢ ــ المُفَضَّلية ، نسبوا إلى المفضَّل عمر ، ويسمون القَطعيّة لأنهم قطعوا على وفاة موسى بن جعفر بن محمد .

٣ ــ الشَمْطيّة ، لأنهم نسبوا إلى يحي بن أشْمَط .

٤ ــ الواقفية ، سموا بذلك لأنهم وقفوا على موسى بن جعفر رضى الله عنه ، وقالوا هو السابع ، وأنه هو حيّ لم يمت حتى يملك شرق الأرض وغربها ؛ ويسمون المَمْطورة وذلك أن واحدا منهم ناظر يونس بن عبد الرحمن وهو من القطعية فقال له يونس : لأنتم أهون عليّ من الكلاب الممطورة فلزمهم هذه النبزة .

٥ ــ الأحمدية ، نسبوا إلى إمامهم أحمد بن موسى بن جعفر .

نعوت الأئمة على مذهب الإثنى عشرية

على المرتضى ، الحسن المجتبى ، الحسين سيد الشهداء ، على زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، على الرضى ، محمد الهادى ، على الصابر ، الحسن الطاهر ، محمد المهدى القائم المنتظر وأنه لم يمت ولا يموت بزعمهم حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وهو محمد ابن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب عليهم السلام أجمعين .

التعليقات

١ ــ والرجعة بالكسر وسكون الجيم ـ وفتح الراء أفصح ـ فى اللغة الإعادة . وشرعاً عبارة عن رد الزوجة وإعادتها إلى النكاح كما كانت بلا تجديد عقد فى العدة لا بعدها .

وعند المنجمين وأهل الهيئة عبارة عن حركة غير حركة الكواكب المتحيرة إلى خلاف توالى البروج وتسمى رجوعا و عكسا أيضا ، وذلك الكوكب يسمى راجعا .

وعند أهل الدعوة عبارة عن رجوع الوبال والنكال والملال على صاحب الأعمال بصدور فعل قبيح من الأفعال أو بتكلم قول سخيف من الأقوال .

[كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوى . المجلد ١ ، ص ٦٢٦ ، نشر أحمد جودت ، استنبول] .

* * *

٢ ــ المعتزلة فرقة من كبار الفرق الإسلامية ، ينسبون إلى واصل ابن عطاء الغزالى الذى اعتزل عن مجلس الحسن البصرى . وذلك أنه دخل على الحسن رجل فقال يا إمام الدين ظهر فى زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة ، يعنى الخوارج ، وجماعة أخرى يرجئون أصحاب الكبائر ويقولون : لا يضر مع الإيمان معصية كما لا يقع مع الكفر طاعة . فكيف تحكم لنا أن نعتقد ذلك ؟ فتفكر الحسن وقبل أن يجيب قال واصل : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، فأثبت المنزلة بين المنزلتين . وقال : إذا مات مرتكب الكبيرة بلا توبة خلد فى النار إذ ليس فى الآخرة إلا فريقان ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، لكن يخفف عليه ويكون دركته فوق دركات الكفار .

فقال الحسن : قد اعتزل عنا واصل فلذلك سمى هو وأصحابه معتزلة .

ويُلقبون أيضا بالقَدَرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قُدرتهم وإنكارهم القدر فيها .

ولقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد لأنهم قالوا يجب على الله ماهو الأصلح لعباده ، ويجب أيضا ثواب المطيع فهو لا يخل بما هو واجب عليه أصلا ، وجعلوا هذا عدلا .

وقالوا أيضا بنفي الصفات الحقيقية القديمة القائمة بذاته احترازا عن إثبات قدماء متعددة وجعلوا هذا توحيدا .

وقالوا جميعا بأن القدم أخص وصف الله تعالى ، وبنفي الصفات الزائدة على الذات .

وبأن كلامه مخلوق محدث من الحروف والأصوات .

وبأنه لا يُرى فى الآخرة .

وبأن الحُسن والقبح عقليان .

وبأنه يجب عليه تعالى رعاية الحكمة والمصلحة فى أفعاله ، وثواب المطيع وعقاب العاصى .

[التهانوى ، مجلد ٢ ، ص ١٠٢٥ ، طبعة Asiatic Society of Bengal، كلكته ١٨٦٢] .

ويذكر التهانوى أن المعتزلة بعد اتفاقهم على هذه الأمور افترقوا عشرين فرقة يكفر بعضهم بعضا :

الواصلية ، العمروية ، الهذيلية ، النظامية ، الإسكافية ، الجعفرية ، البشرية ، المزدارية ، الهشامية ، الصالحية ، الحايطية ، الحدثية ، المعمرية ، الثمامية ، الخياطية ، الجاحظية ، الكعبية ، الجبائية ، البهشمية ، الأسوارية .

ويجعلهم أبو المعالى ، صاحب « بيان الأديان » سبع فرق :

الحسنية ، الهذيلية ، النظامية ، المعمرية ، البشرية ، الجاحظية ، الكعبية (أصحاب أبي القاسم الكعبي البلخي) .

[بيان الأديان — فارسى — ، لأبي المعالى (القرن ٥ هـ) نشر عباس إقبال ، طهران ، ص ٢٦ . الترجمة العربية ، يحيى الخشاب ، لم تنشر بعد] .

ويقول السيد مرتضى ، صاحب « تبصرة العوام » إن جماعة تجعلهم عشرين فرقة ، وأخرى تجعلهم سبع فرق .

ويذكر السيد مرتضى اعتقادات بعض هذه الفرق ، ومنها من كانت دعوتهم موافقة للمانوية كالحايطية (نسبة إلى أحمد حايط) والحدثية (نسبة إلى فضل الحدثى) ، ص ٥١ .

وهو يقرر أن فى زمانه (القرن ٧ هـ) لا يوجد من المعتزلة غير فرقتين : البهشمية وأبو الحسينية (نسبة إلى أبي الحسين البصرى من تلاميذ القاضى عبد الجبار الهمدانى) ، ص ٥٥ .

[تبصرة العوام فى معرفة مقالات الأنام — فارسى — (القرن ٧ هـ) نشر عباس إقبال ، طهران ، ص ٤٧] .

هـــذا و :

العمروية نسبة إلى عمرو بن عبيد .

الإسكافية نسبة إلى الإسكافى .

الجعفرية نسبة إلى جعفر بن مبشر .

المزدارية نسبة إلى أبي موسى مزدار .

الهشامية نسبة إلى هشام الفُوَطى .

الصالحية نسبة إلى صالحى .

الثمامية نسبة إلى ثمامة الأشرس .

الجبائية نسبة إلى أبي علي الجبائي .
البهشمية نسبة إلى أبي هاشم .
الأسوارية نسبة إلى علي الأسواري .

* * *

٣ ــ الهذيلية ، طريقهم أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل . قالوا بفناء مقدورات الله تعالى ، وهذا قريب من مذهب جهم حيث ذهب إلى أن الجنة والنار تفنيان .

وقالوا : إن حركات أهل الجنة والنار ضرورية مخلوقة لله تعالى إذ لو كانت مخلوقة لهم لكانوا مكلفين ولا تكليف في الآخرة .

وقالوا : إن أهل الخلدين تنقطع حركاتهم ويصيرون إلى جمود دائم وسكون ، في ذلك السكون اللذات لأهل الجنة والآلام لأهل النار ، ولذلك تسمي المعتزلة أبا الهذيل جهمي الآخرة ، يعني أنه قَدَرِي الأولى جَهْمي الآخرة .

وقالوا : إن الله عالم بعلم هو ذاته ، وأنه قادر بقدرة هي ذاته .

وقالوا : بعض كلامه تعالى لا في محل وهو كلمة كن ، وبعضه في محل كالأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وذلك لأن تكوين الأشياء بكلمة كن فلا يتصور لها محل .

وقالوا : إرادته تعالى غير المراد ، لأن إرادته عبارة عن خلقه لشيء وخلقه للشيء مغاير لذلك الشيء ، بل الخلق عندهم قول لا في محل ، أعني كلمة كن .

وقالوا : الحجة بالتواتر فيما غاب إلا بخبر عشرين فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر .

وقالوا : لا تخلو الأرض عن أولياء الله تعالى ، وهم معصومون لا يكذبون ، ولا يرتكبون شيئاً من المعاصي ، فالحجة قولهم لا التواتر الذي هو كاشف عنه .

[التهانوي ، ج ٢ ، ص ١٥٣٢ ــ ١٥٣٣]

* * *

٤ ـ النظَّامية ، أصحاب ابراهيم بن سيار النظام ، وهو من شياطين القدرية طالع كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة .

قالوا : لايقدر الله تعالى أن يفعل بعباده فى الدنيا مالا صلاح لهم فيه ولا يقدر أن يزيد فى الآخرة أو ينقص من ثواب وعقاب لأهل الجنة والنار .

وتوهموا : أن غاية تنزيهه عن الشرور والقبائح لايكون إلا بسبب قدرته عليها .

فهم فى ذلك كمن هرب من المطر إلى الميزاب .

وقالوا : كونه تعالى مريداً لفعله أنه خالقه على وفق عليه . وكونه مريدا للعبد أنه أمر به .

وقالوا : الإنسان هو الروح والبدن آلتها .

وقالوا : الأعراض أجسام والجوهر مؤلف من الأعراض المجتمعة . والعلم مثل الجهل المركب . والإيمان مثل الكفر فى تمام الماهية .

وقالوا : خلق الله الخلق دفعة واحدة على ماهى الآن معادن ونباتا وحيونا وإنسانا وغير ذلك ، فلم يكن خلق آدم متقدما على خلق أولاده إلا أنه تعالى كمّن أى ستر بعض المخلوقات فى بعض ، والتقدم والتأخر فى الكمون والظهور .

وقالوا : نظم القرآن ليس بمعجز ، إنما المعجز إخباره بالغيب من الأمور الآتية والماضية . وصرف الله العرب عن الاهتمام بمعارضته حتى لو خلاهم لأمكنهم الإتيان بمثله بل بأفصح منه .

وقالوا : التواتر يحمل الكذب ، وكل من الإجماع والقياس ليس بحجة .

ومالوا إلى الرفض ووجوب النص على الإمام ، وثبوت النص على إمامة على ، لكنه كتمه عمر .

وقالوا : من سرق دون نصاب الزكاة (مائتى درهم) كمائة وتسعة وتسعين درهما أو ظلم به على غيره بالغصب والتعدى لايفسق به .

[التهانوى ، ج ٢ ، ص ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، نقلا عن شرح المواقف] .

ويقول النظّام : كذب أبو هريرة أكثر مما كذب جميع الناس ، وشك عمر فى الإسلام يوم الحديبية ، وحين مات النبى (ﷺ) وضرب فاطمة على بطنها .

ويقول : إنشقاق القمر مستحيل ، ورؤية الجن مستحيل .

[تبصرة العوام ، سيد مرتضى ، ص ٤٩] .

* * *

٥ — المعمرية ، اتباع معمر بن عباد السُلَمى .

قالوا : الله لم يخلق غير الأجسام ، وأما الأعراض فيخترعها الأجسام إما طبعا كالنار للإحراق والشمس للحرارة ، وإما اختيارا كالحيوان للألوان .

قيل ومن العجيب أن حدوث الأجسام وفناءها عند معمر من الأعراض فكيف يقول إنها من فعل الأجسام .

وقالوا : لايوصف الله بالقدم لأنه يدل على التقادم الزمانى ، والله سبحانه ليس بزمانى ، ولا يعلم الله نفسه وإلا اتحد العالم والمعلوم .

والإنسان لا فعل له غير الإرادة مباشرة كانت أو توليدا ، بناء على ماذهبوا إليه من مذهب الفلاسفة .

[التهانوى ، ج ٢ ، ص ٩٦٣] .

ويذكر سيد مرتضى عن معمر :

إنه يقول إن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وجملة الكتب ليست

من كلام الله ؛ (لأنها عند المعمرية ليست قائمة بذات الله تعالى وليست فعله ، وكفر هذه الجماعة لا يخفى على العاقل) .

[تبصرة العوام ، ص ٥٢] .

* * *

٦ — البشرية ، أصحاب بشر بن المعتمر . كان من أفاضل علماء المعتزلة. وهو الذى أحدث القول بالتوليد ، قالوا الأعراض يجوز أن تحصل متولدة فى الجسم من فعل الغير كما إذا كان أسبابها من فعله .

وقالوا : القدرة والاستطاعة سلامة البنية والجوارح عن الآفات .

وقالوا : الله تعالى قادر على تعذيب الطفل ، ولو عذبه لكان ظالما لكنه لا يستحسن أن يقال فى حقه ذلك بل يجب أن يقال ولو عذبه كان الطفل بالغاً عاقلا عاصيا مستحقا للعقاب (وفيه تناقض إذ حاصله أن الله تعالى يقدر على الظلم ولو ظلم لكان عادلا) .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ١٣٤] .

وجاء فى تبصرة العوام :

يقول بشر إن الإنسان قادر على إيجاد الألوان والسمع والبصر على سبيل التولد ، وكذلك الطعوم والرائحة كاما كان أسبابها من فعله .

[تبصرة ، ص ٥٠] .

* * *

٧ — الجاحظية :

قالوا : المعارف كلها ضرورية [ولا إرادة فى الشاهد أى فى الواحد منا ، إنما هى إرادته لفعله عدم السهو أى كونه عالما به غير ساه عنه ، وإرادته لفعل الغير هى ميل النفس إليه] .

وقالوا : إن الأجسام ذوات طبائع مختلفة لها آثار مخصوصة (كما هو مذهب الطبعيين من الفلاسفة) ويمتنع انعدام الجواهر ، إنما تبدل الأعراض والجواهر باقية على حالها كما قيل فى الهيولى .

والنار تجذب إلى نفسها أهلها لا أن الله يدخلهم فيها .
والخير والشر من فعل العبد .
والقرآن جسد ينقلب تارة رجلا وتارة امرأة .
[التهانوى ، ج ١ ص ٢٥٣] .

* * *

٨ — ويجعلهم أبو المعالى خمس عشرة فرقة ، فيذكر زيادة على هذه الفرق المذكورة فرقة الحرورية (وهم المحكمة) .
[بيان الأديان ، ص ٢٣ و ٣٩ من الترجمة العربية] .
ويجعلهم سيد مرتضى خمس فرق فى الأصل : الأزارقة ، العجاردة النجدات ، الصفرية ، الإباضية .
والعجاردة خمس فرق :
الميمونية ويقولون بجواز نكاح بنت الابن وبنت البنت وبنت الأخ وبنت الأخت . ويقولون إن سورة يوسف ليست من القرآن لإنها فى موضوع العاشق والمعشوق وهذا المعنى لا يليق بكلام الله .
والحزية ويقولون أن من لا يعرف الله بأسمائه كلها جاهل بالله ومن جهل الله فهو كافر .
والأصلتية ويقولون أن لا ولاية ولا عداوة ولا براءة من أولاد المسلمين أو أولاد المشركين . إنما يدعون للإسلام عند البلوغ فإذا أقروا به لزمت ولايتهم وإذا أنكروا وجبت عداوتهم والبراءة منهم وقتلهم .
والشبيبية ويقولون بصحة إمامة المرأة متى استطاعت القيام بها وقدرت على حرب خصومها ، ويقولون إن غزالة أم شبيب إمام بعد وفاة ابنها .
والمكرمية ويقولون بكفر تارك الصلاة إذا جهل الله ، فإذا عرفه فلا يعدون إثمه كبيرة .

[تبصرة ، ص ٤٠ — ٤١] .

ويجعلهم التهانوى سبع فرق :

المحكمية ، البيهسية ، الأزرقية ، النجدات ، الأصفرية ، الأباضية ، العجاردة .

[التهانوى ، ج ١ ص ٤٤٨] .

* * *

٩ — الأزارقة :

قالوا : كفر علىّ بالتحكيم وابن ملجم محق فى قتله .

وكفروا الصحابة أى عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس وسائر المؤمنين معهم وقضوا بتخليدهم فى النار .

وكفروا القعدة عن القتال وإن كانوا موافقين لهم فى الدين .

وقالوا : بتحريم التقية فى القول والعمل .

وأجازوا قتل أولاد المخالفين ونسائهم ، وقالوا إن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم .

وقالوا : لا رجم على الزانى المحصن ولا حد للقذف على النساء .

وقالوا : يجوز اتباع نبىّ كان كافراً ، وإن علم كفره بعد النبوة .

وقالوا : مرتكب الكبيرة كافر .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٦٨١] .

* * *

١٠ — النجدات ، أصحاب نجدة بن عامر النخعى .

قالوا : لا حاجة للناس إلى الإمام ، بل الواجب عليهم النصفة فيما بينهم ويجوز لهم نصبة إذا أرادوا أن تلك الرعاية لا تتم إلا بإمام يحملهم عليها .

وافقهم الأزارقة فى تكفير علىّ والصحابة (رضى الله عنهم) . وخالفوهم فى الأحكام الباقية .

واختلفوا فى الجهالات فى الفروع ، فمنهم من قال بأنهم معذورون فى مثل تلك الجهالات وتسمى عاذرية ومنهم من لا يقول بذلك .

[التهانوى ، ج ٢ ص ١٣٨١] .

* * *

١١ — العجاردة ، أصحاب عبد الرحمن بن عجرد .

وافقوا النجدات فيما ذهبوا إليه إلا أنهم زادوا عليهم وجوب البراءة عن الطفل حتى يدعى الإسلام بعد البلوغ ، ويجب دعاؤه إلى الإسلام إذا بلغ .

وقالوا : أطفال المشركين فى النار .

وافترقوا إلى عشر فرق :

الميمونية ، الحزية ، الشعيبية ، الحازمية ، الأطرافية ، الخلفية ، المعمولية ، الصلتية ، الثعالبة .

[التهانوى ، ج ٢ ، ص ٩٤٩] .

* * *

١٢ — الحازمية ، أصحاب حازم بن عاصم .

وافقوا الشعيبية .

ويحكى عنهم أنهم يتوقفون فى علىّ (كرم الله وجهه) ، ولا يصرحون بالبراءة عنه كما يصرحون بالبراءة عن غيره .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٤٠٥] .

قالوا : الخير والشر جملة بقضاء الله وقدرة ، كالمجبرة .

[تبصرة العوام ، ص ٤٣] .

* * *

١٣ — الثعالبة ، أصحاب ثعلب بن عامر .

قالوا بولاية الأطفال صغارا كانوا أو كبارا حتى يظهر منهم إنكار

الحق بعد البلوغ . وقد نقل عنهم أن الأطفال لا حكم لهم بولاية أو عداوة إلى أن يدركوا .

ويرون أخذ الزكاة من العبيد إذا استغنوا وإعطاءها لهم إذا افتقروا .

تفرقوا إلى أربع فرق :

الأخنسية ، المعبدية ، الشيبانية ، المكرمية .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ١٨٩] .

* * *

١٤ — الصُفرية [الأصفرية] ، أصحاب زياد بن الأصفر .

قالوا : لا يكفر القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين لهم فى الدين .

ولا يكفر أطفال المشركين ، ولا يسقط الرجم ، ويجوز التقية فى القول دون العمل .

وقالوا : المعصية الموجبة للحد لا يسمى صاحبها إلا بها ، فيقال مثلا سارق أو زان أو قاذف ولا يقال كافر ، ومالا حد فيه لعظمته كترك الصلاة والصوم يقال لصاحبه كافر .

وقيل تزوج المؤمنة من دينهم من الكافر المخالف لهم فى دار التقية دون دار العلانية .

[التهانوى ، ج ، ص ٩٢١] .

اسم رئيس هذه الفرقة بن الصفّار ، ويقال سموا الصفرية لكثرة ما يبذلون من المجاهدة وقد اصفرت وجوههم فى العبادة .

وهم يوافقون الأزارقة فى جميع البدع إلا أنهم لا يجيزون قتل أولاد مخالفيهم .

[تبصرة ، ص ٤٠] .

* * *

١٥ ــ الأباضية ، ويقال الإباضية أيضاً ، أصحاب عبدالله بن إباض التيمى .

قالوا : مخالفونا من أهل القبلة كفار غير مشركين تجوز منا كحتهم (وموارثتهم حلال) . وغنيمة أموالهم من سلاحهم وكراعهم حلال عند الحرب دون غيره . ودارهم دار الإسلام إلا معسكر سلطانهم . (وحرام قتلهم وسبيهم فى السرغيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة) .

وقالوا : تقبل شهادة مخالفيهم عليهم .

ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن لأن الأعمال داخلة فى الإيمان ، والاستطاعة قبل الفعل . وفعل العبد مخلوق الله تعالى . ويفنى العالم كله بفناء أهل التكليف . ومرتكب الكبيرة كافر نعمة لا كافر ملة .

وتوقفوا فى : تكفير أولاد الكفار ، وفى النفاق أهو شرك أم لا ، وفى جواز بعثة رسول بلا معجزة وتكليف أتباعه فيما يوحى إليه .

وكفروا علياً وأكثر الصحابة (رضى الله عنهم) .

وافترقوا فرقاً أربع :

الحفصية ، اليزيدية ، الحارثية ، العبادية .

والحارثية ، خالفوهم فى القدر أى كون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وكون الاستطاعة قبل الفعل .

والعبادية ، هم القائلون بطاعة لا يراد بها الله ، أى الزاعمون أن العبد إذا أتى بما أمر به ولم يقصد الله كان ذلك طاعة .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٨٧ — ٨٨] .

وعبـــد الله بن إباض هو الذى خرج فى أيام مروان بن محمد [١٢٧/٧٤٤ — ٧٥٥] .

قالوا : دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى .

وحكى الكعبي عنهم أن الاستطاعة عرض من الأعراض وهى قبل الفعل بها يحصل الفعل .

وهم لا يسمون إمامهم أمير المؤمنين ولا أنفسهم مهاجرين .

وتوقفوا فى أطفال المشركين وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام ، وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلا .

وحكى الكعبي عنهم أنهم قالوا بطاعة لا يراد بها الله تعالى كما قال أبو الهذيل .

وقالوا : إن المنافقين فى عهد رسول الله (ﷺ) كانو موحدين إلا أنهم ارتكبوا الكبائر فكفروا فى الكبيرة لا بالشرك .

وقالوا : كل شيء أمر الله به فهو عام ليس بخاص ، وقد أمر به المؤمن والكافر وليس فى القرآن خصوص .

وقالوا : لا يخلق الله شيئاً إلا دليلا على وحدانيته ولابد أن يدل به واحداً .

وقال قوم منهم : يجوز أن يخلق الله تعالى رسولا بلا دليل ويكلف العباد بما يوحى إليه ، ولا يجب عليه إظهار المعجزة ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يظهر دليلا ويخلق معجزة .

[الملل والنحل ، الشهرستانى ، نشر عبد الرحمن خليفة ، ج ١ ، ص ١٤١ — ١٤٢] .

وقال الأباضية بأنه يجوز أن يأمر الله تعالى العبد أمرين متضادين ، ويمثلون لذلك برجل يدخل مزرعة غيره بغير إذن منه ، هو فى هذه الحالة مأمور بالخروج من وسط الزرع ومنهى أيضاً عن الخروج منه خشية فساد الزرع .

[تبصرة ، ص ٤٢] .

* * *

١٦ — الحفصية ، زادوا على الأباضية أن بين الإيمان والشرك معرفة

الله فإنها خصلة متوسطة بينهما ، فمن عرف الله وكفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار أو بارتكاب كبيرة (من الزنا والسرقة وشرب الخمر) فكافر لا مشرك .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٨٧ — ٨٨ و ص ٣٣٨] .

[الشهرستانى ، ج ١ ، ص ١٤٢] .

ويجعلهم السيد مرتضى من العجاردة .

[تبصرة ، ص ٤١] .

* * *

١٧ — اليزيدية ، زادوا على الأباضية ،

وقالوا : سيُبعث نبي من العجم بكتاب يكتب فى السماء وينزل عليه جملة واحدة ويترك شريعة المصطفى إلى ملة الصابئة المذكورة فى القرآن (وليست هى الصابئة الموجودة بحرّان وواسط) .

وقالوا : أصحاب الحدود مشركون ، وكل ذنب شرك ، صغيرة وكبيرة .

[التهانوى ، ج ١ ص ٨٨ و ص ٣٣٨] .

وقال يزيد بن أُنَيْسة بتولى المحكّمة الأولى قبل الأزارقة ، وتبرأ ممن بعدهم إلا الأباضية فإنه يتولاهم .

وتولى يزيد من شهد للمصطفى (عليه السلام) من أهل الكتاب بالنبوة وإن لم يدخل فى دينه .

[الشهرستانى ، ج ١ ، ص ١٤٣] .

وهم القائلون بطاعة لا يراد بها الله ،

وتقول جماعة منهم أن ليس لله حجة على الخلق فى التوحيد إلا بالخبر أو بإشارة تقوم مقامه .

وجماعة منهم تقول إن كل من دخل فى الإسلام تجب عليه جملة الشرائع ولو لم يكن عالما بها .

ومنهم من قال بجواز بعث الرسل ولو لم تكن لهم معجزات .

ومنهم جماعة ذهبت إلى أن ليس من الواجب على المسلم الصلاة والحج وغيرهما من العبادات ولكن الواجب هو عين الطاعة فقط .

ويذهب جمهور اليزيديين إلى أن العالم يفنى بعد فناء الخلق ، لأن العالم مخلوق من أجلهم .

[تبصرة ، ص ٤١ — ٤٢]

ويذكر البدليسي ، وهو الذى ألف فى تاريخ الكرد ، أن بعض العشائر الكردية ، فى أنحاء الموصل والشام ، مثل الطاسنية والخالدية والبسيانية وبعض البختية والمحمودية والدنبلية يعتنق مذهب اليزيدية ، ويقولون بأنهم أتباع ومريدو الشيخ عدى بن المسافر ، وهم يعتقدون أن هذا الشيخ ، المدفون فى جبال لالش من أعمال الموصل ، قد أسقط عنهم الفروض وأنه يقوم بها نيابة عنهم [شرفنامه ، ج ١ ، ص ١٣ — ١٤ ، الترجمة العربية محمد على عونى ، القاهرة ١٩٥٨] .

ويذهب أحمد تيمور باشا إلى أن لا علاقة بين يزيدية اليوم وتلك الفرقة ، وأن أتباع بن أبى أنيسة قد لحقوا بغيرهم من الفرق التى بادت وبادت معها آراؤها . وأما يزيدية اليوم فنسبتهم إلى يزيد بن معاوية .

[اليزيدية ومنشأ نحلتهم ، أحمد تيمور باشا ص ٢٨] .

وكان العثمانيون يعاملون اليزيديين على أنهم مسلمون أصحاب مذهب خاص ، فقد ولّى سليمان القانونى أحدهم ، حسين بك داسنى ، ولاية سهران سنة ٩٤١ / ١٥٣٤ . وقد كان من نتيجة ولاية اليزيدى على أهل السنة أن « أخذ اليزيديون ينتقمون لأنفسهم أشد الانتقام من أهـــل السنة فكانوا يظلمونهم ظلماً أنساهم جور الحجاج » .

[شرفنامه ، ج ١ ، ص ٢٧٤] .

ووقعت حرب عظيمة بين الصورانيين واليزيديين ، وهزم هؤلاء ، فاستدعى السلطان سليمان حسين بك داسنى إلى استنبول وأمر بقتله » ولعل ذلك مبدأ السخط على اليزيدية ، والفتوى من أبى السعود بقتلهم . . (بعد سنة ٩٥٢) » ،

[تاريخ العراق بين احتلالين ، عباس العزاوى ، ج ٤ ، ص ٤٣] .

ويذكر البدليسى والعزاوى ما كان من اضطهاد ولاة السنة لليزيدية ، وقد عاد بعض هؤلاء ، كالعشائر الدنبلية ، إلى مذهب أهل السنة والجماعة .

[شرفنامه ، ج ١ ، ص ٣٠٥] .

والأكراد يسمون غلاة المروانية منهم باليزيدية ويسمون غيرهم من سائر المسلمين بالحسينية ، ويُسمَى اليزيديون العدوية (نسبة إلى عدى بن المسافر).

[محمد على عونى ، حاشية ١ ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ، شرفنامه] .

فإلى من نسبة اليزيديين ؟

اختلف الكتاب فى هذه القضية ، وذهب فيها المستشرقون مذاهب شتى.

يذهب Menzel إلى ألا صلة بين اليزيدية ويزيد بن معاوية أو يزيد بن أنيسة ، وكذلك لا صلة لهم مع يزد المدينة الفارسية ، وإلى أنه يحتمل أن تكون لهم صلة بالكلمة الفارسية يزدان بمعنى الله . وعنده أن لدى اليزيديين الأول ملاكا اسمه إزدا وآخر اسمه يَزْدان كما أن كلمة يزدانى اطلقت على اليزيديين ، وهكذا قد نربط بين إزداى ، اسم سنجق (تمثال) على هيئة رجل مصنوع من العنب وبين اسمهم .

ويذهب Marr إلى أن چلبى هو الاسم الأول لليزيدية .

وعند Neibuhr ذكر چلبى على أنه « الشيطان » .

أما Guidi فيذهب إلى أن اليزيدية فرقة إسلامية ، متابعا فى هذا علماء المسلمين ، وأن صلة اسمهم بيزيد بن معاوية صلة لا شك فيها .

[دائرة المعارف الإسلامية Yazidi] .

ويذهب غلاة اليزيديين إلى أن يزيد لم يكن المؤسس الحقيقى للمذهب. ولكنه هو الذى أعاده، أما الذى أنشأه فهو شاهد بن الجراح، الولد الوحيد لسيدنا آدم ، وأن يزيد ترك مذهبه وكرّس جهوده للمذهب الذى سمى باسمه . ثم إن « يزيد » أصبح عن طريق التناسخ الشيخ عدى بن المسافر الذى سوف تتكرر عودته إلى الأرض . [المصدر السابق] .

وأما علماء الترك ، وقد يتمثل رأيهم فى فتوى شيخ الإسلام « أبو السعود » فإنهم يقولون عن اليزيدية : إنهم اتباع يزيد بن معاوية وإنهم يبغضون الإمامين الحسن والحسين ، ويستحلون قتل أولادهم من أهل بيت النبوة ، ويبغضون الإمام على ، ويستهترون بكلام الله المجيد ، وبالكتب الشرعية والتفاسير والأحاديث ، وينكرون يوم القيامة والحشر والنشر ، وينكرون أركان الدين الخمسة ، ويعتقدون فى عدى بن المسافر الأموى. [صوفى مسلم قيل إنه ولد فى قرية بيت فار قرب بعلبك ، كوّن لنفسه فرقة دينية هى « العدوية » ، واختار لنفسه مقاما فى جبال حكّارى الكردية شمال الموصل ، وتوفى فى التسعين من عمره سنة ٥٥٧ / ١١٦٢ أو ٥٥٥ / ١١٦٠ . وقد خلفه أولاده فى مشيخة الفرقة] أنه الشريك الأغلب لحضرة رب العزة جلّ شأنه ، ولهم محبة تامة مع الشيطان اللعين ، فهم يعتقدون فيه أنه طاووس الملائكة ، ويأبون عن عقود أنكحتهم من أنفسهم وإنما يفوضون عقودهم إلى رأى رئيسهم الفاجر ، وهم بعد هذا يستحلون دماء مخالفيهم [نص الفتوى بالعربية عن تاريخ العراق بين احتلالين ، عباس العزاوى ، ج ٤ ، ص ٢٤٧ وما بعدها] .

ويذكر أبو السعود أن الشافعى ، ضمنا ، قد لعن يزيد . ولعنه ولعن أتباعه أبو حنيفة والفخر الرازى والإمام أحمد والإمام أبو الليث

السمرقندى ومولانا عبد الرحمن الجامى والشريف الجرجانى والشيخ عبد القادر الجيلى . . .

وسارت الفتاوى الشرعية عند العثمانيين على هذا النهج ، ومن ذلك فتوى الشيخ على الرتبكى (١١٥٩ / ١٧٤٦) [تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ، عباس العزاوى] .

وهذه الفتاوى الرسمية تعبر عن رأى سياسى أكثر منه دينى .

ويصف أحد كتاب الفرق ، محسن فانى ، وهو فارسى ، (القرن ١١ هـ) اليزيديين بأنهم يواظبون على الصلاة ، وأنهم أهل تقوى ، ولديهم تفاسير كثيرة ومؤلفات فى الدين والفقه . وهم يعتقدون فى نبوة النبى (ﷺ) وإمامة الشيخين وذى النورين وخال المؤمنين (أم حبيبة زوج النبى هى أخت معاوية) ، ولكنهم يطعنون على علىّ (عليه السلام) ، ويقولون إنه ادعى الألوهية كأتباعه من الغلاة وأنه دعاهم إلى ذلك ، وينسبون إليه سوء السلوك مع النبى (قصة نوى التمر) ، ويذهبون إلى أن الحسنين ليسا من نسل النبى ، وأن « يزيد » لم يقتل الحسين فى بيته إنما هو قصد الرحيل إلى العراق ابتغاء الاستيلاء على الملك فقُتل . ويخرج فرسانهم إلى الميدان فى العاشر من محرم ويطئون دمى من الطين تمثل قتلى كربلاء انتهاكا لحرمة هؤلاء الشهداء ، ويفرحون فى هذا اليوم أكثر مما يفرحون فى العيدين ، فهو عندهم يوم النصر لأن إمام الوقت يزيد ظفر فيه بعدوه وقتله . وعندهم جماعة يقال لهم « السيناقة » يقفون وسيوفهم بأيديهم ويلعنون « على » . . .

[دابستان المذاهب (فارسى) ، لمحسن فانى ، ص ٢١٦ — ٢١٨ طبعة بمباى ، وقد ذكر الترجمة العربية للنص عباس العزاوى فى كتابه تاريخ اليزيدية ٢٣ — ٢٧] .

ويرأس اليزيديين أمير من شيعتهم يسمونه « أمير الشيخان » — الشيخان تقع شمال شرقى الموصل — له سلطة مطلقة عليهم وتحت إمرته أمراء ثانويون

يبلغون أوامره إلى جميع النواحي . أما رئيسهم الديني فيسمونه « بابا شيخ » وتحت يده جماعة من الشيوخ ينفذون أوامره في شئون الدين . ولبابا شيخ حق التشريع في الأمور الدينية كتحديد الصلاة والصوم . .

[العزاوي ، ص ٤٠] .

واليزيديون يتبعون الطريقة الصوفية التي ابتدعها عدي بن مسافر ، وهي تقوم على مقاطعة اللعن فعدي حذر من اللعن ، حتى لعن الشيطان ، خوفا من الاتصال بشائبة السب .

وتطورت هذه الطريقة من بعده فحرموا اللعن وما اشتق منه ؛ فالشيطان وإبليس ، ومادتهما تدل على الذم ، عبروا عنهما « بطاووس ملك » أو « طاووس الملائكة » .

وهذا التعبير يرجع إلى حديث الطاووس مع إبليس . « فقد فرح إبليس حين سمع بإسكان الله آدم وحواء الجنة وقال: لأخرجنهما من ذلك الملكوت . ثم مر مستخفيا في طرق السموات حتى وقف على باب الجنة ، فإذا بالطاووس قد خرج منها وله جناحان إذا نشرهما غطي بهما سدرة المنتهى ، وله ذنب من الزمرد الأخضر ، وعلى كل ريشة منه جوهرة بيضاء لها ضوء كضوء الشمس ، ومنقاره من جوهرة بيضاء ، وعيناه من ياقوتة ، وهو أطيب طيور الجنة صوتاً وتغريدا ، وأحسنها ألحانا بالتسبيح ، وكان يخرج في كل وقت ويمر في صفح السموات السبع ويتبختر في مشيته ، ويرجع في تسبيحه إلى الجنة . فلما رآه إبليس دنا منه وكلمه بكلام لين .

قال إبليس : أيها الطير العجيب الخلق ، الحسن الألوان، الطيب الصوت، أي طائر أنت من طيور الجنة ؟

قال الطاووس : فما لك أيها الشخص كأنك مرعوب أو كأنك تخاف طالباً يطلبك ؟

قال إبليس : أنا ملك من ملائكة الصفح الأعلى من زمرة الكروبيين

الذين لا يفترون عن التسبيح ساعة واحدة . أنظر إلى الجنة وما أعد الله فيها لأهلها ، فهل لك أن تدخلنى الجنة ولك على أن أعلمك ثلاث كلمات من قالهن لم يهرم ولم يسقم ولم يمت .

قال الطاووس : ما أحوجنى إلى هذه الكلمات غير أنى أخاف من رضوان أن يستخبرنى ، ولكنى أبعث إليك بالحية سيدة دواب أهل الجنة فإنها تدخلك الجنة » .

وأدى هذا إلى إخراج الطاووس والحيـــة من الجنة ، وقال جبريل للطاووس إنه مشؤوم أبدا . .

[القصة مأخوذة من قصص الأنبياء للكسائى ، وذلك عن النسخة الخطية التى يملكها عباس العزاوى ، لا عن النص المطبوع ، ونقلناها عن كتاب تاريخ اليزيدية ص ٦٣ وما بعدها] .

ثم غالوا إلى لزوم احترام طاووس ملك ، وكان من غلوهم قولهم إن عدم لعن يزيد منبعث عن اعتباره مقدساً بحيث صار هذا الغلو دينا لهم ، وصار الشيطان ويزيد يعدان فى المكانة العليا . وهم فى غلوهم هذا يضعون الشمع على لفظ الشيطان فى القرآن الكريم حتى يتجنبوا ذكر اسمه .

وبعض المتصوفة يذهبون إلى تبجيل إبليس . ويروى عن الحلاج إنه لما قيل لإبليس أسجد لآدم خاطب الحق بأن يرفع عنه هذا الأمر حتى لا يسجد لغيره قائلا : إن كنت أمرتنى فقد نهيتنى . فلما قال الحق إنى أعذبك عذاب الأبد قال : أولست ترانى فى عذابك ؟ إن رؤيتك لى تحملنى على رؤية العـــذاب ، إفعل بى ما شئت . . . [تاريخ اليزيدية ص ٥٣ وما بعدها] .

والشائع عند اليزيدية أن الله قد غضب على إبليس وألقاه فى جهنم وأنه قد تاب فرفع الله عنه مقته. ويقولون إن ملك طاووس ذرف مدامعه فى جهنم وهو يتوب إلى ربه سبعين سنة فملأ بهذه الدموع سبع جرار ، فلما انسكب

ماؤها أطفأ نار جهنم . وهناك قصص كثيرة عندهم عن « الخلاص » وكلها تدور حول دموع إبليس وإطفائها نار الجحيم .

وأدى هذا القول عندهم إلى أنهم لا يعتقدون فى العذاب يوم القيامة ، ويرون فى التناسخ تحقيق التطهر التدريجى من الذنوب . [دائرة المعارف الإسلامية ، مادة اليزيدية Menzel] .

ويتكون المجتمع اليزيدى من طبقات هى :

١ — مير أى الأمير ، ويشترط أن يكون من أبناء أخى عدى ابن مسافر (لم يكن لعدى ذرية) ، وأميرهم حتى سنة ١٩٣٠ (تاريخ تأليف تاريخ اليزيدية) سعيد بك . وأفراد هذه الأسرة لا يتزوجون . إلا بينهم أو من بيت يقطعون فى نسبته إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى .

ويقوم الأمير بأمور الدين كما يقوم بالأعمال المدنية ، ويخلفه الأرشد من أولاده .

٢ — بس مير ، أى قائم مقام الأمير ، ويسمى « الاختيار » . وهو يتفرغ عادة للأمور الدينية ويشغل هذا المنصب اليوم حمو شيرو .

٣ — پير ، أى الشيخ ، يقوم بالإرشاد الدينى وتعليم الأتباع (المريدين). وطبقة الشيوخ لا يتزوج أفرادها ممن دونهم طبقة .

٤ — الكوچك، أى الصغير أو المسكين . وهم خدمة مزار الشيخ عدى. ويقوم الكوچك بخدمة سنجق طاووس الملائكة . وطبقة الكوچك تستأجر هذا السنجق من الأمير وتطوف به بين اليزيدية ويجمعون من هذا مالا يقدمونه للأمير . وفى الطواف يرقص الكوچك حول السنجق ، ويقيمون « الموالد » حيثما ينزلون بالسنجق وتسمى « چونى » .

وبين الحين والحين يظهر أحد الكوچك الكرامات نتيجة « للحلول والاتحاد » كما هو عند المتصوفة .

٥ — القوّالون ، وهم خدام وقراء المدائح بقبر الشيخ عدى .
٦ — المريدون ، وهم كافة اليزيديين .
٧ — الفقراء ،وهم الزهاد . ويتعيشون على صدقات اليزيدية .
٨ — الملا ّئية ، وهم أفراد أسرة تنتسب إلى حسن البصرى ، يقومون بأمر الكتابة للمير، لأن الكتابة ،فى الأصل ، ممنوعة على اليزيدية ، كما أنهم يقرءون لهم الكتب المبجلة عندهم وهى الجلوة ومصحف رش (الكتاب الأسود) .

[اليزيدية ومنشأ نحلتهم ، أحمد تيمور باشا ، حيث ذكر ملخص الكتابين ، ص ٢٤ وما بعدها]

وعدد اليزيديين يقرب من ثلاثين ألف .

وخلاصة القول فيهم انهم فرقة إسلامية كان لبداوة أهلها ، وبعدهم عن الحضارة ، وإهمال المسلمين لهم ، وانصراف من بيدهم التبصير فى أمور الدين إلى رميهم بالكفر ، كان لهذا كله أثر فى شدة انحرافهم عن الإسلام الصحيح . وهذا أيضا هو رأى العزاوى فيهم .

* * *

١٨ — البيهسية ، أصحاب بَيْهَس (بيهش) بن الهيصم بن جابر .

قالوا : الإيمان هو الإقرار والعلم بالله وبما جاء به الرسول ، فمن وقع فيما لا يعرف أحلال أم حرام فهو كافر لوجوب الفحص عليه حتى يعلم الحق . وقيل لا يكفر حتى يرفع أمره إلى الإمام فيجده وكل ماليس فيه حد فهو مغفور . وقيل لا حرام إلا ما فى قوله تعالى : « قل لا أجد فى ما أوحِىَ إلىّ محرما على طاعم يطعمهُ إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس او فِسقاً أهِلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم » [سورة ٦ آية ١٤٥] .

وقيل إذا كفر الإمام كفرت الرعية حاضرا أو غائبا ،
وقالوا : الأطفال كآبائهم إيمانا وكفرا .

وقيل السكر من شراب حلال لا يؤخذ صاحبه بما قال وفعل بخلاف السكر من شراب حرام .

وقيل : السكر مع الكبيرة كفر :

ووافقوا القَدَرية فى إسناد أفعال العباد إليهم .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ١٣٩]

يقولون بوجود دارين ، دار الكفر ودار الإيمان ، أى حيثما وجد اهل فرقتهم وليس بينهم أحد من مخالفيهم فهذه دار الإيمان .

[تبصرة ، ص ٤٢]

ومن البيهسية قوم يقال لهم العونية وهم فرقتان ، فرقة تقول من رجع إلى دار الهجرة إلى القعود برئنا منه ؛ وفرقة تقول بل نتولاهم لأنهم رجعوا إلى أمر كان حلالا لهم .

والعونية يرون أن الإمام إذا كفر كفرت الرعية الغائب منهم والشاهد .

ومن البيهسية أصحاب التفسير ، زعموا أن من شهد من المسلمين شهادة أخذ بتفسيرها وكيفيتها .

ومنها أصحاب السؤال ، قالوا إن الرجل يكون مسلماً إذا شهد الشهادتين وتبرأ وتولى وآمن بما جاء من عند الله جملة ، وإن لم يعلم فيسأل ما افترض الله عليه ، ولا يضره أن لا يعلم حتى يبتلى به فيسأل وإن واقع حراما لم يعلم تحريمه فقد كفر .

وأبو بيهس هو أحد بنى سعد بن ضبيعة ، وهو الذى طلبه الحجاج أيام الوليد فهرب إلى المدينه فطلبه بها عثمان المزنى فظفر به وحبسه ، وكان يسامره ، إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله .

[الملل والنحل ج ١ ، ص ١٣٣] .

١٩ ـ الفضلية ، أصحاب الفضل بن عبد الله .

كذا وردت فى بيان الأديان ، باب الخوارج (١٤) .

٢٠ ـ الشمراخيـة ، أصحاب عبد الله بن شِمْراخ .

فرقة من الخوارج ، يجوزون وطء النساء برضاهن بلا نـكاح ، كـذا فى تذكرة المذاهب .

وفى توضيح المذاهب تعد الشمراخية فرقة من فرق المتصوفة ، يسمون المطبلة ، يفرحون بصوت الطبل والغناء ، ويبيحون الزنا ، ويسيحون فى الأرض فى هيئة من الصلاح والتقوى ويفسدون فيها ، وقتلهم مباح .

[كذا بالفارسية فى التهانوى ج ١ ص ٨١٠] .

يقولون : دمهم حرام فى السر حلال فى العـــلن ، ودم مخالفيهم حلال بينهم ، وحرام فى دار التقية .

[تبصرة ، ص ٤٣] .

٢١ ـ الضحاكيـة ، أصحاب الضحاك بن قيس .

يقولون : بجواز بيع الجارية المسلمة للـكافر .

ويبيحون زواج المسلمة من الـكافر فى دار التقية ، ويحرمون ذلك فى دار من دور الخوارج .

[تبصرة ، ص ٤٢] .

٢٢ ـ يقول الشهرستانى :

أصحاب الحديث وهم أهل الحجاز هم أصحاب مالك بن أنس وأصحاب محمد بن إدريس الشافعى وأصحاب سفيان الثورى وأصحاب أحمد بن حنبل وأصحاب داود بن على بن محمد الإصفهانى .

وإنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل

الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبرا أو أثرا .

وقال الشافعي : « لو وجدتم لي مذهبا ووجدتم خبرا على خلاف مذهبي فاعلموا أن مذهبي ذلك الخبر » .

[الملل والنحل ج ٢ ، ص ٣٨ — ٣٩] .

ويذهب البغدادي إلى أن :

أهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث يكونون فرقة واحدة . وفقهاء هذين الفريقين وقراؤهم ومحدثوهم كلهم متفقون على مقالة واحدة في توحيد الصانع وصفاته وفي عدله وحكمته وأسمائه ، وفي أبواب النبوة والإمامة وفي سائر أصول الدين .

وإنما يختلفون في الحلال والحرام من فروع الأحكام ليس فيما بينهم تضليل ولا تفسيق .

وهم الفرقة الناجية . ويجمعها الإقرار بتوحيد الصانع ، وقدمه ، وقدم صفاته ، وإجازة رؤيته من غير تشبيه ولا تعطيل ، مع الإقرار بكتب الله ورسله ، وإباحة ما أباحه القرآن ، وتحريم ما حرمه القرآن ، مع قبول ما صح من سنة الرسول ﷺ ، واعتقاد الحشر والنشر ، وسؤال الملكين في القبر ، والإقرار بالحوض والميزان والصراط ، وخروج قوم من النار ، والإقرار بشفاعة المصطفى .

وقد دخل في هذه الجملة جمهور الأمة من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وأهل الظاهر .

[مختصر كتاب الفَرق بين الفِرق للبغدادي ، واختصره عبد الرزاق ابن رزق الله الرسعني ، مطبعة دار الهلال . مصر ، ١٩٢٤ . ص٢٨ ، ٢٩] .

وأصحاب الحديث خمس فرق :

الداودية ، أصحاب داود بن على الإصفهانى ، ويسمونهم أصحاب الظاهر لأنهم يعملون بظاهر الأخبار والآيات وينكرون القياس .

الشافعيـة ، أصحاب الإمام عبد الله بن محمد بن إدريس الشافعى المطلبى . ومذهبه فى أصول الدين والتوحيد ظاهر مما سبق . إلا أنه يختلف مع أصحاب الرأى فى الإيمان ، فإن للإيمان الصحيح فى مذهبه ثلاثة شروط :

الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان ، والعمل بالأركان .

فإذا كان هكذا فإنه يتزايد بالطاعة وينقص بالمعصية .

وهو لا يقول بصحة الإجتهاد والقياس .

المالـكية ، أصحاب مالك بن أنس بن مالك ، وهو إمام العراق وصاحب الموطأ . ويعتنق مذهبه أكثر المغاربة وسكان حدود اليمن . وهم يتعلقون بالحديث . وهم يأكلون لحم الحمير المستأنسة ...

الحنبليـة ، أصحاب الإمام أحمد بن حنبل . وبعضهم مشبه . وكان ابن حنبل شيخاً حين جاء الشافعى فخدمه وأمسك بعنان فرسه وقال : « اقتدوا ، هذا الشاب المهتدى » .

الأشعرية ، وهم أصحاب على بن موسى الأشعرى .

[بيان الأديان ، ص ٣١ ، طهران] .

وقد جاء فى الـكتاب الفارسى (الشيعى) « تبصرة العوام » تفصيل عن المالـكية رأينا تلخيصه هنا حتى يتبين المؤرخ قول شيعى فيهم . يقول :

المالـكية خمس فرق : ...

الأولى : خوارج ، وهم فى بلاد كثيرة بالمغرب ، مثل تاهرت العليـا وتاهرت السفلى وفى رساتيقهما . وبعضهم فى بلاد إفريقية وفى مواضع أخرى . وخوارج تاهرت من أسوأ الخوارج . ومن أفعالهم أنهم يثبتونه

بالمسمار نعل حصان فى بيوتهم ويتبركون به ويقولون إنه حين قتل الحسين (رضى الله عنه) وفصل رأسه عن جسده ساقوا الخيل على الجسد كى تدق عظامه، ولهذا يعظمون نعل الحصان ويضعونه فى بيوتهم حتى إذا مروا به فى دخولهم أو خروجهم، لمسوه بأيديهم ثم مسحوا بها وجوههم . وفى العاشر من محرم يضع أطفالهم رأس حمار ميت على عود ويدورون بها فى المدينة . ويصنعون الحلوى والقطايف فى بيوتهم ، فحين يمر بهم هؤلاء الأطفال يصيحون قائلين: سِتّى المَروُسة أطعمينا المُطَنْفَسة. ومعناها أحضرنا يا سيدتى رأس الحمار فاعطنا القطايف ، وحينئذ يعطى الأطفال القطائف أو الحلوى أو أى شىء أعد لهذا اليوم .

الثانية : معتزلة .

الثالثة : مشبهة . ومشبهة المغرب أشد تعصبا من سائر المشبهة . وهم يقولون إن أبا الحسن الأشعرى كان نصرانيا ، وقد أراد إفساد دين الرسول (ﷺ) ، فجاء إلى المسلمين وأعلن إسلامه ، وأدخل عليهم بدعا كثيرة تفوق ما قال به النصارى . قالوا وكانت له أخت راهبة فذهب إليها ذات مرة فرفضت لقاءه فأخذ يتوسل حتى قبلت السماح له بمقابلتها . فلما لقيته لعنته لأنه ترك دين آبائه وأجداده ودخل فى دين محمد (ﷺ) ، فأجابها بأنه لم يترك دين آبائه وإنما كان قصده مما فعل إفساد دين محمد وإدخال بدع كثيرة فيه لا يستطيع الخلاص منها حتى يوم القيامة . فطابت أخته بهذا الحديث نفساً .

(يقول صاحب تبصرة العوام : «وقد سمعت هذا من بعض مشبهة المغرب . والعهدة عليهم» . وهذا يقال عما روى فى الأولى .

الرابعة : السالمية ، ومنهم مالكية البصرة .

الخامسة : الأشعرية .

[تبصرة العوام ، ص ٩٦ ، ٩٧] . وحديثه عن الفرقتين الأولى والثالثة حديث خرافة .

٢٣ — المُجْبِرة أو الجَبْرية فرقة من كبار الفرق الإسلامية كالجهمية .

قالوا : لا قدرة للعبد أصلا ، لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها . .

والله لا يعلم الشيء ، وعلمه حادث لافي محل ، ولا يتصف الله بما يوصف به غيره كالعلم والحياة إذ يلزم منه التشبه .

والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها فيها حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى .

ووافقوا المعتزلة فى نفى الرؤية ، وخلق الكلام ، وإيجاب المعرفة بالعقل قبل ورود الشرع .

وهؤلاء هم الجبرية الخالصة .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٢٢٠] .

[التبصير فى الدين ، الإسفراييني ، نشر الكوثرى ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، حيث المذهب والرد عليه] .

٢٤ — النجارية و الضرارية .

جبرية متوسطة أى غير خالصة بل متوسطة بين الجبر والتفويض لأنهم يثبتون للعبد كسبا بلا تأثير فيه .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، ج ٢ ، ص ١٣٨٢ ، ١٣٨٣] .

[التبصير فى الدين ، ص ٦١ ، حيث الرد على النجارية وفرقهم الثلاث : البرغوثية والزعفرانية والمستدركة] .

٢٥ — المشبهة ، فرقة من كبار الفرق الإسلامية ، شبهوا الله بالمخلوقات

ومثلوه بالحادثات ، ولأجل ذلك جعلناهم فرقة واحدة قائلة بالتشبيه وإن اختلفوا فى طريقه .

منهم مشبهة غلاة الشيعة كالسبأية والبيانية والمغيرية والهشامية وغيرهم القائلين بالتجسيم والحركة والانتقال والحلول فى الأجسام ونحو ذلك .

ومنهم مشبهة الحشَوْية .

ومنهم مشبهة الكرامية .

[التهانوى ج ١ ، ص٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ثم ص٤٣٥ ، ٤٣٦ عن الحشوية] .

٢٦ — الهشامية ، تطلق على فرقة من غلاة الشيعة أصحاب الهشامين : ابن الحكم وابن سالم الجواليقى ، قالوا : الله جسد ثم اختلفوا .

[التهانوى ، ج ٢ ص ١٥٣٦ ، ١٥٣٧] .

وذهب السيد مرتضى صاحب تبصرة العوام إلى أن ما نسب إلى هشام ابن الحكم وهشام بن سالم هو من قول خصومهم وليس له أصل ، وأن القصد من ذكره تنفير العامة من فقهاء الإمامية .

[ص ١٧٢] .

والزُرارية ، فرقة من غلاة الشيعة ، قالوا بحدوث الصفات لله تعالى وقبل حدوثها له لا حيـــاة فلا يكون حينئذ حيا ولا عالما ولا قادراً ولا سميعاً ولا بصيراً .

[التهانوى ، ج ١ ص ٦٧٩] .

ويرد صاحب تبصرة العوام على أهل السنة الذين قالوا بأن الزرارية تقول بأن الله مصمت أى لا جوف الله . ومرجع قول أهل السنة فى هذا أن زرارة قال إنه سمع عن الصادق عليه السلام أن الصمد يكون مصمتا فلا يكون له جوف ، وهذا من المعانى اللغوية للفظ الصمد .

ويروى عن ابن جنبل أنه قال الصمد من لا جوف له . وهذا هو قصد الصادق عليه السلام وليس قصده إثبات صفات البارى ...

[تبصرة ، ص ١٧٣ ، ١٧٤] .

والبيانية (وقد وردت خطأ البنانية فى التهانوى كما ورد اسم بيـــان ابن سمعان بنان) فرقة من غلاة الشيعة . قال بيان خذله الرحمن إن الله على صورة إنسان ويهلك كله إلا وجهه ... وروح الله حلت فى علىّ ثم فى ابنه محمد بن الحنفية ثم فى ابنه أبى هاشم ثم فى بيان .

[التهانوى ، ج ١ ص ١٦٩ ، نقلا عن شرح المواقف] .

وانظر رد السيد مرتضى عليهم بقوله لو كان بيان إلهاً فلماذا لم يدفع عن نفسه القتل حين قتله خالد بن عبد الله القسرى .

[تبصرة ، ص ١٧٠] .

وكذلك رد السيد مرتضى على المغيرية [ص ١٧٠] .

وهذا يبيّن أن أحكام كتاب الفرق على بعض المذاهب صادرة عن هوى أو عن غير دقة فى تحرى حقيقة ما يقول به أصحاب المذهب .

٢٧ــ المرجئة ،

يذهب البغدادى إلى أنها ثلاثة أصناف .

(ا) صنف قالوا بالإرجاء فى الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية .

(ب) وصنف قالوا بالإرجاء فى الإيمـــان ومالوا إلى قول جَهْم فى الأعمال والاكتساب .

(ح) وصنف منهم خالصة فى الإرجاء من غير قَدَر ولا جبر .

وهم خمس فرق :

يونسية ، غسّانية ، ثوبانية ، وثومنية ، مريسيّة .

[مختصر الفرق بين الفرق ، ص ۲۷ ، ۲۸] .

أما أبو المعالى فيذكر ان المرجئة ست فرق :

الرزّامية ، الغيلانية ، التومنيه ، الصالحية ، الشِمرية ، الجهمية .

[بيان الأديان ، فارسى ، سنى ، ص ، ۲۸[1]] .

أما السيد مرتضى فيقول إنهم خمس فرق :

اليونسية ، أصحاب يونس الشِمرى .

الغسّانية ، ينتسبون إلى غسّان رئيسهم ، وهم مرجئة الكوفة . منهم أبو حنيفة ، وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ، وجهم ، وغيلان ، وابن عمران ، وأبو شَمِر ، وفضل الرقاشي وغيرهم من أصحاب الرأى .

الثوبانية ، أصحاب أبي ثوبان .

التومنية ، أصحاب أبي معاذ التومِني .

المَرِيسية ، أصحاب المريسى .

ومنهم الصالحي وتنسب إليه الصالحية عند أبي المعالى والخوارزمى .

ومنهم أبو شَمِر المرجى ، وتنسب إليه الشمرية عند أبي المعالى .

ومنهم ابن شبيب ، وتنسب إليه الشبيبية عند الخوارزمى .

كما أن منهم الغَيْلانية .

[تبصرة ، ص ٥٩ — ٦١]

والمرجئة فرق من كبار الفرق الإسلامية ، لقبوا بذلك لأنهم يرجئون العمل عن النية أى يؤخرونه فى الرتبة عنها وعن الاعتقاد من أرجاه أى اخره ؛ أو لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر

(١) ذكرنا فى ص ١٧٨ صفحتى الترجمة العربية فى هذا الكتاب ، وهما من النص الفارسى ٢٧ ، ٤٤ ؛ وستنشر الترجمة العربية بمجلة كلية الآداب فى العدد القادم .

طاعة فهم يعطون الرجاء وعلى هذا ينبغى ألا يهمز لفظ المرجية .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩] .

ويقول التهانوى أنهم خمس فرق يذكر أربعة من الفرق التى سبقت وهى : اليونسية والغسانية والثوبانية والتومنية ثم يذكر فرقة خامسة هى العبيدية ويقول إنهم أصحاب عبيد المكذب ، زادوا على اليونسية من المرجئة أن علم الله لم يزل شيئاً غير ذاته وكذا باقى الصفات ، وأن الله تعالى على صورة الإنسان لما روى أن الله خلق آدم على صورته .

[التهانوى ، ج ٢ ، ص ٩٤٩] .

٢٨ — الشيعة :

ينقل ابن النديم عن محمد بن اسحق سبب هذه التسمية ، مرجعاً إياها إلى أنه لما خالف طلحة والزبير على علىّ رضى الله عنه فأبيا إلا الطلب بدم عثمان وقصدهما علىّ ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله تسمى من اتبعه على ذلك « الشيعة » . وكان علىّ يقول : شيعتى . وسماهم : الأصفياء ، الأولياء ، شرطة الخميس ، الأصحاب .

[الفهرست ، ص ٢٤٩ ، طبعة التجارية ، القاهرة ١٣٤٨ — ١٩٢٩] .

ولكن « الشيعة » بوجه عام ، يذهبون إلى أن نشأة التشيع أقدم من هذا ، وان النبي (صلعم) هو الذى أنشأ التشيع وهو يؤدى رسالته «يعنى أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام ، جنباً إلى جنب وسواء بسواء ، ولم يزل غارسها (النبي) يتعاهدها بالسقى والعناية حتى نمت وأزهرت فى حياته ، ثم أثمرت بعد وفاته » .

[الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، الطبعة الثالثة ص ٥٤ وما بعدها] .

ويذهبون إلى أن كلمة « خير البرية » في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » [٩٨ / ٧] يقصد بها الشيعة . ويؤيدون هذا بأن النبي خاطب علياً بعد نزول هذه الآيه بما يفيد أنه وشيعته هم المقصودون بها . وتعددت الروايات في هذا الصدد ، فمنها : ستقدم أنت وشيعتك يوم القيمة راضين مرضيين .

ومنها : ألم تسمع قوله تعالى « إن الذين آمنوا . . . » هم أنت وشيعتك ، وموعدي وموعدكم الحوض ، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غراً محجلين.

والأحاديث المنسوبة إلى النبي ، في هذا المجال ، يرويها علماء السنة ويحتج بها فقهاء الشيعة.

ثم إنهم يذهبون إلى أن النبي آثر علياً في بعض المواقف فبعثه ليقرأ على الناس سورة براءة بدلا من أبي بكر ، ولم يؤمر عليه أحداً في الغزوات والبعوث . ويقولون إن النبي قال إبان عودته من حجة الوداع عند غدير خم : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهمّ وال من ولاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، ألا هل بلغت .

وهكذا يربط الشيعة مذهبهم بالنبي نفسه وبالفترة ذاتها التي قامت فيها الدعوة الإسلامية .

* * *

والواقع أن « التشيع » ظهر بشكل واضح بعد مقتل عثمان ، وانتشر بين المسلمين وخاصة في البيئات الفارسية .

والواقع أيضاً أن حب عليّ وآل البيت (عليهم السلام) أمر يشترك فيه المسلمون جميعاً ، سنة وشيعة. إلاّ أن فكرة الإمامة وأحقية عليّ وبنيه بها هي التي ميزت الشيعة عن غيرهم . ولما كان التشيع قد ظهر بشكل أوضح في البيئة الفارسية فيحسن أن نذكر شيئاً عن هذه البيئة لما كان لها من تأثير

فكرى فى المتشيعين ، ومما قرن فكرة التشيع بأفكار فارسية قديمة أساء ظهورها إلى « التشيع » بالمعنى الصحيح .

كان الفرس فى العهد الأكمينى أحراراً فى عبادتهم . فكان للملوك دينهم كان الملك حراً فى اتباع الدين الذى يرى ، ولم يكن يرغم أحداً على اتباع هذا الدين ، اللهم إلا الفئة المتصلة به والتى تتبع دين الحاكم أياً كان هذا الدين. وكان لقبيلة المجوس دينها الذى هو دين زردشت . وقبيلة المجوس هذه هى إحدى القبائل السبع الممتازة التى نزحت فى العصور القديمة من الأصقاع الباردة ونزلت فى بلاد إيران الدافئة . وكان أفراد هذه القبيلة يتمسكون بدين زردشت ويعملون على نشره فى سائر البلاد . وقد حافظت القبيلة على هذا الدين ، بعيداً عن التأثر بالعقائد الأخرى ، لأنها سكنت جبال آذربيجان فكانت شبه منعزلة عن أقاليم إيران الأخرى . وكان المجوس — المُغان — ينزحون إلى هذه الأقاليم ليبثوا بين الشعب الإيرانى عقيدتهم . أما الشعب فكانت له عقائده الخاصة ، وأكثرها قائم على الخرافات الشائعة فى كل بيئة .

ورويداً رويداً بدأ دين زردشت — دين قبيلة المجوس — ينتشر بين الشعب وعند الملوك . وحين غزا الإسكندر إيران (٣٣٠ ق م) عمل على تحطيم الروح المعنوى للفرس بإحراق كتابهم « الأوستا » بعد أن هزم جيش دارا الثالث ، فضعف شأن رجال الدين الزردشتى وعاد التحلل الدينى إلى الظهور وصحبه الفساد الخلقى الذى أدى إليه تملق الحاكم الوثنى الإغريقى . وفى أوائل القرن الثالث الميلادى (٢١٢ م) قامت الدولة الساسانية على أساس توحيد إيران سياسياً وجعل دين زردشت ديناً رسمياً لها . وهكذا عادت إلى دين زردشت قوته .

[كتاب تنسر، ترجمة يحيى الخشاب، ص ٣٠ وما بعدها، مطبعة مصر، ١٩٥٤].

ولم يكد أول ملوك الساسانيين يموت حتى ظهر « مانى » ، فأقنع ثانى الملوك بدينه فدخل فيه وتبعه كثيرون ، وهكذا كانت أول نكسة لدين زردشت فى

العصر الساسانى ، ومن بعد شاپور الأول تمسك ولده هرمز الأول بالمانوية. ولكن ولده الثانى بهرام الأول عاد إلى ملة زردشت فقتل مانى . وحينئذ ظهرت الزندقة ، أطلقوها على أتباع مانى لأنهم اتبعوا مذهبه الذى بنى على تأويل ال « زندك » وهو تفسير « الأوستا » ، فنسبوا إلى زندك وقالوا زندكى (زنديق) .

وبعد قرنين ونصف قرن تقريباً ظهر مزدك (٤٩٨ م — قبيل مولد النبي (صلعم) — . ومزدك مصلح دينى أراد أن ينصح الملك بمراعاة العدالة فى توزيع الأقوات بعد أن مس إيران قحط مروع . ولقيت توجيهاته رضاً من الملك قباد وسخطاً من الأشراف ورجال الدين الذين أذلهم الحرص على ما اقتنوا من الأموال ، والذين اتخذوا من الحكم وسيلة للإثراء . أما الشعب فقد رحب بآراء مزدك ، ففيها خلاصه من شر القحط ، وكانت نتيجة الصدام بين الملك الذى أراد تطبيق آراء مزدك وبين الأشراف ورجال الدين الذين أسخطتهم تلك المبادىء أن هرب الملك إلى بلاد الهياطلة يستعين ملكهم ، وأن ثار الشعب فأفلت الزمام من يد مزدك وعقلاء الدولة ، واندفع الشعب اندفاعاً لا تعقل فيه ونادى بالشيوعية فى الأموال وفى النساء ، وسادت الفوضى . وجاء كسرى أنو شروان — وكان النبي (صلعم) قد ولد — فقتل مزدك .

ولكن مقتل مانى ثم مقتل مزدك واضطهاد من اتبع مذهبيهما لم يقض على المانوية والمزدكية . فإن القضاء على صاحب المذهب شىء وانقراض المذهب شىء آخر . وتشتت المانوية والمزدكية فى البلاد ليكونوا بعيدين عن الاضطهاد . ومنهم من خشى على حياته وعلى مصالحه فأخفى مذهبه المانوى أو المزدكى وأظهر أنه على دين زردشت . أو بعبارة أخرى أظهر الزردشتية وأبطن المانوية أو المزدكية . وشاع بين أتباع مانى ومزدك أن الرجلين لم يقتلا إنما رفعا إلى السماء ، وأن كلاً منهما سيعود إلى الأرض مرة أخرى ليملأها

عدلا بعد أن ملئت ظلماً . وظهر فى المذهبين رؤساء استغلوا سذاجة الإيرانيين وبثوا فيهم خرافات اتخذت مظهر الدين ، وظهرت لديهم أفكار الرجعة والحلول والتناسخ وغيرها.

وفى سنة ٦٥٢/٣١ تم الفتح العربى لبلاد الفرس ، ثم بدأ دخول الفرس فى الإسلام ، وكانوا بوجه عام يدينون بدين زردشت كدين للدولة ، وكان منهم من يظهر هذا الدين ويبطن المانوية أو المزدكية ، لأن الزردشتية دين الحاكم الذى بيده اضطهاد من ليس زردشتيا سواء فى نفسه أو فى مصالحه ، فلما أصبح الإسلام دين الحاكم أسلم بعضهم فى الظاهر وأبطنوا عقائدهم مجاراة للحاكم ومداراة ، وبعض الذين أسلموا إسلاماً صحيحاً لم ينسوا الخرافات التى شاعت بينهم فقرنوا هذه الخرافات بعقيدتهم الجديدة .

وهكذا ظهرت فئات تقول مثلا بأن لأبى مسلم الخراسانى حظاً من الإمامة وادعوا حلول روح الإله فيه ، وفئات أمها سنباد ، واسحق ، وأستادسيس ، والمقنع ، وبابك ، وكلها اتخذت من فكرة التشيع ستاراً لبث آرائها ومعتقداتها القديمة التى كانت تبطنها أيام الدولة الساسانية . وكلها أساءت إلى « التشيع » بالمعنى الصحيح وحسبت عليه .

وليس من الإنصاف أن ينسب ظهور هذه الفئات إلى الفرس على النحو الذى يذهب إليه ابن حزم [ج ٢ ، ص ٩١ من الفصل] ، إنما هو أثر البيئة عند من أبطنوا المانوية أو المزدكية وما خالطهما من خرافات — وهم قلة من الفرس — وليس لهذا صلة بما ذهب إليه ابن حزم .

* * *

وبعد علىّ انقسم شيعته إلى عدة فرق :

١ — الحسنية ، قالوا بإمامة الحسن وأولاده من بعده . ولكنهم تنازلوا عن حقهم قسراً للأمويين ، وبعد أن أديل من هؤلاء طالب

الحسنيون برد الحق إليهم ، واتخذوا من المدينة مقاما لهم . وقد تزعمهم ، أيام المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) أخوان هما :

محمد بن عبد الله بن الحسن ، النفس الزكية .

وابراهيم بن عبد الله بن الحسن .

وأقام الأول بالمدينة حيث التف حوله أهلها ، وأقام الثانى بالبصرة بعد أن طوّف كثيراً ، وخشى المنصور أمرهما فبعث عيسى بن موسى على رأس جيش كبير إلى المدينة . وتبودلت الرسائل بين النفس الزكية وعيسى . فعيسى يعير صاحبه بأن أجداده باعوا حقهم فى الخلافة للأمويين وبأن للعباسيين فضلا على بنى طالب فى الجاهلية حين كانوا فقراء . النفس الزكية يقول أنا ابن وصي الله ، وعيسى يقول أنا ابن عم رسول الله . ولم تجد المراسلات واستقر الرأى بين الحسنيين على القيام بالثورة فى يوم معين ، هذا فى المدينة وذاك بالبصرة . ولكنهما فشلا وقتلا .

٢ — جماعة قالوا بإمامة أبناء علىّ من غير فاطمة ، ومنهم الكيسانية والهشامية وغيرهما ، نادوا بإمامة محمد بن الحنفية ثم ولده أبى هاشم .

٣ — جماعة قالوا بإمامة أبناء على من فاطمة . وهذه الجماعة انقسمت إلى ثلاث فرق :

(أ) الزيدية ، وهم الذين قالوا بإمامة زيد بن على زين العابدين بن الحسين . ذلك لأن زيدا ثار لمقتل جده الحسين . ولكنه قتل وأحرق جثمانه .

(ب) جماعه قالوا بإمامة إسمعيل بن جعفر الصادق ثم ابنه محمد ، وهم الإسماعيلية .

(حـ) جماعة رأت أن الإمامة بعد زين العابدين لولده محمد الباقر ومن بعده جعفر الصادق ، صاحب المذهب الجعفرى ثم موسى بن جعفر الكاظم ، ثم على بن موسى الرضا ثم محمد التقى ثم علىّ النقى ثم الحسن الزكى ثم محمد بن

بن الحسن المهدى . وهذه هى جماعة الإمامية أو الإثنى عشرية أو الجعفرية أو الموسوية .

* * *

(ا) الزيدية :ومذهبهم أقرب مذاهب الشيعة إلى السنة . وفى الإمامة يقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، كما كان بالنسبة لأبى بكر وعمر من علىّ .

ونظرهم إلى الإمام معتدل ، فليست هناك إمامة بالنص ، بل يصلح لها كل قادر من أبناء على رضى الله عنه . والقدرة ليست قاصرة على العلم والزهد والسخاء ولكنها تمتد إلى الشجاعة والقتال فى سبيل الحق . وأكثرهم يرجع فى الأصول إلى الاعتزال وفى الفروع إلى مذهب أبى حنيفة .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٦٧٨]

* * *

(٢) الإسماعيلية : هم الذين قالوا بإمامة اسمعيل بن جعفر الصادق . وهم من غلاة الشيعة ، ويسمون بالسبعية لزعمهم أن النطقاء بالشريعة (الرسل) سبعة ، وبين كل ناطقين سبعة أئمة ، ولابد فى كل عصر من سبعة بهم يهتدى ويقتدى . . .

[التهانوى ، ج ١ ، ص ٧٣٩ — ٧٤٠] .

ومن أقوى دولهم الدولة الفاطمية فى مصر . وقد وفد عليها دعاة كثيرون من مختلف البلاد ليأخذوا المذهب الاسمعيلى من أصله .

والدروز فرقة اسماعيلية فى الأصل ، هم أتباع الدرزى الذى فرّ من مصر بعد فتنة الحاكم بأمر الله .

ثم إنهم انقسموا بعد المستنصر لدين الله إلى فرقتين : النزارية والمستعلية. والأولى — النزارية — قامت فى شرق العالم الإسلامى وأظهر فرقتين فيها :

الناصرية أتباع ناصر خسرو الذى كان ممن وفدوا على مصر أيام المستنصر ولا يزال أتباعه فى پامير حتى اليوم . والصباحية أتباع حسن الصباح الذى أقام دويلة له فى آلموت وقضى عليها هولاكو فى القرن السابع الهجرى . والأغاخانية القائمة اليوم من الإسمعيلية النزارية .

والثانية — المستعلية — بقاياها ممثلة اليوم فى طائفة البهرة باليمن وپاكستان . وللإسمعيلية عامة نشاط ملحوظ فى نشر مذهبهم وخاصة فى جنوب إفريقية .

[ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، فصل الفكر الدينى، القاهرة ١٩٤٠] .

* * *

(٣) الإثنى عشرية (الإمامية ، الموسوية ، الجعفرية) :

وهم الذين قالوا بتسلسل الإمامة من علىّ عليه السلام إلى الإمام الثانى عشر محمد المهدى القائم المنتظر . وجعلوا الإمامة لموسى الكاظم بعد والده جعفر الصادق . واتبعوا فقه جعفر رضى الله عنه .

وهؤلاء هم أكبر طائفة فى المسلمين بعد طائفة السنة ، وهم جمهرة العراق وإيران وملايين من مسلمى الهند ومئات الألوف فى سوريا وأفغانستان .

ويرون أن حب علىّ شىء والاقتداء به والمتابعة له شىء آخر . وينظرون إلى الصحابة نظرة عادلة عاقلة . وينفون عنهم القول بأنهم خالفوا النبى (ﷺ) أو لم يأخذوا بإرشاده حين جعلوا الإمامة فى الشيخين وعثمان قبل علىّ (ع) فهؤلاء الصحابة هم خيرة من على وجه الأرض يومئذ . ولكن « لعل تلك الكلمات — كلمات النبى — لم يسمعها كلهم ، ومن سمع بعضها لم يلتفت إلى المقصود منها ، وصحابة النبى الكرام أسمى من أن تحلق إلى أوج مقامهم بغاث الأوهام » .

«أما موقف على من خلافة أبي بكر وعمر فإنه امتنع عن المبايعة أول الأمر، قيل ستة أشهر، وأن جماعة من عيون الصحابة كالزبير وعمار والمقداد قد تبعوه، ولكنه حين رأى أن تخلفه عن البيعة يوجب فتقا في الإسلام لا يرتق، وكسرا لا يجبر، وأن هدفه هو تقوية الإسلام، وتوسيع نطاقه، وإقامة الحق، وإماتة الباطل، ولم يكن هدفه الرغبة في الحكم أو الحرص على الغلبة، لما رأى ذلك بايع وتعاون وأغضى عما يراه حقا له. ولم يكن للشيعة والتشيع يومئذ مجال للظهور لأن الإسلام كان يجرى على مناهجه القويمة، ولكن حين شبت الحرب بين على ومعاوية واستتب الأمر للأخير وقتل على (ع)، انتقل الأمر من الخلافة إلى الحكومة المستبدة، واضطهد العلويون، شيعة على، واستشهد الحسين ولقى العلويون طوال العهد الأموى ما حبب إليهم الزهد والتقوى فازداد عدد أنصارهم وانتشروا في العالم الإسلامي. ولم يكن العهد العباسى أقل اضطهادا للعلويين مما زاد في حب الناس إليهم والتعلق بهم.

[أصل الشيعة وأصولها، ص ٥٨، ٥٩].

* * *

والإسلام والإيمان عندهم مترادفان، يطلقان على معنى أعم يعتمد على ثلاثة أركان هي: التوحيد، والنبوة، والمعاد. ويطلقان على معنى أخص يعتمد على تلك الأركان الثلاثة وركن رابع هو العمل بالدعائم التي بنى عليها الإسلام وهي خمس: الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد.

ثم إنهم أضافوا ركنا خامسا وهو الاعتقاد بالإمامة. فهي منصب إلهي كالنبوة. فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وبأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان النبي يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي. فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي.

وعندهم أن من اعتقد بالإمامة على هذا النحو فهو مؤمن بالمعنى الأخص، وأما إذا اقتصر على تلك الأركان الأربعة فهو مسلم ومؤمن بالمعنى الأعم، تترتب له جميع أحكام الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ووجوب حفظه وحرمة غيبته. وبعبارة أخرى إن عدم الاعتقاد بالإمامة لا يخرج المؤمن عن كونه مسلما. وإنما يظهر أثر التدين بالإمامة فى منازل القرب والكرامة يوم القيامة، أما فى الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء.

[أصل الشيعة وأصولها ص ٧٣، ٧٤].

ومن هذا يتبين أمران:

١ — أن الإمام لا يوحى إليه، وليس لديه شيء من تنزيل أو تأويل يوحى إليه به [كما ذهب صاحب مقال صيانة القرآن من التحريف، بمجلة رسالة الإسلام، العدد ٢، السنة ١٠، ص ١٨٩].

٢ — أن عدم اعتقاد المسلم بالإمامة لا يخرجه عن الإسلام.

ويعتقد الإمامية أن الله لا يخلى الأرض من حجة على العباد، من نبي أو وصى ظاهر مشهور أو غائب مستور.

وعندهم أن النبي (ﷺ) نص وأوصى إلى على، وأوصى علىّ ولده الحسن، وأوصى الحسن أخاه الحسين وهكذا إلى الإمام الثانى عشر.

* * *

ويخطىء الكتاب الذين ينسبون إلى الشيعة الإمامية القول بالتناسخ والاتحاد والحلول والتجسيم، فهذه آراء الفئات الشيعية التى تأثرت بالآراء الفارسية القديمة وغيرها، وهذه الفئات نسبت إلى الشيعة لأن أصحابها استتروا وراء حب آل البيت، وهى على أية حال قد انقرضت ولم يبق منها أحد اليوم، وما يروى عن بعض المسلمين اليوم من هذه الآراء هو من قبيل الخرافات التى تروج فى أوساط السذج ولكنها ليست من أصول العقيدة.

أما الرجعة فيقول صاحب « أصل الشيعة وأصولها » : ليس التدين بالرجعة بلازم فى مذهب التشيع ولا إنكارها بضار وإن كانت ضرورية عندهم ، ولكن لا يناط التشيع بها وجودا وعدما ، وليست هى إلا كبعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة . مثل نزول عيسى من السماء ، وظهور الدجال ، وخروج السفيانى وأمثالها من القضايا الشائعة عند المسلمين وما هى من الإسلام فى شىء ، ليس إنكارها خروجا منه ، ولا الاعتراف بها بذاته دخولا فيه، وكذا حال الرجعة عند الشيعة [ص، ٤٤]

* * *

والعدل عند الإمامية من أصول العقائد وأركان الإيمان . ويراد به الاعتقاد بأن الله سبحانه لا يظلم أحداً ولا يفعل ما يستقبحه العقل السليم . وأدى هذا إلى القول بأن الإنسان حر مختار فى أفعاله . وملكة الاختيار وصفته كنفس وجوده من الله ، فهو خلق العبد وأوجده مختارا . فكلى صفة الاختيار من الله والاختيار الجزئى فى الوقائع الشخصية للعبد ومن العبد ، والله لم يجبره على فعل ولا ترك .

* * *

وباب الاجتهاد كان فى زمن النبى ﷺ مفتوحا ، بل كان أمراً ضروريا ، ثم لم يزل مفتوحا عند الإمامية إلى اليوم .

والإمامية لا تعمل بالقياس : إن الشريعة إذا قيست محق الدين .

ولا يعتبرون من السنة (الأحاديث النبوية) إلا ما صحّ لهم عن طريق أهل البيت عن جدهم يعنى ما رواه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله ﷺ

* * *

ما عدا تلك الأمور فالإمامية وسائر المسلمين فيها سواء ، لا يختلفون إلا فى الفروع كاختلاف علماء الإمامية أو علماء السنة فيما بينهم من حيث الفهم والاستنباط .

[أصل الشيعة وأصولها ، ص ٩٤]

ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي

تمهيد :

عندما ابتدأت لجنة المجمع للمصطلحات التاريخية والجغرافية تباشر عملها، اتجهت إلى البحث عن القواعد التي تقيم عليها وضع هذه المصطلحات . وقد وجدت اللجنة أن المؤرخين يستمدون المصطلحات التي يستخدمونها من العلوم والفنون الأخرى ، أي ليس للتاريخ مصطلحات خاصة به . والخوارزمي ، في كتابه مفاتيح العلوم ، دل اللجنة على ما يجب عليها أن تقوم به في هذا الشأن . فطريقة الخوارزمي هي أن يستعرض الكتب التاريخية والجغرافية ويستخرج منها ما سماه الألفاظ التي يكثر ورودها في تاريخ الروم أو فارس أو في المغازي إلخ ...

ونظراً للقيمة الكبيرة لهذا الكتاب فقد قامت اللجنة بضبط وشرح الألفاظ الاصطلاحية الواردة فيه وعرضته على المجلس لإقراره ووضعه تحت تصرف الباحثين . وقد قام بهذا البحث من أعضاء اللجنة الأستاذ يحيى الخشاب الذي أعد المصطلحات الفارسية والأستاذ الباز العريني الذي أعد المصطلحات العربية .

رئيس اللجنة

محمد شفيق غربال

(*) نشرت هذه المصطلحات بإذن الأستاذ الجليل رئيس المجمع .

الفصل الخامس

فى أسامى أرباب الملل والنحل المختلفة

أهرمن : خالق الشر عند المجوس (الخوارزمى ص ٣٨)
وهو إله الشر عند الزردشتيين ، وهو أصل الظلمة ، وهو ضد أهورامزدا إله الخير عندهم .

البهافريدية : جنس من المجوس ، ينسبون إلى رجل كان يسمى به آفريد بن فَرْوَردينان. خرج برستاق خواف ، من رساتيق نيسابور ، بقصبة سراوند ، بعد ظهور الإسلام ، فى أيام أبى مسلم ، وجاء بكتاب ، وخالف المجوس فى كثير من شرائعهم ، وتبعه خلق منهم ، وخالفه جمهورهم . (الخوارزمى ص ٣٨)

كيومرث : هو الإنسان الأول عند المجوس - (الخوارزمى ص ٣٨)
وقد نسل ميشى وميشيانه ، وهما بمنزلة آدم وحواء عندهم . زعموا أنهما خلقا من شجرتى ريباس[1] ، نبتتا من نطفة كيومرث .

المزدكية : نسبة إلى مزدك الذى ظهر أيام قباد ، وكان موبدان موبد ، أى قاضى القضاة للمجوس . وزعم أن الأموال والحُرَم مشتركة ، وأظهر كتابا سماه زند ، وزعم أن فيه تأويل الأوستا ، وهو كتاب المجوس ، الذى جاء به زردشت، الذى يزعمون أنه نبيهم ، فنسب أصحاب مزدك إلى زند ، فقيل

---

(١) الريباس نبات يشبه السلق.

زندى ، وأعربت الكلمة ، فقيل للواحد زنديق ، وللجماعة زنادقة . (الخوارزمى ص ٣٨)

وظهر مزدك فى القرنين الخامس والسادس للميلاد ، وكان من رجال الدين . وحين ألم القحط بإيران ، وضنّ الأشراف بما يفيض عن حاجاتهم من المؤن ، ومات الناس جوعا ، دعا مزدك إلى العدالة الاجتماعية ، التى تقضى بوجوب إعطاء الفقير من فائض الغنى . وقد تبعه الملك قباد فى هذا ، إظهارا لسخطه على الأشراف . ولكن حين عمت آراء مزدك ، أفلت الزمام من يده ،وانتقل إلى الغوغاء ، فكانت المناداة بإهدار نظام الطبقات ، وإحراق كتب الأنساب ، وبشيوعية الأموال والنساء . وعلا شأن مزدك وخاصة بعد أن أعيد قباد إلى العرش بعون من الهياطلة ، وقضى على مزدك حين قتله أنو شروان ، وأخمد الفتنة التى أثارها (القرن السادس الميلادى) . وأما الزند فهو شرح كتاب زردشت الأوستا ،وهو أقدم من مانى ومزدك ، وهو بالبهلوية زندكَ .

وحين لجأ مانى ومزدك إلى تفسير الأوستا ، أى إلى الزندك ، سمى كل منهما به، كما أطلق هذا الإسم على أتباعهما ، فقيل زندگى ، وجمعت بالعربية فقيل الزنادقة ، واحده زنديق . وأطلقت الكلمة فى الإسلام على الزردشتية والمانوية والمزدكية ، وعلى أتباع الملل والنحل التى تفرعت عنها ، بغير تمييز بينها .

المنانية : هم المانوية ، منسوبون إلى مانى (الخوارزمى ص ٣٥) وهو الذى ظهر بدعوة دينية جديدة ، أيام سابور الأول ، سنة ٢٤٢ م ، واعتنق هذا الملك مذهبه ، كما اعتنقه ولده هرمز

الأول ، ثم ولده الثاني بهرام الأول ، الذى عاد إلى ملة زردشت وقتل مانى . والمانوية هم الزنادقة ، وكانت المزدكية يسمون بذلك .

المرابذة : هم عبدة النيران ، وأحدهم هربذ (الخوارزمى ص ٣٨) . والمرابذة سدنة بيوت النيران ، وكبيرهم هو الهربذان هربذ ، وهو يلى الموبذان موبذ ، كبير الموابذة ، فى المرتبة .

الهامة : عند المانوية . روح الظلمة ، وهو الدخان عندهم .
(الخوارزمى ٣٨) .

الفصل السادس

في ذكر عبدة الأصنام من العرب وأسماء أصنامهم

أساف أو إساف : إساف ونائلة كانا على الصفا والمروة .
(الخوارزمى ص، ٢٩) .
وفى كتاب الأصنام[1] ص، ٢٩ إساف ونائلة، وكان أحدهما بلصق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة ، إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما .

سعد : لبنى ملكان بن كنانة (الخوارزمي ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبي ص، ٣٦—٣٧ وكان لمالك وملكان

---

(١) نشر أحمد زكى — طبعة دار الكتب المصرية .

ابنى كنانة بساحل جُدة ، وتلك الناحية ، صنم يقال له سعد ، وكان صخرة طويلة .

سُواع : كان لهذيل . (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وجاء فى الأصنام للكلبى ص، ١٠، لم أسمع لهذيل فى أشعارها له ذكرا ، إلا شعر رجل من اليمن . وكان سدنته بنو لحيان» .

عُزّى : لقريش وجميع بنى كنانه . (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبى ص، ١٧ — ١٩، وهى أحدث من اللات ومناة . . وكانت بوادٍ من نخلة الشامية ، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة . وكان العرب وقريش تسمى بها عبد العزى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش . وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبح .

اللات : لثقيف بالطائف . (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبى ص، ١٦ «واللات بالطائف ، وهى أحدث من مناة ، وكانت صخرة مربعة ، وكان يهودى يلت عندها السويق . وكان سدنتها من ثقيف ، بنو عتاب ابن مالك . وكانوا قد بنوا عليها بناء ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تسمى زيد اللات ، وتيم اللات . وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم . فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة ، فهدمها وحرقها بالنار .

مناة : للأوس والخزرج وغسان . (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبى ص ١٣ «أن العرب كانت تسمى

عبد مناة وزيد مناة ، وأنه كان منصوبا على ساحل البحر ، من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة .

نسر : لذى كلاع بأرض حمير . (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبى ص، ١١ واتخذت حمير نسرا ، فعبدوه بأض يقال لها بلخع . ولم أسمع حمير سمت به أحدا ، ولم أسمع له ذكرا فى أشعارها ، ولا أشعار أحد من العرب ، وأظن ذلك كان لانتقال حمـــير أيام تبع ، من عبادة الأصنام إلى اليهودية .

هُبَل : كان فى الكعبة ، وكان أعظم أصنامهم .
(الخوارزمى ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبى ص ، ٢٨ فإذا اختصموا فى أمر ، أو أرادوا سفرا أو عملا ، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به ، وانتهوا إليه » .

وَدّ : كان لكلب (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وجاء فى الأصنام للكلبى ص، ١٠ « واتخذت كلب ودًّا بدومة الجندل » ، وهو مضبوط هكذا فى القرآن . وجاء فى القاموس أنه يجوز نطقه بضم الواو .

يعوق : لهمدان . (الخوارزمى ص، ٣٩) .
وفى الأصنام للكلبى ص، ١٠ « واتخذت خيوان يعوق ، فكان بقرية لهم يقال لها خيوان ، من صنعاء على ليلتين مما يلى مكة ، ولم أسمع همدان سمت به ، ولا غيرها من العرب ، ولم أسمع لها ولا لغيرها فيه شعرا ، وأظن ذلك لأنهم قربوا

من صنعاء ، واختلطوا بحمير ، فدانوا معهم باليهودية أيام تهوّد ذو نواس » .

يغوث : لمذحج وقبائل من اليمن ، وكان بدومة الجندل .

(الخوارزمى ص ٣٩) .

وجاء فى الأصنام للكلبى ص ١٠ واتخذت مذحج وأهل جرش يغوث .

الباب الرابع

فى الكتابة ، وهو ثمانية فصول

الفصل الأول

فى أسماء الذكور والدفاتر والأعمال

الاستقرار عمل يعمل لما يُستَقَرّ عليه من الطعم بعد الإثبات ، والفك ، والوضع ، والزيادة ، والحطّ ، والنقل ، والتحويل ونحو ذلك . (الخوارزمى ص٥٧)

وفى « لسان العرب » الطعمة شبه الرزق ، يريد به ، ما كان له من الفيء وغيره ، وجمعها طُعَم .

الأنجيذج تفسيره الملفوظ ، لفظة فارسية معرّبة .

(الخوارزمى ص٥٨)

الأوارَج إعراب آوارَه[1] ، ومعناه بالفارسية المنقول، لأنه ينقل إليه من القانون ، ما على إنسان إنسان ، ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى ، إلى أن يُستوفى ما عليه . ومنه التأريج .

(الخوارزمى ص، ٥٤)

الأوشنج تفسيره المطوى والمجموع ، لفظة فارسية معربة .

(الخوارزمى ص، ٥٨)

أصله أشنه ، وهو نبات يلتف حول شجر البلوط والصنوبر.

---

(١) أواره بالفارسية كتاب الحساب ، ويقال للمحاسب أواره ككير .

البـراءة — حجة يبذلها الجَهْبَذ ، أو الخازن، للمؤدِّى، بما يؤديه إليه (الخوارزمى ص، ٥٥)

التـاريج — قيل لفظة فارسية . ومعناه النظام ، لأنه كسواد يُعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جُملها. ولعله تفعيل من الأوارج، تقول أرجت تأريجا ، لأن التأريج يعمل للعقد شبيها بالأوارج فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض، يكون مصفوفا، ليسهل عقده بالحساب ، وهكذا يعمل التأريج .

التَرْقِين — خطٌّ يُخَطُّ فى التأريج أو العريضة ، إذا خلا باب من السطو ، لكى يكون له الترتيب محفوظا ، وهو بمنزلة الصفر فى حساب الهند ، وحساب الجمل . واشتقاقه من رقان ، وهو بالنبطية الفارغ . (الخوارزمى ص، ٥٨)

وفى قاموس Steingass [١] الترقين من رقن ، والمقصود وضع علامة . أما النبطية فالمقصود بها الآرامية[٢] .

الجـائزة — علامة المقابلة (الخوارزمى ص، ٥٦)

الجريدة السوداء — من دفاتر ديوان الجيش ، وهى تكسر لقيادة قيادة ، فى كل سنة بأسامى الرجال وأنسابهم وأجناسهم ، وحلاهم ومبالغ أرزاقهم ، وقبوضهم ، وسائر أحوالهم ، وهى الأصل الذى يُرْجع إليه فى هذا الديوان ، فى كل شيء .

(الخوارزمى ص، ٥٦)

الجريدة المسجلة — هى المختومة (الخوارزمى ص، ٥٧)

---

(١) Steingass : A Comparative Persian English Dicitonary;

(٢) انظر En. Is. Ar. Nabat

الدُروزَن — ذكر الماسح وسواده ، الذى يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الأرضين . (الخوارزمى ص،٥٨)

وفى الفارسية الحديثة،بمعنى آلة الحصاد .

الدستور — نسخة الجماعة المنقولة من السواد(الخوارزمى ص،٥٨)

والدستور عند الفرس قبل الإسلام ، هو القاضى ، وخبير المسائل الدينية وكان من ثقات الملك (دست ور أى صاحب السلطة) .

الرجعة — حساب يَرفعه المُعطى فى بعض العساكر بالنواحى ، لطمع واحد ، إذا رجع إلى الديوان . (الخوارزمى ص،٥٦)

الرجعة الجامعة — يرفعها صاحب ديوان الجيش ، لكلّ طمع ، من صنوف الاتفاق . (الخوارزمى ص ،٥٦)

وفى « لسان العرب » الطمَعُ رِزق الجند ،وأطماع الجند أرزاقهم . يقال أمر لهم الأمير بأطماعهم ، أى بأرزاقهم . وقيل أوقات قبضها .

الروزنامج — تفسيره كتاب اليوم ، لأنه يكتب فيه ما يجرى كل يوم من استخراج أو نفقة ، أو غير ذلك .

ويكتب عادة روزنامه — (الخوارزمى ص، ٥٤)

(روز بمعنى اليوم ، نامه بمعنى الكتاب) .

السِّجِلّ — كتاب يكتب للرسول ، أو المخبِّر ، أو الرحّال ، أو غيرهم ، بإطلاق نفقته حيث بلغ ، فيقيمها له كل عامل يجتاز به . والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضى،بفصل القضاء ، يقال سَجَّل الحاكم لفلان بكذا تسجيلا . (الخوارزمى ص،٥٧)

الصَّكّ عمل يعمل لكل طمع ؛ يجمع فيه أسامى المستحقّين ، وعدّتهم ، ومبالغ غالم ، ويوقع السلطان فى آخره بإطلاق الرزق لهم . ويعمل أيضاً لأجود السربانيين والجمالين ونحوهم.
(الخوارزمى ص، ٢٧)

والسَّارَبان : هو الجمّال .

العريضة شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تُعْمل لأبواب يُحْتَاج إلى أن يُعلَم فَضل ما بينها ، فينقص الأقلّ من الأكثر ، من باين منها ، ويُوْضَح ما يَفْضُل فى باب ثالث ، وهو الباب المقصود ، الذى تعمل العريضة لأجله ، مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج ، فى أكثر الأحوال ، ينقص الاستخراج عن الأصل ، فيوضع فى السطر الأول من سطور العريضة ، ثلاثة أبواب : أحدها للأصل ، والثانى للاستخراج ، والثالث لفضل ما بينهما . ثم يوضع فى السطر الثانى ، والرابع إلى حيث انتهى ، تفصيلات الأصل والاستخراج ، وفضل ما بينهما ، ويثبت كل واحد منهما ، بإزاء بابه ، وتثبت جملة كل باب تحته .
(الخوارزمى ص،٥٥)

الفهرست ذكر الأعمال والدفاتر التى تكون فى الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء
(الخوارزمى ص،٥٧)

المحاسبة حساب جامع ، يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، فإذا لم تجر الموافقة على تفصيلاته ، سمى محاسبة .
(الخوارزمى ص ،٥٦)

المواضعة عمل يعمل ، فتوصف فيه أحوال تقع وأسبابها ودواعيها وما يعود بثباتها أو زوالها .

(الخوارزمى ص، ٥٧)

الموافقة والجماعة حساب جامع ، يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ، ما لم يرفع باتفاق بين الدافع والمدفوع إليه ، فان انفرد به أحدهما ، دون ان يوافق الآخر على تفصيلاته ، سمّى محاسبة . (الخوارزمى ص، ٥٦) .

المُؤامرة عمل تُجْمَع فيه الأوامر الخارجة فى مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان فى آخره بإجازة ذلك ، وقد تعمل المؤامرة فى كل ديوان ، تجمع جميع ما يحتاج إليه من استئمار واستدعاء وتوقيع . (الخوارزمى ص، ٥٦) .
والائتمار ، والاستئمار ، حسبما ورد فى لسان العرب المشاورة .

الفصل الثانى

فى مواضعات كتاب ديوان الخراج

أخماس الغنائم من أبواب المال (الخوارزمى ص، ٥٩)

أخماس المعادن من أبواب المال (الخوارزمى ص، ٥٩)
اعتبر ابو يوسف[1] من الغنائم ما أصيب فى المعادن من الذهب والفضة ، والنحاس والحديد والرصاص فإن فى ذلك الخمس فى أرض العرب ، كان او فى أرض العجم .

إغلاق الخراج الفراغ من جبايته (الخوارزمى ص، ٦٠)

(١) ابو يوسف : كتاب الخراج — طبعة بولاق . ص ١٢ .

افتتاح الخراج	الابتداء فى جبايته	(الخوارزمى ص ٦٠)
الإستان	المقاسمة	(الخوارزمى ص ٥٩)

والمقصود ما يؤخذ من الخراج مقاسمة ، على ما بيد المزارعين من الأراضى ، أى من نفس المحصول .

الإقطاع أن يقطع السلطان رجلا أرضا ، فتصير له رقبتها ، وتسمى تلك الأرضون قطائع ، واحدتها قطيعة .
(الخوارزمى ص ٦٠)

الإيغار هو الحماية ، وذلك أن تحمى الضيعة ، أو القرية ، فلا يدخلها عامل ، ويوضع عليها شىء يؤدى فى السنة لبيت المال ، فى الحضرة أو فى بعض النواحى .
(الخوارزمى ص ، ٦٠)

وفى لسان العرب : والإيغار المستعمل فى باب الخراج ، قال ابن دريد لا أحسبه عربيا صحيحا ، يقال أوعز العامل الخراج ، أى استوفاه . ويقال الإيغار ، أن يوغر الملك لرجل الأرض ، يجعلها له من غير خراج . وقد يسمى ضمان الخراج إيغارا . وقيل الإيغار أن يسقط الخراج عن صاحبه فى بلد ، ويحول مثله إلى بلد آخر ، فيكون ساقطا عن الأول ، وراجعا إلى بيت المال . وقيل سمى الإيغار ، لأنه يوغر صدور الذين يزاد عليهم خراج لا يلزمهم .

الباقى ما هو باق من الخراج على الرعية ، لم يستخرج بعد
(الخوارزمى ص ، ٦٠)

التخمين الخرص ، الحزر ، الخضر ، مشتق من تخانا ، وهو بالفارسية لفظة شك وظن .
(الخوارزمى ص، ٦٠، ٦١)

التريكة من مظاهر التسويغ . (الخوارزمى ص، ٦٠٠)

وفى لسان العرب — من التركة ، وهى الشيء المتروك ، ومنه حديث عليّ عليه السلام ، وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس . والتريكة الروضة ،التى يغفلها الناس فلا يرعونها . والمقصود ما يرفع من خراج عن الأرض .

التسويغ : أن يسوّغ الرجل شيئاً من خراجه فى السنة (الخوارزمى ص، ٦٠)

وفى رسائل مجد الدين بن الأثير ص ٥٥ ب[1] ، كأن يرفع عنه شيء من الخراج ، ومن الالتزامات المفروضة على الأرض فى الكلف والسخر والمطالبات .

التقرير : من الإقرار ، قرر العامل القوم بالبقايا ، فأقروا بها ، ثم يسقط ذكر القوم ، فيقال قرر العامل بالبقايا . (الخوارزمى ص،٦٠) .

التلجئة : أن يلجيء الضعيف ضيعته إلى قويّ ، ليحامى عليها ، وجمعها الملاجيء والتلاجيء . وقد يلجيء القويّ الضيعة ، وقد ألجأها صاحبها إليه . (الخوارزمى ص ٦٢) .

الجزية : معرب كزيت وهو الخراج بالفارسية . (الخوارزمى ص،٥٩) .

(انظر ماورد عن جزاء)

الحاصل : ما يكون فى بيت المال أو على العامل من المال . (الخوارزمى ص،٦٠) .

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٠٤ أدب .

الحَزْر : تقدير غلات الزروع . (الخوارزمى ص ٦١) .
وفى لسان العرب — هو الخرص[1] ، وهو تقدير بظنٍ ، لا إحاطة .

الحَشَرىّ : ميراث من لا وارث له . (الخوارزمى ص،٥٩) .

الحطيطة : مثل التسويغ[2] (الخوارزمى ص،٦٠) .
وفى « لسان العرب » الحطيطة ما يُحَطّ من جملة الحساب ، فينقص منه .

الخراج : ما يؤخذ من أرض الصلح . (الخوارزمى ص،٥٨) .

الخَرْص : تقدير ثمار النخل والكروم خاصة .
(الخوارزمى ص،٦١) .

الرائج من المال : ما يسهل استخراجه . (الخوارزمى ص،٦١) .

الرّكاز : دفين الجاهلية . (الخوارزمى ص،٥٩) .
وفى الأحكام السلطانية[3] : الركاز كل مال وُجد مدفونا من ضرب الجاهلية ، فى موات ، أو طريق مسابل ، يكون لواجده ، وعليه خمسه ، يصرف فى مصرف الزكاة ، لقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وفى الركاز الخمس .

الطَسْق : الوظيفة ، توضع على أصناف الزروع لكل جريب ، وهو بالفارسية تشك ، وهو الأجرة
(الخوارزمى ص،٥٩) .

وجاء فى « الألفاظ الفارسية المعرّبة ، إدى شير » :

---

(١) انظر ماورد عن « التخمين » .

(٢) انظر ماورد عن « التسويغ » .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية — طبعة الحلبى ، ص ١٠٦ .

الطسق والطسك : مكيال ، وقيل ما يوضع من الخراج على الجربان (جمع جريب) ، أو شبه ضريبة معلومة . والأول أصح لأنه معرب من تشه ، وهو ظرف يكال به السمن .

الطُعْمَة : هى أن تُدْفَع الضيعة إلى رجل يعمرها ، ويؤدى عشرها ، وتكون له مدة حياته ، فإذا مات ارتجعت من ورثته . والقطيعة تكون لعقبه من بعده . (الخوارزمى ص٦٠) .

وفى لسان العرب ، الطُّعْمة المأكلة ، والجمع طُعَم ، ويقال جعل السلطان ناحية كذا طعمة لفلان ، أى مأكلة له . والطعمة شبه الرزق ، يريد به ما كان له من الفيء .

العِبْرة : ثبت الصدقات لكورة كورة ، وعبرة سائر الارتفاعات ، هى أن يعتبر ارتفاع السنة التى هى أقل ريعا ، والسنة التى هى أكثر ريعا ، ويجمعان ويؤخذ نصفهما ، فتلك العبرة ، بعد أن تعتبر الأسعار ، وسائر العوارض الواقعة .

(الخوارزمى ص٦٠).

العُشْر : ما يؤخذ من زكاة الأرض التى أسلم أهلها عليها ، والتى أحياها المسلمون ، من الأرضين أو القطائع .

(الخوارزمى ص٥٨ — ٥٩).

الفيء : ما يؤخذ من أرض العنوة . (الخوارزمى ص، ٥٨)

الكُسُراع : ما يؤخذ من الزكاة فى الدواب لا غير .

(الخوارزمى ص٥٩) .

المتعذّر ، والمتحيّر ، والمتعقّد : ما يتعذر استخراجه من المال لبعد أربابه ، أو لإفلاسهم . (الخوارزمى ص٦١) .

المحسوب : ما يحسب للعامل من المال ، بعد الموافقة على تفصيلات حسابه. (الخوارزمى ص،٦١).

المردود : ما يردّ على العامل من المال ، ولا يحسب له.
(الخوارزمى ص،٦١).

المفارقة ، والمرافعة ، والمصادرة ، والمصالحة : متقاربة المعانى.
(الخوارزمى ص،٦٢).

وفى لسان العرب — قد فارقت فلانا من حسابى على كذا وكذا ، إذا قطعت الأمر ، بينك وبينه ، على أمر وقع عليه اتفاقكما ، وكذلك صادرته على كذا وكذا.

المكس : ضريبة تؤخذ من التجار فى المراصد.
(الخوارزمى ص،٥٩).

وفى «لسان العرب» المرصد والمرصاد الطريق.
والمرصد الموضع الذى ترصد الناس فيه.
والمقصود المواضع التى يؤخذ فيها الضريبة من التجار.

المتكسر من المال : ما لا يطمع فى استخراجه ، لغيبة أهله ، أو موتهم أو نحو ذلك. (الخوارزمى ص،٦١).

الموقوف : ما يوقف من المال ليُنَاظَر عليه العامل ، أو يُستأمر السلطان فى حسبه أو ردّه. (الخوارزمى ص،٦١).

النفقات الراتبة : هى الثابتة التى لا بد منها. (الخوارزمى ص،٦١).

النفقات العارضة : التى تحدث ، والمقصود الطارئة. (الخوارزمى ص،٦١).

جِزَاء : من أبواب المال — جمع جزية ، وهو معرّب ، وهو الخراج بالفارسية. (الخوارزمى ص، ٥٩).

سيب البحر: هو عطاء البحر ، كاللؤلؤ ، والمرجان ، والعنبر ونحوه (الخوارزمى ص، ٥٩) .

قال أبو يوسف : (الخراج ص،٣٩) — هو ما يخرج من البحر من الحلية ، والعنبر ، وفيه الخمس .

صدقات الماشية: وهى زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم ، دون العوامل والمعلوفة . (الخوارزمى ص،٥٩) .

وفى الأحكام السلطانية ص،١٠١ .

وزكاة المواشى تجب ، بشرط أن تكون سائمة ، ترعى الكلأ فتقل مؤونتها ، ويتوفر درّها ونسلها ، فإن كانت عاملة أو معلوفة ، لم تجب فيها زكاة .

مال الجوالى : جمع جالية ، وهم الذين جلوا عن أوطانهم ، ويسمى فى بعض البلدان ، مال الجماجم ، وهى جمع جمجمة ، وهى الرأس . (الخوارزمى ص، ٥٩) .

وفى « لسان العرب » قيل لأهل الذمة الجالية ، لأن عمر ابن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ، فسموا جالية ، ولزمهم هذا الاسم أين حلوا . ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد ، وإن لم يجلوا عن أوطانهم .

الفصل الثالث

فى مواضعات كتاب ديوان الخزن

التسبيب : أن يُسبب رزق رجل، على مال متعذر ، ليعين المسبَّبُ له العامل على استخراجه ، فيجعل ورِداً للعامل ، وإخراجاً إلى المرتزق بالقلم . (الخوارزمى ص، ٦٢) .

وفى لسان العرب التسبب كل شيء يُتوصّل به إلى غيره. وكل شيء يتوصل به إلى الشيء فهو سبب . وتسبُّبُ مال الفيء أخذ من هذا ، لأن المسبَّبَ عليه المال ، جُعِلَ سببا لوصول المال إلى من وجَبَ له ، من أهل الفيء .

والمقصود بعبارة ورد للعامل وإخراج إلى المرتزق ، أن هذا المال يحسب من خراج العامل ، وفى نفقات المرتزق .

التوظيف : أن يوظف على عامل ، حمل مال معلوم ، إلى أجل مفروض ، فالمال هو الوظيفة . (الخوارزمى ص، ٦٢) .

السُّفتجَه : تعريب سُفْته — وهى خطاب الحوالة فى التعبير المالى الحديث .

الحبّة : سدس سدس مثقال .

ربع تسع مثقال . (الخوارزمى ص، ٦٣) .

الحُمُول : الأموال التى تحمل إلى بيت المال ، واحدها حَمْل .

(الخوارزمى ص، ٦٢) .

الدانق : أربعة طساسيج ، وهو سدس الدرهم .

(الخوارزمى ص ٦٢ — ٦٣) .

انظر « الطسوج » .

الطسّوج : ثلث ثمن مثقال . (الخوارزمى ص، ٦٢) .

الدينار : أربعة وعشرون طسوجا .

عشرون قيراطا فى أكثر البلدان .

ست وثلاثون حبة .

مائة وثمانى شعيرات . (الخوارزمى ص، ٦٣) .

الشعيرة : ثلث الحبة .
ثلث ربع تسع مثقال .
وتختلف هذه المقادير باختلاف البلدان ، وما ورد هو الأعم والأشهر . (الخوارزمى ص،٦٣)

القيراط : ربع خمس مثقال . (الخوارزمى ص،٦٣) .

الفصل الرابع

فى ألفاظ تستعمل فى ديوان البريد

الأسكُدار : لفظة فارسية وتفسيرها : ازكودارى ، أى من أين تمسك . وهو مُدرج ، يكتب فيه عدد الخرائط ، والكتب الواردة والنافذة وأساس أربابها . (الخوارزمى ص ، ٦٤) .

وجاء فى الخوارزمى ص ٧٨ : أنه مدرج يكتب فيه جوامع الكتب المنفذة للختم .

البريد : كلمة فارسية ، وأصلها بُريدة دُنُب · أى محذوف الذنب . وذلك أن بغال البريد محذوفة الأذناب ، فعربت الكلمة ، وخففت ، وسمى البغل بريدا ، والرسول الذى يركبه بريدا ، والمسافة التى بعدها فرسخان بريدا ، إذ كان يرتب فى كل سكة بغال ، وبعد ما بين السكتين فرسخان بالتقريب .

(الخوارزمى ص ، ٦٣) .

السكة : الموضع الذى يسكنه الفيوج ، المرتبون من رباط ، أو قبة ، أو بيت أو نحو ذلك . (الخوارزمى ص ، ٦٤) .

وفى Dozy[1] السكة المسافة بين محطتين من محطات البريد، وقدرها أربعة فراسخ ، على أن ما ورد عن البريد يدل على أن السكة الموضع الذى ترتب فيه بغال البريد ، ويقع عند رأس كل مرحلة ، ويسكنه فيوج (رُسُل) مرتبون من قبل السلطان .

الفُرانق : الحامل للخرائط، ويقال خادم . بالفارسية پروانه .

(الخوارزمى ص، ٦٤).

وهى من پروانگ ، ومعناه الدليل (وخاصة بالنسبة للجيش) ، ومن يقدم الرسائل لديوان الملك ، وساعى البريد[2] .

الموَقِّع : الذى يوقع على الأسكدار، وهو المدرج الذى يكتب فيه عدد الخرائط والكتب ، الواردة والنافذة ، وأسامى أربابها ، إذا مرّ به ، بوقت وروده وصدوره .

(الخوارزمى ص، ٦٤).

الفصل الخامس

فى مواضعات كتاب ديوان الجيش

إقامة الطّمع هو وضع العطاء ، أى الابتداء فيه .

(الخوارزمى ص، ٦٥)

وفى لسان العرب الطَّمَع رزق الجند ، وأطماع الجند أرزاقهم ، وقيل أوقات قبضها .

---

(١) Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes

(٢) انظر Steingass A. Comparativc Persiea English Dictionary

الإثبات — أن يثبت اسم الرجل فى الجريدة السوداء ، ويفرض له رزق . (الخوارزمى ص، ٦٤)

انظر ماورد عن الجريدة السوداء فى الفصل الأول .

الأطماع — تسمى الرزقات فى ديوان العراق ، واحدتها رزقة ، لأنها المرة الواحدة من الرزق . (الخوارزمى ص ، ٦٥)

التحويل — أن يحول جريدة إلى جريدة . (الخوارزمى ص ، ٦٤)

والجريدة ، حسبما ورد فى Dozy ، السجل أو القائمة ، ومنها جريدة العسكر ، وجريدة الخراج ، ورجال الجرائد .

التلميظ — أن يطلق لطائفة من المرتّقين بعض أرزاقهم قبل أن يستحقوها . (الخوارزمى ص ، ٦٥)

الزيادة — أن يزاد للجندى فى جاريه شيء معلوم .

(الخوارزمى ص ، ٦٤)

والجارى والرزق بمعنى واحد ، والمقصود الراتب[1] .

الساقط — الذى يموت من الجند ، أو يستغنى عنه ، فيوضع عن الجريدة . (الخوارزمى ص ، ٦٥)

السَلَف — أن يطلق لطائفة من المرتّقين أرزاقهم كلها ، قبل أن يستحقوها . (الخوارزمى ص ،٦٥)

الفَكّ — هو أن يصحح اسم الجندى ورزقه فى الجريدة ، بعد ما وضع ، يقال فَكّ عن اسم فلان فى الجريدة ، كأنما فك من الحلقة فكا . (الخوارزمى ص،٦٥)

المتأخّر — الذى يتأخر من الجند عن مجلس الإعطاء ،وقت التفرقة .

(الخوارزمى ص ،٦٥)

---

(١) انظر : هلال الصابىء : كتاب الوزراء — نشر أمدروز ، ص ١١٩ .

المُقَاصّة أن يُحْبَس من القابض لماله، ما كان تَلَمَّظه واستسلفه، وربما يقاص من رزقه بحق بيت المال قِبَله من خراج، فيجعل ما استسلفه إخراجا إليه، وورداً له.

(الخوارزمى ص،٦٥)

المنحلّ الذى قد أُخَلّ بمكانه، ولما يوضع بعد.

(الخوارزمى ص، ٦٥)

النَّقْل أن ينقل بعض ماله إلى جارى رجل آخر.

(الخوارزمى ص،٦٤)

الوضع أن يُحَلَّق على اسمه، فيوضع عن الجريدة.

(الخوارزمى ص،٦٤)

والمقصود، حسبما ورد فى Dozy، رفع الاسم من الجريدة وطرده من الخدمة.

حساب الجند من الأرزاق فى ديوان خراسان، وهو طمعان فى السنة

(الخوارزمى ص،٦٥)

حساب المرتزقة من الأرزاق فى ديوان خراسان. وهو فى كل سنة ثلاثة أطماع. (الخوارزمى ص،٦٥)

حساب العشرينية — من أصناف الأرزاق فى ديوان خراسان. وهى أربعة أطماع فى السنة. (الخوارزمى ص،٦٥)

الفصل السادس

ألفاظ تستعمل فى ديوان الضياع والنفقات من ألفاظ المسّاح

الأشْل ستون ذراعا فقط . (الخوارزمى ص ٦٦)

وفى المنازل السبعة[1] ، ورقة ٧٤ ب ، الأشل حبل أو سلسلة طولها ستون ذراعا بذراع المساحة .

وفى القاموس المحيط ، والأشل مقدار من الذرع معلوم بالبصرة ، والأشول الحبال ، كأنه يذرع بها ، وهى لفظة نبطية أى آرامية .

الأصبع ثلث ثمن الذراع . هذا فى الطول وحده ، وفى العرض وحده . (الخوارزمى ص ٦٦)

وفى المنازل السبعة ورقة ٧٤ ب .

والباب (القصبة) ستة أذرع ، والذراع ست قبضات ، والقبضة أربعة أصابع .

فصارت المراتب فى أعمال المساحة خمسة ، وهى الأشل ، والباب ، والذراع ، والقبضة ، والأصبع .

الجريب وهو أشل فى أشل ، ومعناه ستون ذراعا طولا ، فى مثلها عرضا ، فيكون تكسيرها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسّرة . (الخوارزمى ص ٦٦)

---

(١) البوزجانى المهندس : محمد ابو الوفا محمد بن محمد — المنازل السبعة — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ رياضة م.

وعلم التكسير والحساب . جسما ورد فى Dozy ، استخراج مقدار المساحة .

الجريب . من مكاييل خراسان ، ويختلف عياره فى البلدان ، وهو عشرة اقفزة . فهو فى أرباع نيسابور، خمسة وعشرون منا ، وفى بعض رساتيقها خمسة عشر منـا ، وفى بعض البلدان خلاف ذلك . (الخوارزمى ص، ٦٧)

والمنا وزن مائتين وسبعة وخمسين درهما ، وسبع درهم ، وبالمثاقيل مائة وثمانون مثقالا ، وبالأواقى أربع وعشرون أوقيـة . (الخوارزمى ص، ٦٧)

الذراع المكسرة — أن يكون طولها ذراعا ، وعرضها ذراعا .

(الخوارزمى ص، ٦٦)

السُّخ مكيال لأهل خوارزم وطخارستان ، وعياره أربعة وعشرون منا ، وهو قفيزان . (الخوارزمى ص، ٦٨)

وجاء فى «الألفاظ الفارسية المعرّبة» أن السخ نحو أربعة وعشرين مناً . وهو لفظ فارسى (محيط المحيط) . فيكون مشتقا من سَخْتَن ، ومعناه الوزن .

العَشِير عشر القفيز ، وهو ست وثلاثون ذراعا مكسرة ، هذا على ما يُستعمل بالعراق ، وقد يختلف ذلك فى سائر البلدان، إلا أن حسابه يدور على هذا ، وان اختلفت الأسماء ، ونقصت المقادير . (الخوارزمى ص، ٦٧)

الغار لأهل خوارزم ، وهو عشرة أغوار ، ولأهل نسف مكيال يسمى أيضا «غار» ، وهو مائة قفيز ، والقفيز عياره تسعة أمناء ونصف . (الخوارزمي ص،٦٨) .

الشُور مكيال لأهل خوارزم أيضا، وهو اثنا عشر سخا .
(الخوارزمى ص، ٦٨) .

الفالج من مكاييل العراق ، ومقداره ُخمسا الكُر المعدل .
(الخوارزمى ص، ٦٧) .

القَبّ من مكاييل العراق ، أربعة مكاكيك ، وهو خمسة أعشراء
(الخوارزمى ص،٦٧) .

القبضة سدس الذراع . (الخوارزمى ص،٦٦) .

القفيز ُعشر الجريب ، وهو ثلاثمائة وستون ذراعا مكسرة .
(الخوارزمى ص،٦٧) .

القفيز من مكاييل خراسان . ويختلف عياره ، فهو فى قصبة نيسابور سبعون مناحنطة ، وفى بعض أرباعها منوان ونصف ، وفى بعض رساتيقها من ونصف .
(الخوارزمى ص، ٦٨) .

وهو من مكاييل العراق أيضا ، وعياره عشرة أعشراء ، أو خمسة وعشرون رطلا بالبغدادى .
(الخوارزمى ص،٦٧) .

القُنْقل هو ضعف الكرّ المعدل . (الخوارزمى ص،٦٧) .

الكُرّ المعدّل من مكاييل العراق ، وهو ستون قفيزا .

والكر الهاشمى ثلث المعدل ، وكذلك الكر الهارونى والأهوازى . (الخوارزمى ص،٦٧) .

المختوم من مكاييل العراق ، وهو سدس القفيز المعدل .
(الخوارزمى ص، ٦٧) .

المكوك سبعة أمناء ونصف . (الخوارزمى ص،٦٧) .

النساب ست أذرع طولا . (الخوارزمى ص،٦٨) .

النَّغْنَجة مكيال لأهل بخارى ، وعياره خمسة وسبعون مناحنطة . (الخوارزمى ص، ٦٨) .

وفى قاموس Steingass نَغْنَغ مكيال كبير يستخدم فى بلاد ما وراء النهر ، وعياره حمل أربعة حمير .

الفصل السابع

ألفاظ تستعمل فى ديوان الماء

الأزلة مقدار يقاطع عليه الحفّارون ، وهى مائة ذراع مكسّرة ، طولا وعرضا وعمقا . مثال ذلك عشرة أذرع طولا ، فى ذراعين عرضا ، فى خمسة أذرع عمقا ، يكون مائة ذراع مكسّرة ، وهى الأزلة . (الخوارزمى ص ، ٧٠) .

الأنقُلة سكرمرو

وفى معجم البلدان أنقُلقان بالفتح ثم السكون ، وضم القاف الأولى ، وسكون اللام والف ونون ، وبعضهم يقول انكلكان من قرى مرو .

البخسىّ ما لا يسقيه إلا المطر . والبخسُ هى التى تزرع ، ولا تسقى من الأرض . (الخوارزمى ص ، ٧١) .

وفى المخصص جـ ٩ ، ص ١٥٢ : البخس أرض تنبت من غير سقى .

البزند هو البستان. (الخوارزمى ص،٧٠).

وفى قاموس Steingass بزند نوع من الحشائش ، يطبخ .

البُست قياس تصالح عليه أهل مرو ، وهو مخرج للماء من ثقب طوله شعيرة ، وعرضه شعيرة .

وفى « الألفاظ الفارسية المعربة » البَست فارسى محض ، وهو مفتح الماء فى فم النهر أو الجدول .

البَعل ما تسقيه السماء . (الخوارزمى ص ، ٧١) .

وفى لسان العرب : البعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة . وقيل البعل كل شجر أوزرع لا يسقى . والبعل من النخل ما شرب بعروقه ، من غير سقى ، ولا ماء سماء . وقيل هو ما اكتفى بماء السماء .

الدالية من آلات الاستقاء . (الخوارزمى ص ، ٧١) .

وفى المخصص جـ ٩ ، ص ١٦٢ — ١٦٣ . الدالية جذع طويل فى رأسه مغرفة عظيمة ، من خوص أو نحوه ، تأخذ ماء كثيرا .

الدَّرقات مقسم المياه فى بلاد ما وراء النهر .

(الخوارزمى ص، ٦٩) .

الدولاب من آلات الاستقاء (الخوارزمى ص، ٧٧) .

وفى المخصص جـ ٩ ص، ١٦٢ :

الدولاب من آلات الاستقاء التى تدور ، وعلى قراها مَسَدان ، كل مَسَد مجموع طرفاه ، وقد ربطت بينهما كيزان ، كالدلاء الصغار من الخوص ، وهما مقدران على قدر بعد الماء ، من موضع مصب تلك الدلاء . فإذا دار الدولاب ، أصعد الدلاء من جانب ، وهبطت التى تقابلها من الجانب الآخر ، فاغترفت الفارغة ، وعلت المملوءة ، وأفرغت ما فيها فى جدول تدور عليه المنجنون . وتدير المنجنون الإبل أو البقر أو الحمير .

الزرنوق من ألات الاستقاء . (الخوارزمى ص ، ٧١) .

وفى لسان العرب . الزرنوقان حائطان ، يبنيان على رأس البئر من جانبيها ، فتوضع عليهما النعامة ، وهى خشبة تعرض عليهما ، ثم تعلق فيها البكرة فيستقى بها .

السَّرْفة جزء من ستين جزء ، من شرب يوم وليلة ، ويكون أقل وأكثر ، على ما يقع عليه الاصطلاح بين الشاربة .
(الخوارزمى ص ، ٧٠)

السقىّ من الزرع ما سقى بآلة ، أو بغير آلة .
(الخوارزمى ص ، ٧١)

السوانى الإبل التى تمدّ الدلاء ، وكذلك النواضح ، واحدتها ناضحة وسانية . (الخوارزمى ص ، ٧٢)

وفى المخصص ، ج ٩ ، ص ١٦١ : السانية البعير ، أو الثور ، أو الحمار يربط به الرشاء ، يجرّه فيخرج الغرب . والسقى عليها يسمى السناوة . وفى لسان العرب — الغَرْب الراوية التى يحمل عليها الماء . والغَرْب دلو عظيمة ، من مسك ثور (أى جلده) . والناضح البعير أو الثور أو الحمار الذى يستقى عليه الماء .

السَّيْح ما على ظهر الأرض من الماء ، يسقى من غير آلة ، من دولاب أو دالية أو غرافة أو زرنوق ، أو ناعورة ، أو منجنون . وهذه الآلات معروفة تسقى بها الأرضون العالية .

(الخوارزمى ، ص ٧٠ — ٧١)

الشاذوران أساس يُوثّق حول القناطر ونحوها .
(الخوارزمى ص ، ٧٠)

الطراز مقسم الماء فى النهر — وتسمى مقاسم المياه فى بلاد ما وراء النهر ، الدرقات والمزرقات . (الخوارزمى ص ، ٦٩)

العثرى : ما تسقيه السماء . (الخوارزمى ص،٧١) .

وفى لسان العرب — قيل هو من الزرع ما سقى بماء السيل والمطر ، وأجرى إليه الماء من المسايل ، وحفر له عاثور ، يجرى فيه الماء إليه .

العذى : ما تسقيه السماء . (الخوارزمى ص ، ٧١) .

وفى لسان العرب — اسم للموضع الذى يُنبت فى الصيف والشتاء من غير نبع ماء . والعذى الزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر ، لبعده من المياه .

العَرَبه : طاحونة تنصب فى سفينة وجمعها عرَب .
(الخوارزمى ص، ٧١) .

الغرْب : ما يسقى بالدلاء . (الخوارزمى ص ، ٧٢) .

وفى المخصص ج ٩ ؛ ١٦٤ : الغرب الدلو العظيمة من مسك ثور ، يجرها البعير .

الغيل : مثل أجمة ونحوها ، تجتمع فيها المياه ، ثم تسقى الأرض منها . (الخوارزمى ص، ٧١) .

وفى لسان العرب : الغيل الشجر الكثير الملتف ، الذى ليس بشوك .

الفُشْكال : هو عشرة ابسُت (الخوارزمى ص ،٦٩) .

الكستبزود : معرب من : كاست افزود ، أى النقصان والزيادة وهو الديوان ، الذى يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه ، وما يزيد فيه ، وينقص ، ويتحول من اسم إلى اسم .

وأما ديوان الماء بمرو ، فإنه يحتفظ فيه ، بما يملكه من الماء ، وما يباع وما يشترى منه . (الخوارزمى ص،٦٨ — ٦٩).

الكظائم المياه الجارية تحت الأرض مثل القنى .
(الخوارزمى ص ، ٧١)

وفى لسان العرب الكظامة قناة فى باطن الأرض ، يجرى فيها الماء ، وجمعها كظائم .

الكوالجة مجرى يُقطع فوق مقسم الماء ، إلى أرض ما .
(الخوارزمى ص ، ٦٩)

المَرّار جنسٍ من الحبال ، وجمعه إمَرّة .
(الخوارزمى ص ، ٦٩)

المزرّقات مقسم المياه فى بلاد ما وراء النهر .
انظر : الدرقات . (الخوارزمى ص ، ٦٩)

المفرغة مَغِيض فى نهر منصوب ، ترسل فيه فضول الماء ، عند المد ، ويكون سائر الأيام مسدودا .
(الخوارزمى ص ، ٦٩)

الملّاح متعهد النهر ، وصاحب السفينة . (الخوارزمى ص ، ٦٩)

المنجنون من آلات الاستقاء (الخوارزمى ص ، ٧١)

وفى المخصص ج ٩ ص ، ١٦٣ : كل الدوالى التى تغرف بالدور تسمى المنجنونات ، الواحدة منجنون ومنجنين . وتدير المنجنون الإبل أو البقر أو الحمير .

الناعورة من آلات الاستقاء ، تسقى بها الأرض العالية .
(الخوارزمى ص ، ٧٠)

وسميت بذلك . حسبما ورد فى المخصص ج ٩ ، ص ، ١٦٢ ، لأن لها صريفا فى دورها .

الفصل الثامن

ديوان الرســـائل

الإخلال فى غير التقسيم ، فكما كتب بعضهم : إن المعروف إذا زجا ، كان أفضل منه إذا كثر وأبطأ . وكان يجب أن يقول إذا قلّ وزجا . (الخوارزمى ص ، ٧٦)

الإرداف من نعوت المبالغة ، وهو أن يُدَل على معنى بردف يردفه بما لا يخصّه نفسه ، كما يقال فلان لا تخمد ناره ، اى يكثر الإطعام . وأبلغ من هذا فلان كثير الرماد .

(الخوارزمى ص ، ٧٦)

الاستعارة كقولك خمدت نار الفتنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وألقى الحق جرانه . (الخوارزمى ص ، ٧٣)

الإشارة وهى أن تدل على معنى واحد بألفاظ مترادفة .

(الخوارزمى ص ، ٧٨)

الاشتقاق هو الذى يسمى فى الشعر المجانسة ، وهو مثل قول القائل : لا ترى الجاهل إلا مفرطا أو مفرّطا ؛ وكقول بعضهم إن هذا الكلام صدر عن صدْر صَدِر وطَبْع طبع ، وقريحة قريحة ، وجوارح جريحة .

(الخوارزمى ص ، ٧٢)

الانتقال من عيوب الكلام .

وهو أن يقدم ألفاظا تقتضى جوابا ، فلا يأتى فى جوابها بتلك الألفاظ بأعيانها ، بل بنقلها إلى ألفاظ أخر ، فيعتبر معناها ، كما كتب بعضهم : فان من اقترف ذنبا عامدا ، أو اكتسب جرماً قاصداً ، لزمه ما جناه ، وحاق به ماتوخّاه. وكان الأحسن أن يقول : لزمه ما اقترفه ، وحاق به ما اكتسبه ، وليس هذا من التكرير المذموم .

(الخوارزمى ص، ٧٧)

الإنشاء وهو عمل نسخة يعملها الكاتب ، فتعرض على صاحب الديوان ، ليزيد فيها أو ينقص منها ، أو ينفذها على ما لها ، أو يأمر بتحريرها . (الخوارزمى ص ، ٧٨)

الأوآره ما يثبت فى آخر الكتاب من نسخة عمل ، أو كتاب آخر صادر أو وارد — انظر : اوارج .

(الخوارزمى ص ، ٧٨)

التاريخ كلمة فارسية على ما يروى ، أصلها ماه روز فأعربت . وهذا اشتقاق بعيد ، إلا أن الرواية جاءت به . والصحيح أن الكلمة عربية . (الخوارزمى ص ، ٧٩)

التبديل كقول بعضهم فى دعائه : اللهم اغننى بالفقر إليك ، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك . (الخوارزمى ص، ٧٤)

التتميم أن يؤتى بجميع المعانى التى تتم بها جودة الكلام ، كقول عمر بن الخطاب فى صفة الوالى : يجب أن يكون معه شدة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف .

(الخوارزمى ص ، ٧٤)

التحرير — كأنه الاعتاق ، وهو نقل الكتاب من سواد النسخة إلى بياض نقي . (الخوارزمي ص ، ٧٨)

الترصيع — أن يكون الكلام مسجعا ، متوازن المباني والأجزاء ، التي ليست بأواخر الفصول ، مثل قول أبي علي البصير ، حتى عاد تعريضك تصريحا ، وتمريضك تصحيحا .
(الخوارزمي ص ، ٧٢)

التسجيع — وهو مما يختص به كتاب الرسائل . (الخوارزمي ص ، ٧٢)
وفي نهاية الأرب جـ ٧ ، ص ١٠٣ :
والسجع هو أن كلمات الاسجاع موضوعة ، على أن تكون ساكنة الأواخر موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين قرائن ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف ألا ترى إلى قولهم : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت .

التضريس — هو ضد الترصيع ، وهو ألا تراعى موازين الألفاظ ، مثل كلام العامة ، ولا تشابه مقاطعها . (الخوارزمي ص ، ٧٢)

التكرير — من عيوب الكلام . وهو إعادة الألفاظ ، وحروف الصلات ، والأدوات في مواضع متقاربة ، في مقاطع الفصول . (الخوارزمي ص، ٧٧) .

التمثيل — من نعوت المبالغة — وهو كما يقال قَلَّبَ له ظهر المجن إذا خالف . (الخوارزمي ص ، ٧٧)

التبَت — أن تنسخ الكتب بأعيانها وجوامعها ونكتها .
(الخوارزمي ص، ٧٨) .

المبالغة — من نعوت الكلام — وهو أن يعبر عن معنى بما لو اقتصر

عليه لكان كافياً ، ثم يؤكد ذلك بما يزيده حسنا وجودة ، كما قال بعضهم يصف قوما : لهم جود كرام اتسعت أحوالها ، وبأس ليوث تتبعها أشبالها ، وهمم ملوك انفسحت آمالها ، وفخر صميم شرفت أعمامها وأخوالها ، فكل فصل من هذه الفصول ، فيه مبالغة وتأكيد .
(الخوارزمى ص، ٧٦) .

المساواة — وهى أن تكون الألفاظ كالقوالب للمعانى ، لا تفضلها ولا تقصر عنها . (الخوارزمى ص، ٧٨)

المضاوعة — أن يكون شبيها بالاشتقاق ولا يكونه ، كما قال بعضهم ما خصصتنى ولكن خسستنى . (الخوارزمى ص ، ٧٣)

المعاظلة والتعقيد — من عيوب الكلام ـ وهو مداخلة بعضه فى بعض حتى لا يفهم إلا بكد الخاطر ، وتكرار السماع أو النظر .
(الخوارزمى ص، ٧٧)

المكافأة — شبيهة بالتبديل ، إلا أنها فى المعنى ، وإن لم تتفق الألفاظ ، كما قال المنصور فى خطبته عند قتله أبا مسلم : أيها الناس ، لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية . وهذا فى الشعر يسمى المطابقة (الخوارزمى ص ، ٧٣)

جودة التفسير — أن تفسر ما قدمته ، على ما يقتضيه الكلام المتقدم .
(الخوارزمى ص ، ٧٤)

جودة التقسيم — أن تستوفى الأقسام كلها . (الخوارزمى ص ، ٧٤)

صحة المقابلات — أن تراعى الأضداد أو الأشكال ، فتقابل كلا منها بنظيره . والمقابلات على ثلاثة أوجه : من جهة المعنى وهى الإضافة كالأب والابن ؛ والمضادة كالأبيض والأسود ؛ والوجود

والعدم ، كالأعمى والبصير .

أما من جهة اللفظ فالنفى والاثبات ، كقولك زيد جالس ، وزيد ليس بجالس . (الخوارزمى ص، ٧٣)

فساد التقسيم

مثل ما كتب بعض الكتاب : ومن كان لأمير المؤمنين كما أنت له ، فى الذبّ عن ثغوره ، والمسارعة إلى ما ندبك إليه من صغير خطب وكبيره ، كان جديرا بنصح أمير المؤمنين فى أعماله ، والاجتهاد فى تثمير أمواله ، فليس ما قدمه من الحال ، مما سبيله أن يفسره بما فسره به ؛ لأن ذلك الشرط لا يوجب ما اتبعه إياه .

(الخوارزمى ص، ٧٤)

فساد التقسيم

يكون إما بتكرير المعنى ، كما كتب بعضهم : فكرت مرة فى عزلك ، وأخرى فى صرفك ، وتقليد غيرك .

وإما بدخول الأقسام بعضها فى بعض ، كما كتب الآخر : فمن جريح مضرج بدمائه ، وهارب لا يلتفت إلى ورائه ، وقد يكون الجريح هاربا ، والهارب جريحا .

وإما بإخلال : كما كتب بعض رؤساء الكتاب إلى عامله : إنك لا تخلو فى هربك من صارفك من ان تكون قدمت إساءة ، خفت منها ، أو خُنْت فى عملك خيانة رهبت تكشيفه إياك عنها ، فإن كنت أسأت إليك ، فأول راض سنّة من يسيّرها ، وإن كنت خُنت خيانة ، فلابد من مطالبتك بها .

فكتب هذا العامل تحت هذا التوقيع : قد بقى من الأقسام ما لم تذكره : وهو إنى خفت ظلمه إياى بالبعد منك ، وتكثيره علىّ بالباطل عندك ، ووجدت الهرب إلى حيث يمكننى فيه دفع ما يتخرصه أنفى للظنّة عنى . والبعد عمن لا يؤمن ظلمه إياى ، أولى بالاحتياط لنفسى .

فوقّع الكاتب تحت ذلك : قد أصبت ،فصر إلينا آمنا ظلمه، عالما بأن ما يصحّ عليك ، فلابد من مطالبتك به .

(الخوارزمى ص ٧٤)

فساد المقابلات مثل أن تقول : لم يأتى من الناس أسود ولا أسمر ، ولا خيّر ولا سارق . والصواب أن تقول : لم يأتى أسود ولا أبيض ، ولا خيّر ولا شرير .

(الخوارزمى ص ، ٧٤)

الباب السادس

فى الأخبار

الفصل الأول — فى ذكر ملوك الفرس وألقابهم .

الفصل الثالث — فى ذكر ملوك اليمن فى الجاهلية وألقابهم .

الفصل السادس — فى ألفاظ يكثر جريها فى أخبار الفرس .

الفصل السابع — فى ألفاظ يكثر ذكرها فى الفتوح والمغازى وأخبار عرب الإسلام .

الفصل الثامن — فى ألفاظ يكثر ذكرها فى أخبـــار ملوك عرب الجاهلية .

الفصل التاسع — فى ألفاظ يكثر ذكرها فى أخبار ملوك الروم .

الفصل الأول

فى ذكر ملوك الفرس وألقابهم

البيشدادية : الطبقة الأولى من ملوك الفرس .

بيش = الأول أو السابق ، داد = العادل ، فمعنى الكلمة أول عادل. (الخوارزمى ٩٨) .

كيومرث : ولقبه كلشاه أى ملك الطين ، لأنه عندهم هو الإنسان الأول وهو أول ملوك البيشداديين .

ويقال إنه نسل ميشى ، وميشيانه ، وهما بمنزلة آدم وحواء عندهم . زعموا أنهما خلقا من شجرتى ريباس نبتتا من نطفة كيومرث. (الخوارزمى ص ٩٨)

والريباس نبات يشبه السلق .

ملوك الطبقة الألى

١ — كيومرث

٢ — أوشْهَنْك : ولقبه پيشداد أى أول عادل .

٣ — طَنْهمورث : ولقبه النجيب ، ويقال له زيناوند ومعناة شاكى السلاح ، لأنه أول من عمل السلاح .

٤ — جَمْ : ولقبه شِيد أى النيِّر.

٥ — بيوراسف : ولقبه الضحاك وهو إعــــراب دَهاك ومعناه ذو عشر آفات ، وقيل بل هو معرب ازدها أى تنين ، لسلعتين كانتا به فوق كتفيه .

٦ — أفريدون : ولقبه المؤيد .

٧ — إيرَج : ولقبه المصطفى .

٨ — منوچهر : ولقبه فيروز أى المظفر .

٩ — أفراسياب : وهو تركى ، ومعنى اسمه جناح الطاحونة (آسياب). ولا لقب له ، لأنه لم يكن من ملوك الفرس .

١٠ — نَوذَر ولقبه آزاده ، أى الحر .

١١ — زاب
١٢ — كرشاب : ويعرفان بالشريكين ، لأن الملك كان مشتركا بينهما .

ملوك الطبقة الثانية (الخوارزمى ص، ١٠٠)

١ — كَيقُباد : ولقبه الأول .

٢ — كيكاوُس : ولقبه نمُرْد ، أى لم يمت (نه، أداة النفى ، مردن : الموت) . وأظن أنه هو الذى يسميه العبرانيون نَمرُود .

٣ — كيخسرو : ولقبه هُمايون ، ومعناه المبارك .

٤ — كيلهراسب : ولقبه البلخى لأنه كان ينزل يبلخ .

٥ — كيبشتاسب : ولقبه الهربذ ، أى عابد النار ، سمى بذلك لأن زردشت أتاه بالمجوسية فقبلها .

٦ — كيأردشير : وهو بَهمَن بن اسفَنديار ، وكان يسمى بهذين الاسمين ، ولقبه الطويل الباع .

٧ — هُماى : بنت بهمن ولقبها جهرازاد .

٨ — دادا : ولقبه الكبير .

٩ — دارا بن دارا : ولقبه الثانى .

ملوك الطبقة الثالثة (الخوارزمى ص١٠١–١٠٢)

الأشكانية نسبة إلى أشك بن دارا .

١ — أشك بن دارا : ولقبه جَوْ شَنده (الثائر) .

٢ — أشك بن أشك : ولقبه أشكان .

٣ — سابور : ولقبه زرّين أى الذهبي .

٤ — بِهرام : ولقبه جَودَرْز (كودرز) أى الإلهى .

٥ — نرسى : ولقبه نِيو (الجسور) .

٦ — هُرْمَز : ولقبه السالار (القائد) .

٧ — بهرام : ولقبه رِوشن أى المضىء .

٨ — بهرام : ولقبه نزاده أى النجيب .

٩ — نَرسى : ولقبه رِشكارى أى الصيدى ، لولوعه بالصيد .

١٠ — اردَوان : ولقبه الأحمر .

ملوك الطبقة الرابعة (الخوارزمى ص١٠٢–١٠٣).

الساسانية أولاد بابك بن ساسان .

١ — أرْدَشير : بن بابك ولقبه بابكان أى ابن بابك .

٢ — سابور : ولقبه نبْرَده (الجسور) .

٣ — هُرمُز : ولقبه البطل.

٤ — بَهْرَام : ولقبه بُرذبارِ (الصابر) .

٥ — بهرام بن بهرام . ولقبه شاهَنْدهأىالصالح .

٦ — بهرام الثالث : ولقبه سِكستان شاه أى ملك سجستان .

٧ ــ نرسى : ولقبه نخشيركان أى قناص الوحوش .

٨ ــ هرمز : ولقبه كوهبَذ أى صاحب الجبل .

٩ ــ سابور الثانى : ولقبه هُوبه سنبا ، وهوبه اسم الكتف بالفارسية وسُنبا أى ثقّاب ، وهو الذى تسميه العرب ذا الأكتاف . وإنما لقب بذلك ، لأنه كان يثقب أكتاف العرب ، ويدخل فيها الحلق ، وقيل بل كان يخلع أكتافهم .

١٠ ــ اردشير الثانى : ولقبه الجميل .

١١ ــ سابور بن سابور : ولقبه سابور الجنود .

١٢ ــ بهرام بن سابور : ولقبه كرمان شاه (أى ملك كرمان) .

١٣ ــ يزد كَرد : ولقبه الأثيم (بالفارسيه بزه كر) .

١٤ ــ بهرام كور : لقب بذلك لأنه كان مولعا بصيد العير (كور) .

١٥ ــ يزدكرد : ولقبه سپاه دوست ، أى محب الجيش .

١٦ ــ هرمز : ولقبه فرزانه أى الحكيم .

١٧ ــ فيروز : ولقبه مردانه أى الشجاع .

١٨ ــ بَلاش : لقبه كَر انحايه أى النفيس .

١٩ ــ قُباد : ولقبه نيك راى (أى صاحب الرأى الحسن) .

٢٠ ــ جاماسب : ولقبه نِكارين أى المنقّش .

٢١ ــ كسرى : ولقبه أنو شروان (ومعناه الروح الخالد) .

٢٢ ــ هرمز : ولقبه ترك زاد أى ابن التركية .

٢٣ ــ كسرى الثانى : ولقبه أبرَويز، (وأصلها بالفارسية پرويز أى المظفر)

٢٤ ــ قبَاد : ولقبه شيرويه (ومعناه الجسور) .

٢٥ ــ أردشير الثالث : ولقبه كوچك أى الصغير .

٢٦ ــ كسرى الثالث : ولقبه كوتاه أى القصير .

٢٧ ــ بُوران : ولقبها السعيدة .

٢٨ ــ ازَرْميدُخت : ولقبها العادلة .

٢٩ ــ فَرخزاد : ولقبها بختيار (أى سعيدة الحظ) .

٣٠ ــ يزدگرد الثالث : ولقبه الملك الأخير . .

الفصل الثالث

ملوك اليمن من الفرس وألقابهم

وَهْرِز قائد فارسى أرسله انوشروان لليمن ، بدعوة من سيف بن ذى يزن . (الخوارزمى ص، ١٠٧) .

الفصل الرابع

فى ذكر من ملك معدا من اليمانيين فى الجاهلية .

زادويه ملك من اللخميين — فارسى .
(الخوارزمى ص، ١١٢) .

فيشهرب[1] (الفارسى ، فى زمن أنو شروان) .
(الخوارزمى ص ، ١١٢) .

---

(١) فى مفاتيح العلوم للخوارزمى فيسهربه . والتصحيح من كتاب « تاريخ سنى ملوك الأرض » ص ٧٣ . طبعة كاويانى . برلين .

وجاء فى « تاريخ سنى ملوك الأرض » لحمزة الإصفهانى ، إنه ملك سنة فى زمان أنو شروان. (ص ، ٧٣) .

الفصل السادس

ألفاظ يكثر جريها فى أخبار الفرس

آذر بادكان — هو مهب الشمال. وآذر من شهور الشتاء[1] ، وباد هو الريح . ومعناه مهب ريح الشتاء .

الأساورة — « جمع الأسوار[2] » ، وهو الفارس ، لأن العجم لا تضع اسم أسوار ، إلا على الرجل الشجاع ، البطل المشهور .

بَغِستان — بيت الأصنام . وبغ هو الصنم ، وبذلك سميت بغداد ، أى عطية الصنم على ما حكى الأصمعى . ولذلك يسمون الملك بَغْ ، وهكذا الإمام والسيد ، وبه سمى ملك الصين بغ پور أى ابن الملك . وقال ابن درستويه فى كتابه « تصحيح الفصيح » أخطأ الأصمعى فيما ذكر من اشتقاق بغداد ، إذ لم تكن الفرس عبدة أصنام ، إنما هو :

باغ داد — وباغ هو البستان ، وداد هو اسم رجل ، وهذا من ابن درستويه اختراع كاذب ، وخطأ فاحش .

بَغ — إذ أن بغ عند الفرس هو الإله ، والسيد ، والملك .

---

(١) يقابل فى السنة الفارسية الفترة من ٢٢ نوفبر إلى ٢١ ديسمبر . وأذر فى الفارسية الحديثة هى آتش بمعنى النار . فإن أذر فى لغة دين زردشت ، يعتبر الملاك الذى يحرس النار ، وهو من أكبر آلهة الزردشتيين .

(٢) والأساورة من الأشراف من طبقة المحاربة ، ويقابل الأسوار البيادة بمعنى الراجل .

وكانوا يعظّمون الأصنام ، ويتبركون بها ، ويسمون الصنم بغ ، وبيت الأصنام بغستان . ولعمرى أن الفرس كانوا يعبدونها ، ويصورونها على صور الملوك والأئمة . ولعل بغداد هى عطية الملك .

نقول إن بغ هى الله أو الملك أو الصنم ، وإن داد بمعنى أعطى أو العطية . فبغداد هى عطية الإله .

(الخوارزمى ص، ١١٥ — ١١٦) .

خراسان — تفسيره المشرق .

نقول : واقليم خرسان الحالى ليس إلا بقية للصقع الكبير الذى كان يعرف بهذا الاسم منذ أيام العباسيين حتى أواخر العصور الوسطى . فإن إقليم خراسان كان حينذاك يضمّ أيضا ما هو اليوم شمال غربى افغانستان . وكان يكتنف خراسان فى العصور الوسطى نهر بدخشان من الشرق ، ونهر جيحون وصحراء خوارزم من الشمال .

(من بلدان الخلافة الشرقية — تأليف ليسترينج وترجمة كوركيس عواد) .

(الخوارزمى ص، ١١٤) .

خرباران — هو المغرب — (الخوارزمى ١١٤) .

الدِرَفْش — معرب من دِرَفش كابيان . والدرفش هو العَلَم ، وكان اسم الرجل الذى خرج على الضحّاك حتى قتله افريدون كابى (كاوه[1]) . وكان علم كابى من جلد دب ، وقيل من

---

(١) وسبب ثورة كاوه أن الضحاك هم بقتل ولده الثانى ، لإطعام دماغه الحيتين التين كانتا فى رأس الضحاك ، وكان كاوه حدادا . وقد أخذ قطعة الجلد التى يغطى بها قدمة عند تطريق الحديدة المحماة ، ورفعها على رأس عصا شبه العلم ، ونادى بالثورة فتبعه الناس : (الشاهنامة العربية — لنشر عزام ، ج ١ ، ص ٣٤) .

جلد أسد. وكان يتيمن به ملوك الفرس، فغشوه بالذهب ورصعوه بالجواهر الثمينة.

سورستان[1] هو السواد، وإليها ينسب السريانيون، وهم النبط.

المرازبة جمع المرزبان، وهم وراء الملوك، وهم ملوك الأطراف.

مرز هو الحد بالفارسية، يقال مرز توران، أى حد الترك.

مرزبان صاحب الحد

نقول: وقد قسم الفرس دولتهم إلى أربع ولايات، أو ثغور، ويلقب المرزبان بلقب شاه أى ملك. ومن التشريف له، أن يمنح عرشا من فضة، ومنهم من يخصه الشاهنشاه بعرش من الذهب. (إيران فى عهد الساسانين). وجاء فى «لغت فرس» أن المرزبان الوالى.

المُوبَذ قاضى المجوس.

موبذان موبذ قاضى القضاة.

نقول: الموبذ أو الموبد، رجل الدين، وجمعه مَوَابذه. وتكتب بالدال أيضاً.

والموبدان موبد، هو كبير رجال الدين. وكان هؤلاء يلون القضاء من ضمن وظائفهم.

نيمروز هو مهب الجنوب، لأن الشمس تسامته نصف النهار. (الخوارزمى ص، ١١٤).

---

(١) جاء فى معجم البلدان لياقوت، أن سورستان هى العراق، وإليها ينسب السريانيون وهم النبط، وأن لغتهم يقال لها السريانية. وكانت حاشية الملك إذا التمسوا حوائجهم، وشكوا ظلاماتهم تكلموا بها لأنها أملق الألسنة. قال: وقال أبو ريحان إن السريانيين منسوبون إلى سورستان، وهى أرض العراق وبلاد الشام.

نقول : وهو منتصف النهـــار ، نيم = نصف ، روز = النهار . ويطلق على إقليم سيستان . ويسمون النبي صلى الله عليه وسلم سلطان نيمروز . ونيمروز لحن من ألحان بَرْبَد (Steingass) .

الهربذ — خادم النار ، والجمع هرابذة . (الخوارزمى ص،١١٦).

نقول : والهرابذة هم سدنة بيوت النار .

من لغات الفرس .

الخوزية — لغة منسوبة إلى كور خوزستان ، وبها كان يتـكلم الملوك والأشراف فى الخلاء ومواضع الاستفراغ ، وعند التعرى فى الحمام ، وفى الأبزن والمغتسل .

(الخوارزمى ص، ١١٧) .

الدَرية — لغة أهل المدائن ، وبها كان يتـكلم من بباب الملك ، فهى منسوبة إلى حاضرة الباب ، والغالب عليها من بين لغات أهل المشرق لغة أهل بلخ . (الخوارزمى ص ، ١١٧) .

السُريانية — لغة منسوبة إلى كورسورستان ، وهى سواد العراق ، والسريانيون هم الذين يقال لهم النبط ، وبها كان يجرى كلام حاشية الملوك إذا التمسوا الحوائج ، وشـكوا الظلامات ، لأنها أملق الألسنة . (الخوارزمى ص ، ١١٧) .

الفارسية — وكان يجرى بها كلام الموابذة ، ومن كان مناسبا لهم ، وهى لغة كور فارس . (الخوارزمى ص، ١١٧) .

الفهلوية — وبها كان يجرى كلام الملوك فى مجالسهم وهى لغة منسوبة إلى بَهله . (الخوارزمى ص ، ١١٧) .

نقول : وهى المعروفة قبل الإسلام باللغة البهلوية .

أصناف الكتابة الفارسية

آخر آمار دبيره : كتابة الاصطبلات .

آتش آماد دبيره : كتابة حساب النيران . (بيوت النار) .

راوتنكان دبيره : كتابة الأوقاف .

داد دبيره : كتابة الأحكام .

شهر أماردبيره كتابة خراج البلد

كذلك آماردبيره كتابة حساب دار الملك .

كنج آمار دبيره : كتابة الخزائن . (الخوارزمى ص ، ١١٧ — ١١٨) .

ألفاظ يكثر جريها فى أخبار الفرس

ابرويز أصلها الفارسى پرويز بمعنى المظفر ، وهو لقب الملك الساسانى كسرى الثانى . (الخوارزمى ص ، ١٠٤) .

الأبزن حوض الاستحمام من الفارسية آبزن .
(الخوارزمى ص، ١١٧) .

الأكاسره جمع كسرى على غير قياس .
كسرى إعراب خُسرو ، أى الملك العظيم .
(الخوارزمى ص ، ١١٨) .

أنو شروان أنوش=الخالد ، روان=الروح ، أى الروح الخالد ، وهو لقب كسرى الأول الساسانى .
(الخوارزمى ص ، ١٠٤) .

بختيار سعيد الحظ ، وهو لقب الملك الساسانى فَرُّخزار .
(الخوارزمى ص ، ١٠٤) .

بردْبار	الصابر وهو لقب بهرام الأول الساسانى . (الخوارزمى ص ، ١٠٢) .
بزه گر	الأثيم ، وهو يزدگرد الأول . لقبه الفرس بهذا اللقب لأنه تسامح مع النصارى ، فكأنه أذنب فى حق دين زردشت .
ترك زاد	أى ابن التركية ، وهو لقب هومز من ملوك الساسانيين . (الخوارزمى ص، ١٠٤) .
زردشت	نبي الفرس قبل الإسلام ، وهو صاحب كتاب الأبستاق (أوِستا) . (الخوارزمى ص، ١٠٠)
خور شيد	ضوء الشمس . خور = الشمس . شيد = النير . (الخوارزمى ص ، ٩٩)
سالار	رئيس أو قائد — وهو لقب الملك الأشكانى هرمز . (الخوارزمى ص ، ١٠٢)
سِپاه دُوسْت	محب الجيش . سباه الجيش . دوست : المحب . وهو لقب يزدگرد بهرام گور . (الخوارزمى ص ، ١٠٣) .
شاهنده	الصالح ، وهو لقب بهرام الثانى الساسانى .
شِيرُويه	بمعنى الشجاع أو الجسور ، وهو لقب أحد الساسانيين واسمه قباد . (الخوارزمى ص ، ١٠٤)
فرْزانه	الحكيم ، وهو لقب أحد ملوك الساسانيين ، هرمز . (الخوارزمى ص، ١٠٣)
كوتاه	القصير ، وهو لقب كسرى الثالث الساسانى . (الخوارزمى ص ، ١٠٤)

كوچك　　الصغير ، وهو لقب الملك الساسانى اردشير الثالث .
(الخوارزمى ص، ١٠٤)

كَـو ْهَبذ　　صاحب الجبل ، وهو لقب هرمز الثانى الملك الساسانى .
(الخوارزمى ص، ١٠٢)

كِرَانمايَـة　　النفيس ، لقب الملك الساسانى بَـلاَشَ .
(الخوارزمى ص ، ١٠٣)

گور　　حمار الوحش ، العير ، ولقب به بهرام المعروف ببهرام گور الملك الساسانى .　　(الخوارزمى ص ١٠٣)

مَرْدَانَـه　　الشجاع ، لقب فيروز من ملوك الساسانيين .
(الخوارزمى ، ص ١٠٣)

نَـبَرْده　　الجسور ، وهو لقب سابور الأول الساسانى .
(الخوارزمى ص ،١٠٢)

نخشيركان　　قناص الوحوش ، وهو لقب نرسى الملك الساسانى .
(الخوارزمى ص، ١٠٢)

نژ اده　　النجيب ، وهو لقب الملك الأشكانى بهرام .
(الخوارزمى ص ، ١٠٢)

نـكارين　　المنَقَّش ، وهو لقب الملك الساسانى جاماسب .
(الخورزمى ص ، ١٠٣)

نيك راى　　أى صاحب الرأى الحسن ، وهو لقب الملك الساسانى قباد
(الخوارزمى ص ، ١٠٣)

همايون　　المبارك ، وهو لقب الملك الكيانى كيخسرو .
(الخوارزمى ص ، ١٠٠)

هـُوب سـُنـْبا　　هوبا اسم الكتف بالفارسية، وسنبا أى الثقاب ،وهو لقب

سابور الثانى ، الذى تسميه العرب ذا الأكتاف .

(الخوارزمى ص، ١٠٣)

(انظر سابور الثانى فى الطبقة الرابعة من ملوك الفرس : الساسانيين) .

الفصل السابع

أخبار يكثر ذكرها فى الفتوح والمغازى وأخبار عرب الإسلام

الأبناء هم أبناء الدهاقين(١) ، والنسبة إليهم بنوى .

(الخوارزمى ص، ١١٩).

الأخشيد ملك فرغانة، ودونه الصوار تكين (الخوارزمى ص،١١٩).

الأخماس هم أهل العالية خمس ، وبنو تميم خمس ، وبكر بن وائل خمس ، وعبد القيس خمس ، والأزد وكندة خمس ، ورؤساء الأخماس ، رؤساء هذه القبائل . (الخوارزمى ص ،١٢١) .

وفى لسان العرب العالية ما فوق أرض نجد إلى أرض تهامة ، وإلى ما وراء مكة ، وهى الحجاز وما والاها .

الأرحاء القبائل التى تستقل كل قبيلة بنفسها ، وتستغنى عن غيرها

(الخوارزمى ص، ١٢١)

وفى العقد الفريد (٢) ج ٢ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

كانت أرحاء العرب ستاً ، بمضر منها اثنتان ، ولربيعة اثنتان،

---

(١) ويطلق اللفظ على أبناء الفرس ، الذين دخلوا اليمن ، أيام كسرى أنو شروان .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، طبعة بولاق .

ولليمن اثنتان . واللتان فى مضر ، تميم بن مرة ، وأسد ابن خزيمة . واللتان فى اليمن كلب بن وبره ، وطى بن داود. وإنما سميت هذه أرحاء ، لأنها أحرزت دورا ومياها ، لم يكن للعرب مثلها ، ولم تبرح من أوطانها ، ودارت فى دورها ، كالأرحاء على أقطابها ، إلا أن ينتجع بعضها فى البرجاء وعام الجدب ، وذلك قليل منهم .

الأفخاذ تلى البطون . (الخوارزمى ص ، ١٢٢) .

وفى العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٥٥ .

قال ابن الكلبي الشعب أكبر من القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة .

الأفشين ملك أشر وسنة (يسار نهر سيحون). (الخوارزمى ص، ١١٩)

البردة بردة كساها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، كعب بن زهير الشاعر ، فاشتراها منه معاوية ، والخلفاء تتوارثها .

(الخوارزمى ص ، ١١٩)

وفى لسان العرب — البردة كساء يلتحف به ، أو شملة من صوف مخططة .

البطون تلى العمائر. (الخوارزمى ص ١٢٢).

وفى نهاية الأرب[1] ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ : هى التى تجمع الأفخاذ . وفى صبح الأعشى[2] جـ ١ ، ص ٣٠٨ : البطن ما انقسم فيه أنساب العمارة، كبنى عبد مناف ، وبنى مخزوم .

البعث الجماعة يبعثون ليلا ونهارا . (الخوارزمى ص ، ١٢١) .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب — طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ،طبعة دار الكتب المصرية .

وفى لسان العرب : والبعث الجيش ، يقال خرج فى البعوث، والجنود يبعثون إلى الثغور .

التجمير أن ينزل الجند بإزاء العدو طويلا. (الخوارزمى ص،١٢١).

وفى لسان العرب — تجمير الجيش ، جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم . وكل قوم يصيرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحدا ، ولا ينضمون إلى أحد .

الثغور من بلاد الشام ، هى التى تصاقب بلاد الروم .

(الخوارزمى ص ١٢٢) .

وفى لسان العرب — الثغر الموضع الذى يكون حدا فاصلا بين المسلمين والكفار ، وهو موضع المخافة من أطراف العدو.

الحربة حربة كان النجاشى ملك الحبش أهداها إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكانت تقوم بين يديه ، إذا خرج إلى المصلى يوم العيد وتوارثها الخلفاء ، وهى الحربة التى قتل بها النبى، صلى الله عليه وسلم ، ابى بن خلف ، بيده يوم أحد وتسمى العنزة . (الخوارزمى ص ١١٨) .

وفى لسان العرب . هى عصا قد قدر نصف الرمح ، أو أكثر شيئاً ، فيها سنان مثل سنان الرمح ، وقيل فى طرفها الأسفل زج كزج الرمح — وقد طعن أبى بن خلف بالعنزة .

الحمراء الأعاجم . (الخوارزمى ص ١١٩)

وفى لسان العرب : وفى الحديث بعثت إلى الأحمر والأسود يعنى العجم والعرب . فالغالب على ألوان العرب السمرة والأدمة ، وعلى ألوان العجم البياض والحمرة .

الرابطة الأعراب الذين لهم دواب . (الخوارزمى ص١١٩) .

وفى لسان العرب ـ الربيط ما ارتبط من الدواب. وخلّف فلان فى الثغر خيلا رابطة .

السارية — النفر الذين يبعثون نهارا ، وجمعها سوارب .
(الخوارزمى ص١٢١) .

وفى لسان العرب ــ السُّربة جماعة ينسلون من العسكر ، فيغيرون ويرجعون .

السريّة — هم النفر يبعثون ليلا ، للتنافر بالبيات ، اشتقت من السرى، والجمع سرايا . (الخوارزمى ص ١٢١) .

الشرطة — العلامة ، وجمعها شرط ، والشرطيون أصحاب أعلام سود رئيسهم صاحب الشرط . (الخوارزمى ص، ١٢١)

وفى لسان العرب سموا بذلك ، لأنهم أعـــدوا لذلك ، وأعلموا أنفسهم بعلامات .

وفى المخصص جـ٣ ، ص ١٣٢ : وقيل هم أول كتيبة تشهد الحرب ، وتتهيأ للموت .

الشعوب — جمع شعب للعجم، ومنه قيل للذى يتعصّب للعجم شعوبى ، وقيل بل هى للعـــرب والعجم . بنو قحطـان شعب ، وبنو عدنان شعب . (الخوارزمى ص، ١٢٢) .

وفى العقد الفريد ، جـ٢ ص، ٢٥ ــ الشعب أكبر من القبيلة . وفى المخصص جـ٣ ص، ١٣٠ : الشعب ، الأجيال المختلفة كالعجم والعرب والهند والترك .

العادية — الذين تعدو خيولهم . (الخوارزمى ص، ١١٩).

وفى لسان العرب ــ يقال للخيل المغـــيرة عادية . قال الله تعالى: «والعاديات ضبحا» ، والمقصود بالعاديات الخيل .

العشيرة | تلى الفصيلة . (الخوارزمى ص، ١٢٤) .
وفى نهاية الأرب ج ٢ ، ص ٢٨٥ : العشـــيرة هم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء . قال الله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » ودعا النبي صلى الله عليه وسلم عُلياء قريش ،إلى أن اقتصر على بنى عبد مناف ، وهم يجتمعون معه فى الجد الرابع .

العمائر | تلى القبائل ، واحدتها عمارة . (الخوارزمى ص، ١٢٢)
وفى صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٨ : العمارة ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش ، وتجمع على عمائر ، وتشمل البطون .

العواصم | التى خلف الثغور ، وعوادل الثغور التى عدلت عنها .
(الخوارزمى ص، ١٢٤)
وفى الخراج لقدامة [1] ص ٢٥٣ : وعواصم هذه الثغور الإسلامية وما وراءها إلينا من بلاد الإسلام ، وإنما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ، ويمدّه فى أوقات النّفير .

الفصائل | واحدتها فصيلة ، تلى الأفخاذ . (الخوارزمى ص،١٢٢)
وفى نهاية الأرب ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ : واحدتها فصيلة ، وهم أهل بيت الرجل وخاصته . قال الله تعالى : « يود المجرم لو يُفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه .

القبـائل | واحدتها قبيلة ، مشتقة من قبائل الرأس ، وهى عظامه .

---

(١) طبعة ليدن — نشر دى غويه — المكتبة الجغرافية ... الجزء السادس .

والفرق بين الحي والقبيلة ، أن الحي لا يقال فيه بنو فلان نحو قريش وثقيف ، والقبائل يقال فيها بنو فلان مثل بني تميم . (الخوارزمي ص ، ١٢٢)

وفي نهاية الأرب ج ٢ ، ص ٢١٣ : القبيلة دون الشعب ، وتجمع العمائر ، وإنما سميت قبيلة لتقابل بعضها ببعض ، واستوائها في العدد .

القبط — أهل كور مصر (الخوارزمي ص ، ١٢٢)

المساك — الأسير الذي يمسكه الرجل ، مما يخصه من السبي . (الخوارزمي ص ، ١٢٢)

بغبور — ملك الصين ، وبَغْ هو الملك ، وبور هو الابن . انظر بَغْ . (الخوارزمي ص ، ١٢٠)

خاقان — ملك الترك الأعظم ، وهو خان خان ، كما تقول الفرس شاهنشاه . (الخوارزمي ص ، ١٢٠)

خان — هو الرئيس . (الخوارزمي ص ، ١٢١)

راي — ملك الهند . (الخوارزمي ص ، ١٢٠)

سُبَاشي — هو صاحب الجيش عند الترك . (الخوارزمي ص ، ١٢٠)

واسم قائد مشهور من قادة مسعود الغزنوي .

الطّرْخان — الشريف ، والجمع طراخنة . (الخوارزمي ص ، ١٢٠)

الفراغنة — أهل فرغانة . (الخوارزمي ص ، ١١٩)

وفي بلدان الخلافة الشرقية[1] ص ، ٥٢٠ : عرف إقليم

---

(١) تأليف ليسترانج وترجمة كوركيس عواد ، طبعة بغداد .

فرغانة باسم خانية خوقند ، وقد أعادت له الحكومة الروسية اسمه القديم . وكانت عاصمته فى أوائل العصور الوسطى مدينة أخسكيث ، وسماها ابن خرداذبه وغيره ، مدينة فرغانة ، وهى تقوم على ضفة نهر سيحون الشمالية ، وخرائب هذه المدينة شاخصة . وفى المائة العاشرة (السادسة عشرة ميلادية) لما كان بابر حاكما على فرغانة ، كانت مدينة الإقليم الثانية تعرف باسمها المختصر « اخسى » واندجان كانت هى القصبة وقتذاك .

الهياطلة[1] جيل من الناس ، كانت لهم شوكة ، وكانت لهم بلاد طخارستان وأتراك خَلَج وكنجيه .

(الخوارزمى ص ، ١١٩)

وضائع الجند الشِّحَن والمسالح ، واحدتها وضيعة .

(الخوارزمى ص ، ١٢٢)

وفى لسان العرب . الوضيعة قوم من الجند ، يوضعون فى كورة لا يُغزَون منها . والوضيعة قوم كان كسرى ينقلهم من أرضهم ، فيسكنهم أرضا أخرى ، حتى يصيروا بها وضيعة أبدا .

يَنَال ولى العهد ، عند ملوك ورؤساء الترك .

(الخوارزمى ص ، ١٢٠)

---

(١) كان بينهم وبين ملوك الساسانيين حروب طويلة ، وهم الذين لجأ إليهم الملك قباذ أبو انوشروان ، فأعاده إلى العرش إبان فتنة مزدك .

الفصل الثامن

فى ألفاظ يكثر ذكرها فى أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية

الأقيال القواد باليمن ، وكانوا دون الذوين .

(الخوارزمى ص، ١٢٨)

وفى المخصص ج ٣ ، ص ، ١٣٥ : القَيْل الملك من ملوك حمير ، وتقيَّل أباه ، إذا أشبهه ، كأن كل ملك يشبهه الآخر .

التبابعة ملوك اليمن ، واحده تُبَّع ، تُبع لما كان يتبع الآخر .

(الخوارزمى ص، ١٢٨)

وفى صبح الأعشى ج ٥ ص ، ٢١ : التبابعة إما بمعنى أن الناس يتبعونهم ، وإما بمعنى أنه يتبع بعضهم بعضا .

الرّدف هو خليفة ملك الحيرة ، وكان له المرباع فى الغنائم ، وكان يجلس على يمين الملك ، ويشرب بعده قبل الناس كلهم ، والردافة الخلافة . (الخوارزمى ص، ١٢٧)

وفى المخصص ج ٣، ص، ١٣٨: أرداف الملوك فى الجاهلية الذين كانوا يخلفونهم .

وفى النقائض[1] ج ١ ، ص ، ٢٩٨ .

---

(١) طبعة ليدن لعبر يفان .

قال جرير :

والرّدف إذ ملك الملوك ومن له

عظم الرسائغ كل يوم فضال

وأرداف الملوك فى بنى يربوع .

وأراد المنذر بن ماء السماء ، أن يجعل الردافة فى بنى دارم ، فأبى بنو يربوع ذلك عليه . ولم تزل الردافة فى بنى يربوع حتى قتل كسرى ابرويز النعمان الأصغر ، وهو النعمان ابن المنذر .

وكانت الردافة أن يجلس الملك ، ويجلس الردف عن يمينه ، فإذا شرب الملك ، شرب الردف قبل الناس ، وإذا غزا الملك جلس الردف فى مجلسه ، وخلفه الملك على الناس ، حتى يرجع من غزاته .

الذوون — كانوا دون التبابعة ، والذوون والأذواء جمع ذو .. وذلك أن ملوكهم كانوا يلقبون بذى المنار[1] ، وذى الأعواد[2] . (الخوارزمى ص، ١٢٨)

السوقة — عوام الناس ، اسم يقع على الواحد والجماعة ، مشتق من السياقة . (الخوارزمى ص، ١٢٧)

وفى لسان العرب : السوقة بمنزلة الرعية ، التى تسوسها الملوك ، والسوقة من الناس الرعية ، والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان .

الصنائع — خواص الملوك . (الخوارزمى ص، ١٢٨)

وفى النقائض ، ج١ ص، ٤٥٢ كان الحارث الملك

---

(١) اشتهر ابرهه بذى المنار ، لأنه ضرب المنار على طريقه فى غزاته . (الخوارزمى ص ١٠٨) .

(٢) ومن ملوك اليمن عمرو بن تبع ، المشهور بذى الأعواد ، لأنه كان يركب النعش ، فيحمل على أكتاف الرجال ، إذ كان مسقاما . (الخوارزمى ص ١٠٩) .

ابن عمرو آكل المرار ، قد فرّق بنيه في في قبائل العرب ، فصار شرحبيل في بكر بن وائل ، وصار سلمة في بني تغلب ، ومع سلمة الصنائع ، وهم رجال يكونون مع الملوك ، من شذاذ الناس ، أي طرداء الأحياء .

العَباد — هم خدم الملوك ، وكان كل من يسكن المدر بالحيرة يسمون العباد . (الخوارزمي ص، ١٢٨)

وفي لسان العرب : العِبَاد قوم من قبائل شتى ، من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية ، فأنفوا أن يتسموا بالعبيد ، وقالوا نحن العِبَاد ، والنسب إليه عبادي . وهم نصارى نزلوا بالحيرة ، وقيل هم العباد بالفتح .

المخاليف — كُور اليمن ، واحدها مخلاف ، ولكل مخلاف منها اسم يعرف به . (الخوارزمي ص، ١٢٨)

الوضائع — هم المسالح (الخوارزمي ص ، ١٢٨)

انظر وضائع الجند

الفصل التاسع

في ألفاظ يكثر ذكرها في أخبار ملوك الروم

الأسقف — من أصحاب المراتب في الدين ، يكون في كل بلد من تحت يد المطران . (الخوارزمي ص ، ١٣٠)

ويقابل لفظة episcopus اللاتينية، ومشتقاته في اللغات الأوربية قريبة من هذه الصيغة.

أصحاب الألحان من تحت يد القرّاء، وليسوا من أصحاب المراتب.

(الخوارزمي ص، ١٣٠)

يقابل هذا لفظة Choristers في الانجليزية.

ويقابل أيضاً لفظة Choir، والمقصود به جماعة من الملحنين يشهدون الطقوس الدينية.

البَطْرَك أعظم أرباب المراتب في الدين، وإذا عرّب قيل بطريق. وهم أربعة في ممالكهم، أحدهم يقيم بالقسطنطينية، والثاني برومية، والثالث بالاسكندرية، والرابع بأنطاكية. وتسمى هذه البلدان الكراسيّ، واحدها كرسي.

(الخوارزمي ص، ١٢٩)

— وهذا منطبق على الواقع التاريخي حتى القرن السابع الميلادي على أبعد تقدير.

البطريق القائد من قواد الروم، يكون تحت يده عشرة آلاف رجل، وهم اثنى عشر بطريقا، ستة منهم أبدا عند الطاغية في كور المملكة. (الخوارزمي ص، ١٢٨)

يشير ابن خرداذبة[1] ص ١٠٩، إلى أن ستة منهم يقيمون بالقسطنطينية بحضرة الطاغية، وستة في الأعمال. وهم بطريق عمورية، وبطريق انقره، وبطريق الأرمنياق وبطريق تراقية وهي خلف القسطنطينية، وبطريق

(١) مسالك الممالك — لنشر دي خويه — المكتبة الجغرافية ج ٦ . ليدن .

صقلية ، وبطريق سردانية ، وهو صاحب جزر البحر كلها .

— وهو لقب من ألقاب الشرف ، ينعم به الأمبراطور على الواحد من كبار موظفى الدولة البيزنطية . ومثال ذلك الإنعام على حاكم اللواء theme ، وهو المعروف بالاستراتيجوس (Strategos) بلقب بطريق ، والإنعام على قائد البحرية بلقب بطريق أيضاً[1] .

الدّاقرْخ القائد على عشرة نفر . (الخوارزمى ص، ١٢٩)

يشير بينز[2] . إلى وجود وحدات صغيرة بالجيش البيزنطى ، يتألف كل منها من عشرة رجال ، عليهم داقرخ dekarckhes ، ويقابل الأمباشى .

الشمّاس من تحت يد القسيس . (الخوارزمى ص، ١٣٠)

يقابل هذا لفظ deacon فى الإنجليزية ، وهو يلى القسيس فى الاكليروس المسيحى .

الدمستق أكبر البطارقة ، ورئيسهم هو خليفة الملك .

(الخوارزمى ص، ١٢٩)

ويقابل هذا الفظ Domesticus ، وهو يطلق عادة على قائد قوات اللواء . وتطلق عبارة Domestic of the Grand Scholae ، أو Grand Domestic ، على القائد العام للجيش[3] .

---

(١) انظر Cocbridge Medieval History. Vol. IV pp.. 730— 333

(٢) انظر Baynės : The Byzantine Empire. p. 136.

(٣) انظر Cambridge Medieval History Vol. IV.-p, 731, 739.

الطّرخان | تحت يد البطريق ، على خمسة آلاف رجل .
(الخوارزمى ص ، ١٢٩)

وهو عند ابن خرداذبه ص، ١١١ ، الطرماخ وهو على خمسة آلاف رجل ، ومع كل بطريق ، طرماخان . وهو المعروف عند البيزنطيين Turmarch . فكل لواء من الوية الدولة البيزنطية كان مقسما إلى أقسام ، كل منها يسمى Turma ، وجمعها Turmae . ولذا ينبغى تصويب هذا اللفظ الوارد عند الخوارزمى ، وجعله الطرماخ .

القاثوليق | وهو الجاثليق ، ويكون تحت يد البطريق . ومقام الجاثليق فى حضرة الإمام ببلد العراق مدينة السلام ، فيكون تحت يد بطريق انطاكية . (الخوارزمى ص ، ١٢٩)

على أن الصيغة الأولى هى الأقرب للأصل Katholikos، وهو كما ورد فى موسوعة كمبردج لتاريخ العصور الوسطى ج٤، ص١١٢، ١١٥، ١٥٩ ، الرئيس الدينى فى مملكة أرمينيا المسيحية ، ويلى ملكها مباشرة ، وتقابل وظيفة البطريق فى غير أرمينية من البلاد المسيحية[1] .

القُرّاء | تحت يد الشمّاس ، وليسوا من أصحاب المراتب الدينية .
(الخوارزمى ص ، ١٣٠)

ويقابل هذا لفظ lay—readers فى الانجليزية .

القسّيس | تحت يد المطران ، وهو من أصحاب المراتب الدينية .
(الخوارزمى ص ، ١٣٠)

---

(١) انظر Combirdge Medieval History Vol. IV PP. 112, 115 159.

ويقابل هذا لفظ priest فى الإنجليزية ، Prêtre فى الفرنسية .

القنطوخ قائد على أربعين رجلا . (الخوارزمى ص ، ١٢٩)
وفى ابن خوداذبة ص ١١١ مع كل قومس خمسة قنطرخين .

ويقابل هذا لفظ Centarch ، وهو من الموظفين المساعدين لحاكم اللواء[١] . ويشير بيتر[٢] ص ، ١٣٦ إلى ما يقابل خمسة قنطرخين بلفظ pentarckhiai ، وتكون تحت يد القومس ، وتشمل وحداتهم مائتى رجل ، وتنقسم إلى أقسام تحت قيادة pentakontarchai .

القُومس قائد على مائتى رجل . (الخوارزمى ص ، ١٢٩)
ويشيرابن خرداذبه ص ، ١١١ إلى أن كل طرنجار معه خمسة قامسة ، كل قومس على مائتى رجل . يقابل هذا لفظ Comes أو Count ، وهـــو حسبما ورد فى Camb. Med, Hist.[٣]، موظف إدارى يحكم قسما من الأقسام الإدارية ، التى يتقسم إليها الطرما . والقومس كذلك أحـــد الموظفين المساعدين لحـاكم اللواء (ستراتيجوس) .

السكرسىّ أطلق الخوارزمى (ص ١٢٩) هذا اللفظ على البلد الذى تكون فيه إقامة البطريق الرسمية . فقال عن البطارقة : « هم أربعة فى ممالكم ، أحدهم يقيم بالقسطنطينية ، والثانى

---

(١) أنظر Camb. Med. Hist.Vol. IV, P. 334.
(٢) أنظر Baynes : op. cit P, 136.
(٣) Vol,IV, P.734.

برومية ، والثالث بالاسكندرية ، والرابع بأنطاكية .
ونسمى هذه البلدان الكراسىّ ، واحدها كرسىّ » .
هذا اللفظ فى اللاتينية Sedes ، وفى الفرنسية Siège
وفى الانجليزية See .

اللغتيط وزير الملك ، وهو صاحب عرض الكتب .

(الخوارزمى ص، ١٢٩)

وفى ابن خرداذبة ص، ١١٢، وفى ابن حوقل ص ١٣٠
لغثيط ، هو صاحب ديوان الخراج ، وصاحب عرض
الكتب ، والحاجب ، وصاحب ديوان البريد .

ويقابل هذا لفظ Logothete ، وكان بالدولة البيزنطية
أربعة من كبار الموظفين يطلق عليهم هذا الاسم . وهم
الوزير الأكبر (Grand Logothete) ، وناظر الخزانة ،
وناظر الاصطبلات ، والضياع الأمبراطورية ، وناظر
الجيش[1] .

المطران تحت يد الجاثليق ، ويكون مقام مطران خراسان بمرو .
يقابل هذا لفظ (metropolitan) فى اللغة الانجليزية ،
أى الرئيس الدينى فى عاصمة من العواصم المسيحية
الإقليمية .

خُدّام المذبح ليسوا من أصحاب المراتب فى الدين .

(الخوارزمى ص، ١٣٠)

---

(١) انظر Combridge Medieval History. Vol. IV P. 731

نقد الكتب

تاريخ آداب اللغة العربية

تأليف جورجى زيدان

فرق واضح بين اعادة طبع كتاب وإعادة طبعه مع التعليق عليه ، ذلك لأن اعادة الطبع وحدها انما تعنى أن يجىء الكتاب على الصورة التى كان عليها من قبل . أما اعادة الطبع مع التعليق فانما تعنى شيئا آخر . انها تعنى جهدا يبين فى وضوح وجلاء التطورات التى حدثت فى الموضوعات وفى دراسة المسائل التى يحتويها الكتاب . وليس يخفى أن هذا الجهد يجب أن يبذل من المختصين فى المسائل المتتبعين لسير الحركة الفكرية فيما هو من شأنهم .

والكتاب الذى بين أيدينا ، طبع الطبعة السابقه منذ نصف قرن تقريبا ، وليس وراء ذلك الا القول بأن تغيرا كبيرا قد حدث ، وتطورا عظيما قد جد . أن نصف قرن كفيل بأن يبطل بعض الأراء ، ويبطل بعض النظريات ، ويقلب بعض الحقائق رأسا على عقب . وهذا الذى يجعلنا نتوقع أن يكون التعليق على هذا الكتاب مفيدا كل الفائدة من حيث دلالته على التغييرات الجوهرية التى تمت منذ طبع الكتاب إلى الآن .

والكتات الذى بين أيدينا يؤرخ للثقافة العربية فى شتى الميادين كما يحاول الاشادة بفضل العرب وبيان منزلتهم بين سائر الأمم . وتلك هى الأغراض التى من أجلها قام المؤلف بتأليف هذا الكتاب :

١ ــ بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية من حيث الرقى الاجتماعى والعقلى .

٢ — تاريخ ما تقلبت عليه عقولهم وقرائحهم ، وما كان من تأثير الانقلابات السياسية على آدابهم باختلاف الدول والعصور .

٣ — تاريخ كل علم من علومهم على اختلاف أدواره : من تكونه ونشوئه إلى نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله حسب العصور والأدوار .

٤ — تراجم رجال العلم والأدب مع الإشارة إلى المآخذ التى يمكن الرجوع إليها لمن يريد التوسع فى تلك التراجم .

٥ — وصف الكتب التى ظهرت فى العربية باعتبار موضوعاتها ، وكيف تسلسلت بعضها من بعض ، وبيان مميزاتها من حيث حاجة القراء إليها ووجه الاستفادة منها .

٦ — لانهتم من هذه الكتب إلا بما لايزال باقياً منها ، ويمكن الحصول عليه . . فإذا كان مطبوعاً ذكرنا محل طبعه وسنته ، وإذا كان لم يطبع أشرنا إلى المكاتب الكبرى التى يوجد فيها — نعنى المكاتب الدولية فى أوربا أو غيرها ، كمكتبة برلين ، ومكتبة المتحف البريطانى فى لندن والمكتبة الأهلية فى باريس ، والمكاتب الدولية فى فينا واكسفورد وليدن وغيرها ، ودار الكتب المصرية فى القاهرة ، ومكاتب أيا صوفيا وكوبرلى وبايزيد أو غيرها فى الآستانة ... حتى إذا أراد أحد الوقوف على شىء من الأصول الخطية ، طلبها فى فهارس تلك المكاتب .

وبالجملة فإن غرضنا الرئيسى أن يكون لهذا الكتاب فائدة عملية فضلا عن الفائدة النظرية ، بحيث يسهل على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضوع كل منها وقيمته بالنسبة إلى سواه من نوعه . . فهو أشبه بدائرة معارف تشتمل تاريخ قرائح الأمة العربية

وعقولها وتراجم علمائها وشعرائها ومن عاصرهم من كبار الرجال، ووصف المؤلفات العربية على اختلاف موضوعاتها .

وليس وراء هذا كله الا القول بأن التعليق على هذا الكتاب يجب أن يكون من أناس عديدين . أناس اختلفت ثقافاتهم وتنوعت وتعددت وأجاد كل ما اختص فيه والا جاءت التعليقات من غير ذى اختصاص فذهبت قيمتها وأصبحت عديمة النفع قليلة الجدوى .

والكتاب الذى بين أيدينا يشير إلى وعد لم ينجز . وعد قطعه المؤلف على نفسه ولم يستطع القيام به ، وذلك هو قوله : (ومتى تم الكتاب ألحقناه بفهرس أبجدى للأعلام والموضوعات ، فيصير معجما للعلم والعلماء والأدب والأدباء والشعراء ، ولما جادت به قرائحهم من التصانيف أو المنظومات ووصف كل منها ومحل طبعة أو وجوده) . وليس وراء هذا الا القول بأن التعليق يجب أن ينجز هذا الوعد . ويجب أن يتمم هذا النقص وأن يسد هذا الفراغ .

هذه الخطة المنهجية ، التى ذكرنا ، لم يقع منها شىء ، فقد عهد الناشر إلى فرد واحد بالتعليق على الكتاب ، فرد لايستطيع أحد أن يدعى له أنه القادر على التعليق على الحركة الفقهية والحركة الكلامية والحركة العلمية الخالصة كالطب والفلك والرياضة وحركة الثقافة النسوية كالتدبير المنزلى والطهى وما أشبه . أن الناشر قد أخطأ حين عهد إلى فرد واحد ، وان المعلق قد أخطأ حين قبل أن يقوم وحده بهذا التعليق .

ثم أن هذا الفهرست الأبجدى الذى وعد به المؤلف لم يقم المعلق بانجازه ولو فعل لأفاد واستفاد . لو فعل لأفاد القارىء كثيرا من حيث توفير الجهد فى الرجوع إلى المصادر . وفى الرجوع إلى تاريخ الرجال

ووصف الكتب والمخطوطات . ولو فعل لاستفاد هو من حيث توفية هذه التعليقات حقها . أن وضعها فى الهامش من الصفحات جعلها قصيرة وغير دالة .

ويبقى بعد ذلك أن نقول أن فى هذه التعليقات جهدا غير منكور . جهداً يقف عند حدود التعريف ببعض الكتب والاشارة إلى بعض الكتب والاشارة إلى بعض المصادر فى تأريخ الرجال أما التطور الذى جد فى الموضاعات وفى دراسة المسائل التى احتواها الكتاب فقد كان حظه من التعليقات قليلا .

محمد احمد خلف الله

أنبـــاء ومؤتمرات

مؤتمر كتابة التاريخ

عن بلاد الشرقين الأدنى والأوسط

فى يوليو الماضى إنعقد مؤتمر بجامعة لندن خصص للبحث فى موضوع كتابة تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط « Historical Writing on the Nearandid dleM East. » . وقام بالدعوة لهذا المؤتمر ، وتعهد جميع المراحل التى مر بها الإعداد له وتنفيذه «قسم التاريخ بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن ، حتى تم إنعقاده بين يومى ٣٠ من يونيه ، ٤ من يوليو الماضيين . ويقوم قسم التاريخ الآن بإعداد كتاب جامع يشمل البحوث التى قدمت للمؤتمر ويلخص المداولات التى جرت فيـــه والنتائج التى انتهى إليها .

وقد مر هذا المؤتمر بمراحل عدة نتحدث منها عن الجوانب الآتية :

اولا : مرحلة الاعداد

ولا نعنى بها كيف ثبتت فكرة الدعوة لهذا المؤتمر ، وإنما نريد بها الخطوات التى اتخذت فعلا بعد استقرار الفكرة والعزم على تنفيذها .

وقد أخذ الأستاذ برنارد لويس Bernard Lewis ، أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط ورئيس قسم التاريخ بمعهد الدراسات الشرقية ، مهمة تنظيم هذه المرحلة على عاتقه ، وتعاون معه فيها زملاءه بالقسم . وبدأت هذه المرحلة بوضع تخطيط للموضوعات المتعلقة بتاريخ هاتين المنطقتين والتى يمكن أن تعرض على الأساتذة المدعوين إلى المؤتمر ليتناولوها ببحوثهم . واستقر الرأى من أو الأمر على أن تقتصر هذه الموضوعات على البحوث الخاصة بكتابة تاريخ هذه المنطقة منذ ظهور الإسلام إلى العصر

الحاضر ، ذلك لأن تاريخ العصر السابق للاسلام موضوع طويل يوسّع مجال البحث ويوزع الجهود ، هذا إلى أن روبرت دنتان Robert C· Dentan قام ببحث هذا العصر و نُشر لهذا البحث :

"The Idea of History in the Ancient Near East" (Yale, 1955.)

وفى ضوء هذا المجال الزمنى المحدد وزعت البحوث المقترحة بين مجموعات ثلاثة :

(ا) الكتابة التاريخية فى البلاد الإسلامية قبل تأثرها بالمؤثرات الغربية ، باللغات العربية والتركية والفارسية وهذا يشمل تاريخ الأقليات داخل البلاد الإسلامية .

(ب) الكتابة التاريخية عن الشرقين الأدنى والأوسط فى أوربا وأمريكا منذ العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

(حـ) الكتابة التاريخية فى البلاد الإسلامية فى العصور الحديثة ، بعد تأثرها بالمؤثرات الغربية . وهذا يشمل ، إلى جانب تطور التأليف التاريخى فى البلاد العربية وتركيا وإيران ، كتابة التاريخ فى بلاد ماوراء النهر وأواسط آسيا .

ثم وضعت قائمة طويلة بالبحوث التى يمكن معالجتها داخل هذا الإطار الثلاثى ، نختار منها هنا بعض الأمثلة فن موضوعات المجموعة الأولى :

١ — نشأة كتابة التاريخ عند العرب .

٢ — كتّاب السيرة ، والمغازى والفتوح .

٣ — التأثير الساسانى فى كتابة التاريخ الإسلامى .

٤ — مؤرخو الطبقات فى العصر الأول .

٥ — تأثير العلوم المنقولة إلى الإسلام فى كتابة التاريخ .

٦ — مؤرخو القرنين الثالث والرابع الهجريين .

٧ — مؤرخو السلاجقة .

٨ — مؤرخو الحرب الصليبية .

٩ — مؤرخو الفِرق .

١٠ — مؤرخو المماليك .

١١ — كتب التراجم فى العصور المتأخرة .

١٢ — ابن خلدون .

١٣ — نشأة كتابة التاريخ المحلى وتطورها : فى مصر ، سوريا ، شمالىّ إفريقيا ، إيران ، بلاد العرب الجنوبية ، الأندلس .

١٤ — نشأة الكتابة التاريخية فى الدولة العثمانية .

١٥ — المؤرخون العثمانيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين .

١٦ — تاريخ الأقليات : الأرمينية ، المارونية ، القبطية ، اليهودية .

ومن موضوعات المجموعة الثانية :

١ — الكتابات البيزنطية عن التاريخ الإسلامى .

٢ — المؤرخون الأوربيون للحروب الصليبية فى العصور الوسطى .

٣ — مؤرخو عصر النهضة

٤ — مؤرخو القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين .

٥ — الكتاب الانجليز وتاريخ تركيا .

٦ — مؤرخو القرنين التاسع عشر والعشرين

٧ — المؤرخون الروس .

٨ — المؤرخون الأمريكيون .

ومن موضوعات المجموعة الثالثة :

١ — فلسفة التاريخ .

٢ — الطرق الحديثة فى الكتابة التاريخية ووسائلها : نشر المخطوطات ، النقوش ، الوثائق ، المحفوظات الخ .

٣ — الموضوعات الجديدة : التاريخ الاجتماعى ، الاقتصادى . . الخ .

٤ — تأثير الاحتكاك الثقافى وتنوع الحضارات .

٥ — القومية والتطورات السياسية .

٦ — تطور الدراسات التاريخية المحلية : فى مصر ، سائر البلاد العربية ، تركيا ، إيران ، الجمهوريات السوفيتية .

٧ — الجمعيات التاريخية والثقافية وآثارها .

٨ — الشّعبية فى الكتابة التاريخية : تراجم الأبطال ، القصص ، الكتاب الشعبى ، الصحف : يومية وموسمية ، السينما ، الراديو ، المسرح .

٩ — تدريس التاريخ فى الجامعات والمدارس : موقف المدرسين ، تدريبهم وإعدادهم ، البرامج ، الكتب المدرسية ، المكتبات ، استجابة الطلبة .

ثانيا دراسة البحوث :

ورأى منظمو المؤتمر كذلك أن من المفيد دراسة البحوث التى يعدّها الأساتذة للمؤتمر ومناقشتها مناقشة موضوعية تفصيلية ، فى ما يشبه لجنة تحضيرية ، فى اجتماعات أسبوعية ؛ حتى يمكن تخصيص جلسات المؤتمر جميعها لمناقشة تدور على مستوى عالٍ فى ضوء ما قامت به هذه اللجنة التحضيرية . ولتحقيق هذا قرر قسم التاريخ دراسة هذه البحوث فى جلسات المناقشة بالقسم « The Seminars » على أن يشترك فى هذه المناقشة أعضاء

هيئة التدريس بقسم الشرقين الأوسط والأدنى وطلبة الدراسات العليا ، وفى مكتبة القسم ومكتبة المعهد من المراجع ما ييسر هذه المهمة . ولتعزيز قسم التاريخ بهذه المناسبة دُعى أربعة من شباب المؤرخين من بلاد الشرقين الأدنى والأوسط للإقامة فى لندن فصلين دراسيين ، من أول يناير إلى نهاية انعقاد المؤتمر ، على نفقة المؤتمر . وروعى فى اختيارهم تمثيل الاتجاهات الرئيسية الثلاثة العربية والتركية والفارسية . فدُعى الدكتور ارشمند كران E Kuran من تركيا ، والأستاذ منوچهر ستوده M. Sotoodeh من إيران، ودُعىَ من لبنان الدكتور كمال سليمان الصليبى K. S. Salibi ومن مصر دُعى كاتب هذه السطور .

وتتابع وصول البحوث إلى مقر المؤتمر بلندن منذ أوائل ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، مكتوبة بلغات مختلفة ، ورئى أن تكون اللغتان الانجليزية والفرنسية لغتين رسميتين للمؤتمر ، على أن يترجم ما كتب بغيرهما إلى اللغة الإنجليزية . ووزعت هذه البحوث أولا فأولا على الأساتذة الذين قبلوا الدعوة للاشتراك فى المؤتمر حتى يقوموا من جانبهم بدراستها استعدادا لانعقاد المؤتمر . وفى جلسات المناقشة التحضيرية بلندن تولى الأستاذ برنارد لويس الرئاسة ، وكان يدير المناقشة بحيث يكون البحث كله ، كوحدة متماسكة ، موضوع تقدير وتقويم من حيث المادة والمنهج ، وبحيث تتجه المناقشة بعد ذلك إلى جميع جزئيات البحث وإن اقتضى هذا ، فى معظم الأحيان متابعة الكاتب فيما كتبه فقرة بعد فقرة . وخُصص لكل جلسة من هذه الجلسات الأسبوعية مقرِّران ، يقوم كل منهما ، منفردا ، بتسجيل النقط الرئيسية فى تقرير خاص ، ثم يشتركان معاً فى إعداد تقرير موحد موجز للاسترشاد به عند المناقشة النهائية ، وليُعرض على صاحب البحث ليقف منه على نتيجة هذه المناقشة التفصيلية لموضوعه قبل المناقشة النهائية فى جلسات المؤتمر .

وقد لوحظ فى هذه الاجتماعات الدورية أنّ كثيراً من أساتذة معهد الدراسات الشرقية كانوا يحضرونها ويأخذون بنصيبهم فى المناقشة، كلّ فى جهة اختصاصه ؛ وبهذا تعاونت الخبرات المختلفة بالمعهد على تهيئة أكبر قدر ممكن من العناية والدراسة فى هذه المرحلة التحضيرية الطويلة التى استغرقت نحو ستة أشهر .

ثالثا : انعقاد المؤتمر :

عقد المؤتمر أربع عشرة جلسة رسمية بين يومى ٣٠ من يونيو ، ٤ من يوليو، وذلك باستثناء اليوم الثانى من يوليو الذى خصص بطوله لاجتماعات غير رسمية يتعرف فيها أعضاء المؤتمر بعضهم ببعض ، ويتناقشون ، فى مجموعات صغيرة ، فى مشكلات معينة تثير اهتمامهم ، وليقف كلّ على مدى مساهمة زملائه فى النشاط العلمى وعلى المشروعات التى يعدّونها للدراسة والبحث فى المستقبل .

وفى ضوء الموضوعات التى قدمت فعلا للمؤتمر اختصت كل جلسة من الجلسات الرسمية بفترة زمنية محددة أو بمجموعة من الموضوعات المتقاربة . وبهذا اختصت كتابة التاريخ عند العرب منذ نشأتها إلى القرن الثالث الهجرى بجلسة ، وخصصت جلستان لتطور هذه الكتابة التاريخية حتى القرن الثانى عشر الهجرى ؛ وعقدت هذه الجلسات فى اليوم الأول ، إلى جانب جلسة الافتتاح . وبحثت الكتابة التاريخية عند كل من الفرس والترك ، فى جلسة مستقلة ، وبحث تاريخ الأقليات فى جلسة ثالثة فى اليوم الثانى . وخصّص اليوم الثالث للاجتماعات الفرعية كما قدمنا . وفى اليوم الرابع خصصت جلستان للأوربيين والبيزنطيين حتى العصور الوسطى ، ثم للأوربيين منذ العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر . وفى الجلسة الثالثة فى نفس اليوم عرضت موضوعات مؤرخى الإسلام من الأوربيين

والأمريكيين والروس فى القرن العشرين . أمّا اليوم الخامس والأخير فشهد ثلاث جلسات لدراسة الكتابة التاريخية فى العصر الحديث ، بأنواعها المتعددة ، وفى اللغات المختلفة . ثم عقدت فى نهاية اليوم الجلسة الختامية للمؤتمر .

وتمد رأس جلسات المؤتمر الأستاذ برنارد لويس باستثناء جلستين، تولى رئاستهما زميله بالقسم الأستاذ باون، كان الأستاذ لويس فيهما مقررا لموضوعى كتابة التاريخ عند العرب من القرن الرابع إلى الثانى عشر الهجريين ، وتطور الكتابة التاريخية عند الأتراك حتى القرن الثانى عشر .

أما اللجان الفرعية التى تكونت لدراسة جوانب معينة تهم المؤتمر فهى خمس لجان تفرغت لدراسة الموضوعات الآتية :

١ — كتابة التاريخ عند العرب ، ومقررها الأستاذ جب H. Gibb ، من جامعة هارفارد .

٢ — الكتابة التاريخية عند الفرس والترك ، ومقررها الأستاذ شپولر Spuler ، من جامعة همبورج .

٣ — تاريخ الأقليات ، ومقررها الأستاذ حورانى A.H. Hourani ، من جامعة أكسفورد .

٤ — كتابة التاريخ عند الغربيين ، ومقررها الأستاذ فراى R. Frye من جامعة هارفارد .

٥ — الدراسات التاريخية فى العصر الحديث ، ومقررها الأستاذ ڤون جرينباوم Von Grunebaum ، من جامعة كاليفورنيا .

وقد عقدت هذه اللجان جلسات متعددة انتهت فيها إلى توصيات عرضت على المؤتمر فى الجلسة الختامية فقرر إحالتها إلى لجنة تنظيم المؤتمر التى يرأسها الأستاذ برنارد لويس .

ملاحظات عامة :

١ — اشترك فى هذا المؤتمر عدد كبير من المستشرقين الذين انتفعوا بمجهودات أسلافهم وتطوروا بها فى سبيل الاكتمال ، والذين لا يزالون يعملون على تهيئة طبقة جديدة من الدارسين ليواصلوا بعدُ جهودهم . ومن هؤلاء الأعلام نذكر الأساتذة : جب ، فوكه ، شاخت ، كاود كاهن ، رانسمان ، شبولر ، جرينباوم ، وغيرهم وغيرهم .

ومن الشرقيين الذين اشتركوا ببحوثهم فى هذا المؤتمر نجد : من مصر الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، وكاتب هذه السطور ؛ ومن سوريا الدكتور سامى الدهان ، ومن العراق الدكتور عبد العزيز الدورى ، ومن تركيا الأستاذ إنلچق والدكتور كران ، ومن لبنان الأستاذ أمين فارس والدكتور كمال الصليبى ، ومن إيران الأستاذ مينوى والأستاذ ستوده .

٢ — يلاحظ أن مجموعة من الباحثين عالجوا موضوعات متقاربة أو فترات زمنية متجاورة ، وأن بعض الموضوعات الأخرى لم تكن موضع عناية كافية ، فازدحمت الأولى ، أو كادت ، بالبحوث ، وظهرت حاجة الأخرى إلى الدرس والبحث . ولعل السر فى هذا أن مجال الاختيار كان واسعا أمام الباحثين وأن هذه الموضوعات التى اقترحتها اللجنة التنظيمية كانت حيوية غزيرة التنوع ؛ هذا إلى جانب ترك الحرية الكاملة للأساتذة المساهمين ببحوثهم فى اختيار الموضوع الذى يكتبون فيه إنْ من بين الموضوعات المقترحة وإنْ من غيرها .

٣ — كانت دراسة البحوث ومناقشتها فى المرحلة التحضيرية فكرة موفقة ؛ وقد تمت فى هدوء وبطء وبعناية وإتقان ، وانتهت بنتائج مدروسة مركزة تقدم بها المقررون فى جلسات المؤتمر الرسمية بجانب البحوث نفسها ؛

فساعدت على إنارة طريق المناقشة ووفرت كثيراً من الوقت للدراسة الإنشائية البنّاءة .

٤ — توفرت الجهود منذ اللحظة الأولى لتجعل من المؤتمر أداة ناجحة إلى أبعد حدود النجاح الممكنة من حيث تركيز البحث . وتتمثل هذه الجهود فى الخطة التفصيلية التى وضعت قبل أن تتخذ الخطوات الفعلية لتنفيذه . وقد روعى فى هذه الخطة التفصيلية تغطية النواحى المختلفة للكتابة التاريخية قديمها وحديثها ، فى الشرق وفى الغرب ، والعناية بالطريقة والمنهج فى التأليف ، والاهتمام بمقدار ارتباط هذه الكتابة التاريخية بالواقع وبالحياة من حيث تنوع الموضوعات التى تناولتها الكتابة التاريخية ، ومن حيث مراعاة التجاوب بينها وبين احتياجات الدارسين فى الجامعة والمدرسة ، بل من حيث تبسيط هذه المادة التاريخية لتصبح فى متناول العامة أيضا عن طريق التمثيل والسينما والراديو والصحف اليومية والدورية وقصص البطولة وتراجم الأبطال .

٥ — ومع أن الدعوة إلى المؤتمر كانت موجهة من قسم التاريخ (للشرقين الأدنى والأوسط) ، وموضوع الدراسة كان خاصا بالجانب التاريخى الصرف وجـــدنا أساتذة الأقسام الأخرى يسهمون بعلمهم وبخبرتهم ، بل ببحوثهم أيضا ، متعاونين للعمل على نجاحه علميا . وقد حضر كثير منهم جلسات المناقشة التحضيرية للبحوث والجلسات الرسمية للمؤتمر ؛ فكان هذا عاملا من العوامل التى هيأت للمؤتمر مجموعة من الكفايات العلمية المتنوعة .

٦ — ويمر المؤتمر الآن بمرحلته التكميلية التى يقع عبئها على الأستاذ برناردلويس وزملائه ، وهى مرحلة تنسيق البحوث التى قدمت للمؤتمر ومراجعة المناقشات التى دارت فيه ، ودراسة تقارير اللجان الفرعيـة

وتوصياتها ، وإخراج هذا كله فى صورة كاملة أو مختصرة فى كتاب جامع ليكون فى متناول المهتمين بهذا النوع من الدراسات .

وبعد ، فقد نجح المؤتمر ، فى رأيى إلى حد بعيد فى تحقيق هدفه العلمى بتعاون المشرفين عليه الداعين إليه ، والأساتذة المشتركين فيه ، وأرجو أن تظهر الجهود التى انتهى إليها فى صورة كاملة وفى وقت قريب حتى يزيد بناء البحث العلمى فى هذه الناحية لبنة جديدة قيمة تساعد ، فيما بعد ، على مواصلة الجهد لخدمة العلم والتطور به فى سبيل الاكتمال .

محمد حلمى محمد أحمد

دراسات وملاحظات وآراء

كتابة الأعلام الأعجمية بحروف عربية

(ا) ابن خلدون وكتابة الأعلام الأعجمية

بعد أن تكلم ابن خلدون فى فصل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، وفيما يعرض للمؤرخين من الأوهام الخ .. قال :

بقى علينا أن نقدم مقدمة فى كيفية وضع الحروف التى ليست فى لغة العرب إذا عرضت فى كتابنا هذا . والحروف فى النطق ، هى كيفيات للأصوات الخارجة من الحنجرة . وتتركب من الحروف : الكلمات الدالة على مافى الضمائر . وليست الأمم كلها متساوية فى النطق بتلك الحروف ، وكان أهل الكتاب (الكتّاب) إذا عرض لهم الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقى مهملا عن الدلالة الكتابية ،مغفلا عن البيان ، وربما يرسمه بعض الكتّاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا ، قبله أو بعده . وليس ذلك بكاف فى الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله . (ولما) كان كتابنا مشتملا على اخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا فى أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا إصطلاح أوضاعنا ، اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذى يليه كما قلنا لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه . فاصطلحت فى كتابى هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمى بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق به بين مخرجى ذينك الحرفين فتحصل تأديته . وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الأشمام كالصراط فى قراءة خلف .

فإن النطق بصاده فيها مفخم متوسط بين الصاد والزاى فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاى ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين ، فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط حرفين من حروفنا

كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم مثل اسم بُلُكِّين فأضعها كافا وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة فوق أو ثنتين، فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف . وهذا الحرف أكثر ما يجيء فى لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه . ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله سبحانه الموفق لا رب غيره.

(المقدمة : نشر كاترمير وطبع باريس سنة ١٨٥٨ — الجزء الأول الصفحات ٥٣ إلى ٥٥) .

(ويلاحظ قوله : أو بنقطة القاف واحدة فوق أو ثنتين ، وذلك لأن المغاربة (ذهبوا إلى نقط الفاء بواحدة من أسفل والقاف بواحدة من أعلى بينما ذهب المشارقة إلى نقط الفاء بواحدة من أعلى والقاف باثنتين من أعلى أيضاً ، هذا ما قرأت فى الجزء الثانى من تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ص ٩٠ — ٩١) .

هل اتبع ابن خلدون قاعدته هذه ؟ . لا أستطيع أن أجيب عن السؤال إجابة قاطعة ، فإنى لم أطلع على الأصول الخطية لكتابه . والمؤكد أن الذين نشروا كتابه فى باريس أو فى بولاق لم يتبعوا هذه القاعدة .

وقد قرأت للبارون دى سلان فى مقدمة ترجمته الفرنسية للفصول التى خصصها ابن خلدون لتاريخ البربر والدول التى قامت فى المغرب ما مؤداه (الجزء الأول الصفحات ٦٤ — ٥) .

« يتحدث ابن خلدون فى المقدمة عن طريقته فى كتابه بعض الكلمات البربرية التى تحتوى على أصوات لا يوجد ما يماثلها فى اللغة العربية . وهذه الأصوات لا يزيد عددها عن صوتين وهما يمكن أداؤهما بالفرنسية بغاية السهولة .

أحدهما G كما فى كلمة garde والأخرى S كما ينطق بها فى rose . ولأداء الحرف الأول استخدم ابن خلدون حرف الكاف العربى ونقطه بنقطة من أسفل ، ولأداء الحرف الثانى استخدم حرف الصاد ووضع فى داخلها حرف زاى . وأضاف دى سلان إلى هذا قوله :

ومهما يكن فإن ابن خلدون لم يحسن اختيار العلامات التى استعملها ، ثم جاء النساخون فأهملوا فى أغلب الأحوال استعمالها ، بل إن المخترع أى ابن خلدون نفسه ، لم يجر دائما على طريقته فراه يؤدى الجيم التى أشار إليها بالجيم العربية المعطشة .

ظاهر أن دى سلان ظن أن ابن خلدون اختص بتطبيق طريقته الحرفين الكاف والصاد ، والواقع كما رأينا أن قاعدته عامة وأنه ذكر الكاف كمثال وأنه ذكر الصاد كمثال لطريقة أهل القراءات فى رسم المصحف، وهى الطريقة التى احتذاها فى وضع قاعدته .

ويهمنا من كلام دى سلان :

أولا — أن ابن خلدون نفسه لم يجر دائماً مع القاعدة التى اخترعها .

ثانياً — أن النساخين كثيراً ما أهملوها .

هذا على أنى قرأت فى الترجمة التى ترجم بها ابن خلدون لنفسه ونشرها الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى نشرا جيداً بعنوان التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (القاهرة ١٩٥١) ما يدل على أن ابن خلدون راعى القاعدة فى بعض الأحوال وأنه لم يقصر تطبيقها على الكاف البربرية والصاد كما توهم دى سلان . وإن كان أكثر التطبيق على حرف الكاف .

ففى فهرس الكلمات التى ضبطها ابن خلدون بالحركات (وهو الفهرس الوارد فى الصفحات ٤٤٠ — ٤٥٢) نقرأ :

بِنظرُه : بكسر الباء وسكون الطاء التى وضع فوقها نقطتين إشارة إلى أنّ نطقها بين الطاء والتاء . ثم راء مضمومة .

ابن تافراكِين . بكاف مكسورة تحتها نقطة إشارة إلى وجوب نطقها كافا فارسية .

تيكبوراريِن . بكسر التاء بعدها ياء . ثم كاف مضمومة قد وضع تحتها نقطة إشارة إلى أن نطقها كالكاف الفارسية . ثم راء مفتوحة .

صا : بصاد وسطها زاى إشارة إلى أن الصاد تنطق مشمة بالزاى .

كبزول . بضم الكاف وتحتها نقطة لتنطق كافا فارسية ، ثم زاى مضمومة .

ونكاسن . بفتح الواو . وسكون النون . وفتح الكاف التى وضع تحتها نقطة لتنطق كافا فارسية .

وفيما أعلم لم يهتم أحد من المؤرخين المشهورين الذين أتوا بعد عصر ابن خلدون بموضوع كتابة الأعلام الأعجمية .

وفى مستهل هذا القرن اهتم به عالمان كبيران : الشيخ ابراهيم اليازجى فى مجلة الضياء والأستاذ حفنى ناصف فى محاضراته فى الجامعة المصرية .

خصص اليازجى للموضوع فصلا من الفصول التى عالج فيها شؤون التعريب ، ونشر فى الجزء الخامس عشر من السنة الثانية للضياء (١٥ ابريل ١٩٠٠) النص الذى نقلناه عن ابن خلدون مع نصوص أخرى . ثم عاد إلى بحث الموضوع فى الجزء السابع عشر من السنة الثانية للمجلة (١٥ مايو ١٩٠٠) .

قال أن لهم : (أى للأقدمين) فى الألفاظ الدخيلة طريقين أحدهما أن تبدل الحروف التى ليست من حروفهم بأقربها مخرجا لئلا يدخل فى كلامهم ما ليس منه وهو المنقول عن سيبويه وجمهور علماء الأدب . والثانى أن تحكى الكلمات الأعجمية على أصل مخارجها وهو ماجاء فى كلام ابن خلدون . فالقول الأول إنما هو فى الألفاظ الأعجمية التى يراد إلحاقها بالأوضاع العربية

حتى تصير كأنها منها وهو التعريب بحده . والقول الثانى إنما هو فى الألفاظ الأعجمية التى يراد حكاية لفظها دون التعبير بها عن مدلولها الوصفى ولا قصد إلحاقها بالأوضاع العربية وذلك كأسماء الأعلام التى إنما يعرف مسماها باللفظ الموضوع لتعيينه فاذا غير لفظها ذهب منه ذلك ولم يبق سبيل إلى معرفة مسماه . وانظر فى هذا إلى الأسماء التى نقلتها العرب عن اللغات الأعجمية فحرفتها ، حتى أن كثيراً منها يشكل رده إلى أصله ... على أن هذه الأسماء اليوم من أصعب الأشياء مراسا على المعربين لكثرة ورودها فى الكتب والجرائد واضطرارنا إلى نقلها فى معرباتنا ، ولا تكاد تجد اسما منها يتأدى على حقه لكثرة ما يدور فيها من المقاطع التى لا وجود لها فى لساننا . وأعظمها اشكالا أمر هذه الحركات عندهم التى يعبرون عنها بالأحرف اللينة فان عندهم — خلا الحركات الثلاث التى عندنا — حركات مركبة يلفظ بها بين بين كالحركة التى بين الضم والفتح (o) والتى بين الكسر والفتح (e) وبين الضم والكسر (u) والجامعة للحركات الثلاث (eu) ولبعضها كيفيات تتشكل بها الحركة الواحدة على أنحاء مما ليس عندنا علامة لشىء منه . وكنا قد وضعنا لهذه الحركات رموزا تدل عليها بطلب بعض أرباب المطابع ولا بأس أن نصورها فى هذا الموضع لعلها توافق استحسانا من أصحاب هذا الشأن فيستعينون بها فى مواطن الإشكال ولا سيما فى كتب التعليم التى يقصد فيها تصوير اللفظ الأعجمى بالحرف العربى فقد وقفنا على عدة مؤلفات من هذا النوع ولم نكد نرى كلمة قد صورت على حقها لأنهم يعمدون إلى تصويرها بحركاتنا وهى لا تؤدى لفظها فربما قاربت بعض المقاربة وربما جاءت فى نهاية البعد عن الصورة المقصودة .

والطريقة التى جرينا عليها فى ذلك تقرب من الوجه الذى ذكره ابن خلدون أى أن يعبر عن اللفظ المتوسط بين حرفين برسم الحرفين مقترنين حتى يكون اللفظ ممتزجا منهما فجعلنا علامة الحركة التى بين الضم والفتح (o) مركبة من ضمة وفتحة مقترنتين هكذا ([illegible]) والتى بين الكسر والفتح (e)

من كسرة وفتحة هكذا (×) والتى بين الضم والكسر (u) من ضمة وكسرة هكذا (ـُـِ) والجامعة للحركات الثلاث (eu) بمقارنة الحركات الثلاث (ـَـُـِ) على أن هذا التركيب مما جرى عليه الأعاجم أنفسهم أيضا فانهم قد يعبرون عن الضم المحال إلى الفتح بالحرفين اللذين يتركب منهما فيرسمونه هكذا (au) وكذا الكسر المحال إلى الفتح فانهم قد يعبرون عنه بهذين الحرفين (ai) وعلى هذا الأصل بنينا كتابتنا نحو جناى ولتراى بألف وباء فيلفظا بالامالة . لا كما يلفظ ناى وفتاى مثلا . فلم نجر على ما درج عليه العامة وتبعهم فيه الخاصة من كتابة مثل ذلك بياء وهاء فان هذا لا يفيد تصوير اللفظ الأصلى . .

وأما سائر الحروف الصحيحة فقد كان ينبغى على مذهب ابن خلدون أن يكتب الحرف الذى بين الباء والفاء مثلا فاء منقوطة بنقوطة بنقطتين أحداهما من أعلى الحرف والثانية من أسفله أو يكتب باء منقوطة كذلك وكذا الحرف الذى بين الفاء والواو أن يكتب واو منقوطة من أعلاها . وكذلك هى تكتب فى العبرية إلا أنهم يرسمون النقطة فى جوفها وهو مجرد اصطلاح لهم وليس فى شىء من الأصل الذى ذكره ابن خلدون . إلا أن كتابنا اصطلحوا أن يرسموا الأول باء منقوطة بثلاث نقط والثانى فاء منقوطة كذلك وهو اصطلاح لا بأس به مع بعده عن الالتباس . وبقى عندنا الجيم التى تلفظ بين الجيم والكاف وهذه منهم من يكتبها غينا ومنهم من يكتبها كافا . وكلاهما يبعد بها عن أصلها وأهل مصر يكتبونها جيما لموافقتها للفظ الجيم عندهم إلا أن هذا إنما هو اصطلاح خاص كما لا يخفى . وفيه فضلا عن ذلك أن الجيم عند الافرنج لها لفظان أحدهما هذا والآخر أن تلفظ من الشجر كما فى Girard مثلا وهناك جيم أخرى هى التى فى نحو Journal وهذه عند من يلفظها جيما شجرية أبدا وحينئذ فلابد من التمييز بين لفظ ولفظ والذى عندنا أنه ينبغى أن ترسم الشجرية منقوطة بنقطة من أسفل وثلاث نقط من فوق هى نقط الشين . والتى بين الجيم والكاف

يرسم فوقها همزة الكاف وفى هذا جرى مع مصطلح ابن خلدون وان خالفه فى نفس الرسم على ما مر فى النقل عنه . وأما رسم هذه الأخيرة بثلاث نقط من أسفل كما رأيناه لبعضهم فغلط لأنها حينئذ تلفظ من مقطع مركب من الثاء والشين وهو لفظها الفارسى كما فى چنبر ونحوه ـ اه اليازجى .

وفى المحاضرات التى ألقاها الأستاذ حفنى بك ناصف بالجامعة المصرية ونشرت بعنوان « تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية » نقرأ فى الجزء الثانى منها فصلا عنوانه « سعة الحروف العربية لجميع اللغات » (١٥٤ إلى ١٥٨) .

« قال : ان الحروف الثمانية والعشرين والحركات الأربع العربية كافية لتصوير اللغة العربية ولا يحتاج العربى لأكثر منها ما دام محافظا على لغته لأنه إذا عرضت له أعلام أعجمية مشتملة على أحرف وحركات خارجة عن أحرف العربية ردها وجوبا إلى أحرف وحركات عربية تقرب منها وهذا ما يسمى تعريبا .

ولكن إذا أراد الكاتب العربى أن يصور تلك الأعلام بحروفها وحركاتها الأعجمية لينطق بها كما ينطق بها أهلها أمكنه ذلك بتعديل خفيف فى الحروف العربية .

وكذلك إذا أراد أن يكتب اللغات الأعجمية بحروف عربية فان الحروف العربية كافية لسعة تلك اللغات مع التعديل الخفيف المذكور .

وليس هذا بدع فى الاستعمال كما يزعم بعض قصار النظر لأننا رأينا الأمم الأوروبية تصور بحروفها جميع اللغات مع تعديل فى الحروف . ورأينا كثيرا منهم يتكلمون بلغات لا يعرفون من حروفها شيئا اكتفاء بحروف لغتهم وفى هذا الصنع تسهيل عظيم لمن يريد أن يتعلم لغة أجنبية عنه فى زمن قليل ، لأنه يكون متفرغا لتعلم اللغة نفسها . وكثير من طلاب

اللغات يحول بينهم وبينها صعوبة تعلم خطها فيفتر نشاطهم ويقفون فى الخط مع أنهم لو وجدوا كتبا فى تلك اللغة بخطهم لتعلموا قدرا صالحا من تلك اللغة فى زمن وجيز وأدى بهم الحال بعد أن يذوقوا حلاوتها إلى تعلم خطها من أنفسهم كما يفعل كثير من الأوربيين .

ولم يتفق كتاب العرب على طريقة لتعديل الحروف والحركات حتى تكون صالحة لتصوير اللغات الأعجمية . وأضبط الطرائق وأنفعها الطريقة التى أشار إليها العلامة عبد الرحمن بن خلدون ... وخلاصتها أن يكتب الحرف الأعجمى بحرف عربى ممتزج من الحرفين العربيين اللذين يكتنفان مخرج ذلك الحرف الأعجمى . وقد وضح حفنى بك تطبيق هذه الطريقة بأمثلة اختارها ...

قال وقد جرى على هذه القاعدة الخلدونية من علماء هذا العصر الشيخ ابراهيم اليازجى واستعملها فى مجلة الضياء إلى آخر لحظة من حياته ونحن نوافقه عليها كل الموافقة لأنها مبنية على أصل متين مضبوط غير أننا نخالفه فى أربعة حروف (V,P,J,G) . اصطلح الفرس والترك على كتابتها بطريقة أخرى واشتهرت طريقتهم فيها بين كثير من كتاب العربية. فالأخذ بطريقتهم المشهورة أولى وأقرب ولاسيما أنهما الأمتان العظيمتان اللتان تشاركان العرب فى الكتابة بالحروف العربية وإليك التفصيل :

(١) گ للدلالة على حرف G بعد A الجيم هو المستعملة فى القاهرة .

(٢) ژ » » » J الفرنسى » » فى لسان السوريين والمغاربة .

(٣) پ للدلالة على حرف P

(٤) ڤ » » » V الذى بين التاء والواو

(٥) خ‍ » على الحرف الجرمانى CH المنطوق به فى جرمانيا بين الخاء والشين

للدلالة على الحركة O التى بين الضمة والفتحة كـخوخ فى لسان القاهرة .

للدلالة على الحركة U التى بين الضمة والكسرة كقيل بالاشمام فى لغة قيس .

للدلالة على الحركة E التى بين الفتحة والكسرة كليل فى لسان القاهرة .

للدلالة على الحركة EU التى بين الضمة والفتحة والكسرة كفلور عند الفرنسيين .

فاذا مدت هذه الحركات الأربع دل على المدبواو ما عدا ⋊ (أى علامة الحركة E التى بين الفتحة والكسرة) فيدل على المد بعدها بألف على طريقة الصرفيين أو بياء على طريقة أصحاب القراءات .

وتضع فوق النون الساكنة زاوية حادة هكذا ^ لتدل على النون الخفية فى لسان فرنسا مثل بيا نْ وزاوية منفرجة لتدل على النون المفخمة مثل سا نْ .

فان قلت إن الحركة ⋊ لا تكفى للدلالة على حرف e التى بين الفتحة والكسرة لأن هذه الإمالة عند الافرنج ليس نطقها واحدا لأن منها الخفيفة ومنها الشديدة . . . فالجواب ان هذه العلامة ⋊ زاويتاها العليا والسفلى منفرجتان ويمكن تضييقهما هكذا × وهكذا X

فكلما كانت الامالة إلى الياء أكثر كانت الزاويتان المذكورتان أضيق وبذلك تتم الدلالة المطلوبة . . .

ولم نذكر فى الحروف التى أخذناها عن الفرس والترك حرف (چ) لأنه لا حاجة إليه لأن الأمتين المذكورتين ينطقان به (تش) وهما تاء ساكنة وشين وهما موجودان فى الحروف العربية الأصلية . . . ولا داعى لوضع حرف خاص بالجيم الانجليزية J لأنها كالجيم العربية الصحيحة . . .

ا هـ . كلام حفنى بك ناصف .

(ب) المجمع وكتابة الأعلام الأعجمية[1]

عنى المجمع بالأمر وفى الجزء الرابع من مجلته الصادر فى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة بعد الألف نجد مقترحات لجانه وقراراته .

وهذه أهم القرارات نثبتها من جديد مصحوبة ببعض الملاحظات :

١ — يكتب العلم الافرنجى الذى يكتب فى الأصل بحروف لا طينية بحسب نطقه فى اللغة الافرنجية ومعه اللفظ الافرنجى بحروف لا طينية بين قوسين فى البحوث والكتب العلمية ، على حسب ما ميزه المجمع فى شأن كتابة الأصوات اللاطينية التى لا نظير لها فى العربية .

٢ — تكتب الأعلام الأخرى التى ترسم بغير الحروف اللاطينية والعربية بحسب النطق بها فى لغتها الأصلية ، أى كما ينطق بها أهلها لا كما تكتب مع مراعاة ما يأتى من القواعد .

٣ — جميع المعربات القديمة من أسماء البلدان والممالك والأشخاص المشهورين فى التاريخ التى ذكرت فى كتب العرب ، يحافظ عليها كما نطق بها قديما ، ويجوز أن تذكر الأسماء الحديثة التى شاعت بين قوسين وإذا اختلف العرب فى نطقين رجح أشهرهما .

هذا ولا أرى مصلحة فى المحافظة على جميع المعربات القديمة كما ذكرت فى كتب العرب فقد وردت فى أكثر الأحوال محرفة تحريفا شديدا هذا إلى الاختلاف الشديد فى النطق بها . فلنكتف بالمحافظة على المعربات القديمة الكثيرة التداول فقط — على أن نكتبها أيضاً بالحروف اللاطينية كما وردت فى لغاتها الأصلية .

ولا أرى مصلحة أيضا فى ذكر الأسماء الحديثة التى شاعت ، فهذه لم تستقر بعد على رسم واحد متفق عليه فى أى قطر من الأقطار العربية .

---

(١) مجلة المجمع ، الجزء الرابع ص ١٨ — ٢١ .

٤ — الأسماء الأجنبية النصرانية الواردة فى كتب التاريخ تكتب كما عربها نصارى الشرق . فمثلا يقال بطرس فى Peter وبقطر فى Victor وبولس فى Paul ويعقوب فى Jacob وأيوب فى Job وهكذا .

وهذا قرار مهم يلفت النظر إلى وجوب الانتفاع بما نشره النصارى من العرب بالعربية فى اللاهوت والفلسفة وتاريخ النصرانية الخ . .

على أن القرار الذى نحن بصدده يحتاج إلى توضيح . مثلا ما المقصود من الأسماء الأجنبية النصرانية . . . إن كان المقصود أسماء الذين كانوا نصارى فأيوب ويعقوب لم يكونا نصرانيين . وإن كان المقصود الأسماء الواردة فى الكتب المقدسة عند النصارى فهذا يلزمنا بأن نكتب جميع أسماء القبائل والشعوب والأشخاص التى وردت فى الكتب المقدسة حتى ولو لم يكن أصحابها يهوداً أو نصارى . وهذا يخالف القرارين الأول والثانى .

فأقترح أن نقصر تطبيق القرار على الأعلام والأسماء الإسرائيلية قبل تفرقهم فى الأرض وعلى الأعلام والأسماء النصرانية فى القرن الأول الميلادى . أى عند انتهاء العصور التى يؤرخها كتب العهد القديم والعهد الجديد وما يتصل بها من أصول .

٥ — يقبل المجمع إدخال الحروف الآتية : —

گ ، للدلالة على الحرف « جاف » المقابل لحرف G كما تنطق فى كلمة Gare الفرنسية أو Girl الانكليزية .

(ويلاحظ أن قرار المجمع رسمت فيه ک هذه هكذا ڴ أى كاف منقوطة بثلاث نقط .

ژ ، ليقابل الحرف J الفرنسى ، وقد عدل المجمع عن هذا فى دور انعقاد آخر وقرر أن يكتب الحرف (J) جيما عربية أى معطشة .

وأرى أن يعدل عن هذا العدول ، إذ لا احتمال لعدول أهل القاهرة وغيرهم عن النطق بالجيم غير معطشة .

وحرف (J) هذا ينطق فى الألمانية ياء فنكتبه فى العربية عندئذ كذلك وينطق به فى الأسبانية خاء نكتبه فى العربية عندئذ كذلك .

پ لتقابل الحرف P

ڤ « « V

چ « الحروف TCH وكان من رأى الأستاذ حفنى بك ناصف الاستغناء عنه بكتابة الحرفين تش .واعتقد أن استخدام الحرف چ أضبط .

وكان من رأى الأستاذ أيضا استخدام الخاء المنقوطة بثلاث نقط لتقابل الحرف الجرمانى CH المنطوق به بين الخاء والشين ولكن هذا الحرف ينطق به فى الألمانية أحيانا خ كما فى ACHT مثلا ، وفى غير ذلك هو أقرب إلى الخاء منه إلى الشين ولذا فإنى لا أرى ضرورة لهذه الخاء المنقوطة بثلاث نقط .

٦ — وقد عرض المجمع للحركات ، وقراراته فى شأنها أبسط كثيراً مما اقترح الشيخ اليازجى والأستاذ حفنى بك . على أنها لا تزال تحتمل مزيداً من التبسيط . فإن الغاية هى النطق بالكلمة الأعجمية نطقا قريبا من نطق أهلها بها — ومهما أكثرنا من العلامات فإننا لن ننطق بها كنطق أصحابها — . هذا إلى أن الحركات تختلف من لغة افرنجية إلى أخرى ، فكيف نستطيع أن ندبر علامة تنفع للانجليزية وللألمانية وللفرنسية الخ . والاكثار من العلامات يؤدى حتما إلى التعقيد والتصحيف .

قرر المجمع أن يكتب الصوت المقابل لحرف O وما يشابهه (و) إذا كان الصوت ممدوداً مثل HOOD أما إذا كانت الواو مائلة إلى الألف مثل ROME فإنها تكتب واوا أيضاً ، وتوضع علامة قصيرة كالألف على

الحرف السابق للواو . واعتقد أن لا ضرورة تحتم هذا التمييز بين الصوتين .

وقرر المجمع أيضاً أن يكتب حرف A الانكليزى (ا) . وإذا كان فى أول الكلمة كتب ألفاً عليها همزة . وإن تكتب الحروف الانجليزية e, i, y وكل ما أشبهها فى النطق ياء ، وإذا كان الحرف ممالا فى اللغة الأجنبية ، وضعت ألف قصيرة قبل الياء لتدل على أنه ممال . ولا أرى ضرورة للدلالة على الامالة — فمثلا اسم Yale تكتب ييل وتكسر الياء الأولى . وهذا فى رأيى يكفى .

وقرر أيضا أن يكتب الحرف (e) المُشَمّ فى الفرنسية أو غيرها (و) ويرسم على حرف العلة علامة كالرقم ٨ مثل كَوتَه — ورأيى أننا إذا كتبنا جوته هذه هكذا : كِيتَه بالكاف الفارسية المكسورة والياء والتاء المفتوحة لأتى النطق قريبا مما ينبغى أن يكون ولاستغنينا عن علامة جديدة .

وفيما يتعلق بالامالة ، رأى المجمع أن توضع علامة أشبه بالمدة الرأسية للدلالة على هذا الصوت كما فى Seine مثل فيكتب « سين » واعتقد أن كسر السين يكفى .

ورأى المجمع أن توضع علامتان للدلالة على حرف « U » و « O » المخففتين واختار للدلالة على هذه أل U واوا عليها ما يشبه الرقم ٧ — وفى رأيى أن لا ضرورة تحتم رسم هاتين العلامتين ٧ ، ٨ وأن تشكيل الحرف السابق لحرف العلة بما يقتضيه النطق الأصلى يكفى .

وأهم ما فى هذا الجزء الرابع من المجلة قرارات اقترحتها لجنة من أعضاء المجمع لكتابة الأعلام اليونانية واللاطينية (الصفحات ٣١ إلى ٣٨) .

ولا نأخذ على هذه القرارات الا مبالغتها فى المحافظة على المعربات القديمة . وهذا مع وجود أسباب قوية تقضى بالتحفظ فى استعمال تلك المعربات ، أولا ، لما كان بين بلاد المغرب وبلاد المشرق من اختلاف

فى التعريب ، وثانيا لأن الأعلام اللاطينية التى نقلها مترجمو العلوم فى المشرق إنما نقلت عن أصول يونانية فجاءت أحيانا مغايرة لأصلها اللاطينى ، وثالثا لأن المترجمين جروا على عرف السريان غالبا فى نقل الأعلام والألفاظ اليونانية ، مثال ذلك أن بعض الحروف اليونانية كالحرف اليونانى المنطوق P = Π قد نقل إلى العربية (فاء) مرة ومرة (باء) مخففة على مقتضى قواعد النطق والخط السريانى. ومع ذلك فان لجنة مصطلحات التاريخ تسجل إعجابها بعمل اللجنة الخاصة وتحمد لها بصفة خاصة تجنبها استحداث علامات أو تعقيدات واعتمادها على « الشكل » لضبط النطق . وستتخذ لجنة مصطلحات التاريخ عمل اللجنة الخاصة السابقة أساسا إلا أنها سترجع مباشرة إلى الأعلام اللاطينية ولن تتقيد بعرف السريان ولن تحافظ إلا على المعربات القديمة الكثيرة التداول . وستكون طريقة اللجنة الاتيان بأكبر عدد ممكن من أعلام التاريخ اليونانى الرومانى مرسومة بصفة أساسية وفق القواعد التى وضعتها لجنة المجمع القديمة ومع مراعاة التمثيل القيم لتلك القواعد الذى قام به الأستاذ اسماعيل مظهر ونشر فى نفس الجزء من المجلة (الصفحات ١٢٤ — ١٤٠) .

محمد شفيق غربال